

مجموعُ آثارِ سماحةِ الشَّيخ

عبدالله بن محمّد بن حميد

رحمه الله

١٣٢٩هـ - ١٤٠٢هـ

شرحُ كتابِ التوّحيد

للشّيخ مُحمَّد بن عبد الوهّاب

المجلَّدُ الرَّابِعُ

الجزء الأول



ح رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي ، 1446هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي
مجموع آثار سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله
رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي
ط 1 - مكة المكرمة ، 1446 هـ
23 مج ، 386 ص؛ 17×24 سم

رقم الإيداع: 1446/9287
ردمك: 978-603-8506-00-4 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8506-04-2 (ج4)







مجموع آثار سماحة الشيخ

عبد الله بن محمد بن حميد

رحمه الله

١٣٢٩هـ - ١٤٠٢هـ

شرح كتاب التوحيد

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

المجلد الرابع

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبارك وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإن (كتاب التَّوحيد) الذي هو حق الله على العباد، والذي شرحه سماحة الشيخ عبد الله ابن حميد رحمه الله؛ هو من أعظم مؤلفات الإمام المجدد الشيخ: محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وقد ألَّفه في بيان توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، والبراءة من ذلك، وبيان ما يناقضه من الشرك الأكبر، أو ينقص كماله الواجب أو المستحب من الشرك الأصغر.

ومنهجنا في إخراج شرح سماحته لكتاب التَّوحيد ما يلي:

١- مطابقة الكتاب المطبوع بالمقروء على سماحة الشيخ عبدالله ابن حميد رحمه الله.

٢- تفريغ التعليقات من المادة السمعية؛ فإن استعصى شيء منها مع بذل الوسع نشير إليه بمعكوفتين يتوسطهما نقاط [...].

٣- التصرف في التعليقات تقديمًا وتأخيرًا وحذفًا وإعادة صياغة إن لزم.

٤- إلحاق التعليق بمتن الكتاب وفق المجالس التي عقدها سماحة الشيخ عبد الله ابن حميد رحمه الله.

٥- مقابلة عملنا مع نسخة فضيلة الشيخ الدكتور خالد بن ماجد العمرو -وفقه الله-؛ وذلك لأجل إدارك أي نقص في تفريغنا من الأشرطة الصوتية للشرح؛ استكملنا منه حسب منهجنا الذي قمنا به.

٦- الجزء الذي قرئ من الكتاب على الشيخ إذا لم نقف على تعليق له؛ نذكر عقب إيراد ذلك المتن أننا: (لم أعثر على تعليق سماحته).

٧- إذا وقفنا على التعليق لكن استغلق تفريغه لعدم وضوحه؛ أشرنا إليه بعد المتن بقول: (تعليق الشيخ رحمه الله غير واضح).

٨- إذا وقفنا على جزء من التعليق ولم نقف على باقيه بيَّنا ذلك بقول: (لم يتم الوقوف على بقية التعليق).

٩- عزو النقولات إلى مصادرها ومراجعها مسبوقًا بكلمة: (ينظر).

١٠- عزو الأحاديث لمظانها؛ فإن كان في الصحيحين نكتفي بهما أو بأحدهما، وإن كان في غيرهما نكتفي بالعزو لمصدرين في الأغلب، مع ذكر الراوي الأعلى.

١١- الأحاديث الواردة بتصرف نُرجعها لأصلها في مظان متون الحديث.

١٢- الحديث الذي له عزو مسبق، ولم نقف عليه فيه نعزوه لمظانه.

والله نسأل أن يجعله عملًا مباركًا ينفع به الإسلام والمسلمين، إنه سميع مجيب.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ – إلى قوله- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]»[(١)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟».

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٣٠٧٠)، والطبراني في الأوسط (ح: ١١٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح:٧٥٤٠) موقوفا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فقلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا».

فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟

قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». أخرجاه في الصحيحين[1].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه باختلاف يسير (ح: ٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه باختلاف يسير (ح: ٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

كتاب التوحيد

هذا الكتاب يذكر فيه: التوحيد، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له.

ويذكر فيه: الشرك الأكبر المنافي للتوحيد.

ويذكر فيه: الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد.

ويذكر فيه: الذرائع والوسائل المقربة إلى الشرك أو الموصلة إليه.

ويذكر فيه: البدع القادحة في التوحيد.

ويذكر فيه: المعاصي المنقصة لثواب التوحيد، هذا موضوع الكتاب.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

اللام في الآية الصحيح أنها لام التعليل وليست لام العاقبة، لا يلزم أن تحصل العبادة من جميع الناس، بل ذكر الرب الأول -وهو خلقهم- لا ليفعل بهم كلهم الثاني- وهو: العبادة- بل ليفعلوا هم الثاني؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فهل كل رسول يطاع بكل حال؟

منهم من يطاع ومنهم من يُعصى، فاللام هنا لم تكن للعاقبة؛ لأننا لو جعلناها للعاقبة لكانت العبادة واقعة من الخلق بكل حال، وهذا غلط، وإنما هي للتعليل.

وأما تعريف العبادة فقد قال ابن تيمية: «العبادة طاعة الله بامتثال أوامره بمقتضى ما جاء على ألسنة رسله» (١).

---

(١) ينظر: جامع الرسائل (٢/ ١١٠).

وقال: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(١).

والحنابلة يقولون -كما في الروض-: «العبادة: ما أمر به شرعا، من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي»(٢).

وقبل بيان معنى تعريف الفقهاء للعبادة نقول: البدع والأشياء التي شاعت في وقتنا هذا يرى من يفعلها أنها سنة، كالاحتفال بالمولد، يخاصمك شخص فيقول: «المولد عبارة عن إظهار الشكر بوجود خاتم النبيين وإمام المرسلين، ودلالة وعلامة على محبته، نقيم الاحتفال لمحبته، ونحن لا نقصد إلا الخير!».

ويقول: «ننطق باللسان، نريد أن أفعالنا تنطبق مع أقوالنا ونياتنا»(٣).

فماذا تقول؟

نقول: لو كان خيرا لسبقونا إليه.

فيقولون ورد حديث: «**مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ**»(٤).

ننظر في هذا الحديث، فنقول: هذا ليس حديثا، هذا موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) **ينظر**: العبودية (ص٤٤).

(٢) **ينظر**: الروض بحاشية ابن قاسم (١/ ٤٢).

(٣) يراد به: التلفظ بالنية.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٣٦٥١)، والطيالسي في مسنده (ح: ٢٤٣) والطبراني في الأوسط (ح: ٣٦٠٢)، والحاكم في مستدركه (ح: ٤٤٩١).

يقول المخالف: بما أنه موقوف على عبد الله بن مسعود، فحسبك به فهو من أفاضل الصحابة، ولم يفعله الصحابة، لكن هذا من باب الاستحسان! ونحن لا حللنا حراما ولا حرمنا حلالا! إنما هو تعظيم محمد ﷺ!

نقول: لو سلمنا جدلا فمعنى: «ما رآه المسلمون» - يعني: مجموع المسلمين المجتهدين منهم - فيؤخذ بقول المجتهدين في هذه المسألة، ومع ذلك فلا يقرهم أكثر المسلمين، أكثر علماء الإسلام الذين لا يقرون الخرافات لا يرون هذا، كما أن الرسول ﷺ أخبر أن أمته لا تجتمع على ضلالة وهؤلاء منفردون بهذا، هذا على تقدير صحته وإلا فالحديث موضوع، أثبتوا أن كل المسلمين رأوه؛ لأن لفظه يقتضي العموم، ونحن من المسلمين ولا نراه، وخلق كثير من المسلمين لا يرونه، إذا اجتمع المسلمون كلهم وأطبقوا عليه نأخذ به، هذا على تقدير صحة الحديث.

ثانيا: نقول: هذا بدعة؛ لأن العبادة هي: (ما أمر به شرعا من غير اطراد عرفي)، فالعرف ليس له دخل في هذا كأن تقول: عمل المسلمين منذ أزمان طويلة، وهذا جرى عليه المسلمون، وهذا عمل الناس، هذا لا دخل له في العبادة.

(أو اقتضاء عقلي): تقول: العقل يؤيد هذا؛ تعظيما للرسول ﷺ، وتنويها بشرفه، وتنبيها على فضله.

نقول: العقل ليس له دخل في هذا، وعرف الناس وكونه موجودا في كثير من الأمصار ليس له دخل -أيضا-، إنما العبادة ما أمر الله به من طاعته على

ألسنة رسله، فأعطونا على ألسنة الرسل أنهم أمروا بالاحتفال بالمولد!، ومثله الأعياد المحدثة -أيضا- كعيد جلوس الملك على العرش الفلاني، وعيد الوطن، وعيد كذا، يقيمون الاحتفال بالأعياد، والتنويه بالصحف والإذاعات، كل هذا من أبطل الباطل، ليس عند المسلمين أعياد غير عيد الفطر وعيد الأضحى، ليس عندنا أعياد غير هذا، وكل هذا من مشابهة أهل الكتاب.

كذلك التلفظ بالنية وإن ذهب إليه متأخرو الحنابلة والشافعية وبعض الحنفية، ويقولون: لأن النية شرط لصحة الصلاة، وينبغي أن اللسان ينطق بها؛ ليكون النطق مواطئا للقلب، فالنية في القلب وأكدها اللسان، فقولي: «نويت كذا»، ما جئت بشيء جديد، فأنا أعبر عما في قلبي فقط، وأنتم تقولون: إن الصلاة لا تصح إلا بالنية لحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[(١)]، فأنا أنطق بلساني معبرا عما في قلبي مؤكدا لتلك النية أني أريد الصلاة خلف هذا الإمام صلاة العشاء أربع ركعات أداء؛ لذلك قالوا: إنها تستحب.

فبماذا نرد عليهم من تعريف الفقهاء الذي سبق ذكره في قولهم: «ما أمر به شرعا من غير إطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي»؟

نقول: عقلك ليس ميزانا، فليس له دخل في العبادة، ولهذا قال ابن تيمية في مسألة التلفظ بالنية: «والله لو بقي أحدهم عمر نوح يفتش هل تكلم الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١)، ومسلم في صحيحه (ح:١٩٠٧) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بقول: (نويت) أو أحد من الصحابة فلن يجد، لا في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف ولا موضوع»[1].

وقال: وعموم القرآن يرده، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦] يقول: نويت كذا! كأن الله لم يطلع عليه! والمقصود من هذا كله بيان تعريف العبادة.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣].

أي: وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا، والإحسان بالوالدين هو برهما وطاعتهما وتنفيذ أوامرهما وعدم الغلظة عليهما والرفق بهما، هذا هو الإحسان، لاسيما عند الكبر: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تنفض يدك على والديك»[2].

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أي: لينا طيبا سهلا.

ثم تذكر حالتهما معك حينما كنت صغيرا وقد ربياك وعطفا عليك، فاعطف عليهما حال الكبر.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] كانت العرب تقتل البنات خشية العار وخشية الفقر، وربما قتلوا الذكور خشية الفقر، وذلك أن الإنسان إذا كثر عياله وأولاده احتاج إلى أن يطعمهم ويقوم بشؤونهم، فيخاف

---

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٤) لابن تيمية، وإصلاح المساجد (ص٧٣) للقاسمي.
(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (١٧/ ٤١٧) لابن جرير الطبري.

من الفقر فيقضي عليهم، فالله ﷻ نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ خشية الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] فما خلق الله مخلوقا إلا وقد تكفل برزقه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وكما قال ابن زريق في قصيدته المعروفة لما ذهب للأندلس يبتغي الغنى ولكن مات هناك، لم يحصل على شيء، سأل عنه أمير المؤمنين قال: أين المشرقي؟

فطلبوه، فإذا هو ميت، والقصيدة مكتوبة عند رأسه، وكان قد جاء يطلب من السلطان بعض المساعدة ولكن لم يعطه شيئا، فلما قرأ السلطان القصيدة قال: «لو كان حيا لشاطرته ملكي»، يقول في أولها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ❁ قد قلت قولا ولكن ليس يسمعه

وفيها يقول:

والله قسم بين الخلق رزقهم ❁ لم يخلق الله مخلوقا يضيعه[1]

فالله -سبحانه وبحمده- لم يخلق مخلوقا يضيعه أبدا، بل تكفل بأرزاق العباد؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]، لكن هل يدخل في هذا استعمال حبوب منع الحمل ويسمى قتلا للأولاد؟ فلولا المنع لحملت المرأة وجاءت بأولاد.

---

(١) ينظر: مصارع العشاق (١/ ٢٣) لأبي محمد جعفر الحسيني، وطبقات الشافعية (١/ ٣٠٨) لتاج الدين عبد الوهاب السبكي.

قد يقول قائل: استعمالها ليس لأجل الإملاق ولكن لأمر آخر، لا يريد كثرة العيال.

نقول: هذه المسألة تكلم عليها شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا تدخل في معنى الآية؛ لأن الولد لم يوجد فهو لا يزال معدوما؛ ولهذا قال ابن تيمية وغيره: يجوز للمرأة أن تستعمل الدواء الذي يمنع المني من النفاذ في مجاري الرحم بشرط ألا يضر[(١)]، فإذا استعملته لأجل منع الحمل وهو لا يضرها فلا مانع حينئذ.

هذا رأي شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك الأصحاب قرروا جواز هذا بشرط ألا يضر بها، فإن أضر بها ذلك فلا يجوز.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١- ١٥٣][(٢)].

جاء أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مرض واجتمع عنده الصحابة، قال: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»، فكثرت الأصوات عند الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعضهم يقول: ائتوه بكتاب يعهد لنا فيه وصية.

---

(١) **ينظر**: مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٩٧)، وفيه: أن الأحوط تركه.
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (ح:٣٠٧٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (ح:٥٨٠٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والبعض منهم يقول: لا تشغلوا رسول الله ﷺ فقد أشغله المرض، فـ
-صلوات الله وسلامه عليه-، وهو لم يكتب لهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما:
الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كِتَابِهِ»(١).

قال الحبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد
التي عليها خاتمه) لم تغير ولم تبدل (فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَـ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾)، وذلك لعلم ابن مسعود أن الرسول ﷺ لو وصى لم يو
إلا بما ما وصى به الله ﷻ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُـ
وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
[الأنعام: ١٥١-١٥٢-١٥٣].

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم القليـ
والكثير.

والشرك قسمان: أصغر وأكبر، وضابط (الشرك الأصغر) هو: ما ورد في
النصوص تسميته شركا ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، وذلك مثل يسير
الرياء، ومثل قول: ما شاء الله وشئت، ومثل الحلف بغير الله، ما لم يقع في قلب
الحالف تعظيم المحلوف كتعظيم الله فيصل إلى حد الشرك الأكبر -حينئذ-.

وضابط (الشرك الأكبر): تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١١٤)، ومسلم في صحيحه (ح:١٦٣٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(١) باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»[(١)].

ولهما في حديث عتبان رضي الله عنه: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: يَا مُوسَى، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا. قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ! قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» **رواه ابن حبان، والحاكم وصححه**[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٤٣٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٤٠١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٣٣) من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (ح:١٠٦٠٢)، وأبو يعلى في مسنده (ح: ٤٢٠)، والحاكم في مستدركه (ح: ١٩٤٢)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦٢١٨).

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].



(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (ح: ٤٣٠٥)، والبزار في مسنده (ح: ٦٧٦٠)، والمقدسي في المختارة (ح: ١٥٧١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

شرح: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

هي كلمة التوحيد، من أجلها خلقت الخليقة، ومن أجلها أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وجردت لأجلها سيوف الجهاد، ومن أجلها حقت الحاقة، ووقعت الواقعة، ومن أجلها قام سوق الجنة والنار، ومن أجلها نصبت الموازين.

هي دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خفي عليه عظم هذه الكلمة! ولهذا قال: «كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا» كأنه قال: (يا رب، أردت شيئا تخصني به من بين العباد)، فهو يريد أن يختص بدعاء دون غيره من بقية العباد، وذلك لأنه كليم الله، ولأنه من أولي العزم من الرسل، فلما خفي عليه فضل «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» نبهه الرب -سبحانه- بقوله: «لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي»؛ يعني: ساكنها غيري «وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ »، بين الله له عظم هذه الكلمة، وأن السماوات بما فيها من الأفلاك والسكان، وأن الأرضين بما فيها من السكان والجبال والبحار لو جعلت في ميزان وهذه الكلمة في كفة أخرى لرجحت هذه الكلمة بجميع هذه المخلوقات، فهذا يدل على فضل هذه الكلمة العظيمة.

وفي هذا فوائد:

الأولى: أن هذه الكلمة خفي فضلها وعظم شأنها حتى على أفاضل الأنبياء كموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى نبهه الله عليها.

الثانية: فيه دليل على أن هذه الكلمة هي من أفضل الدعاء وأعظمه، ولهذا قال النبي ﷺ: «خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1].

وفيه أن مجرد النطق بها لا ينفع ولا يؤثر إذا تخلف العمل، فلابد أن يعرف معناها ويعمل بمقتضاها، وإن حصل عند الإنسان ذنوب وارتكب جرائم فهو تحت المشيئة، لا نكفره ولا نخرجه من الإسلام، بل نقص من قوله: (لا إله إلا الله) بقدر مخالفته.

أما إذا صرف شيئا من العبادة لغير الله، فهذا قد أبطل عمله، وهو مشرك الشرك الأكبر الذي يحل دمه وماله، أما مجرد الكبائر وارتكاب الصغائر فهذا لا يخرج من الملة؛ لأنه يقول: (لا إله إلا الله) ويعمل بمقتضاها بصرف العبادة لله وحده لا شريك له، فهو تحت المشيئة إن شاء الرب -سبحانه- غفر له وإن شاء عذبه في النار بقدر جرائمه ثم مآله إلى الجنة؛ كما هو قول جمهور أهل السنة خلافا للمرجئة وخلافا للخوارج والمعتزلة وغيرهم من المبتدعة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وكما في حديث الشفاعة الطويل: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[2] إلى آخر الحديث المعروف.

وفيه فضل هذه الكلمة إذا قالها الرجل بصدق وإخلاص ويقين فإنها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٦٩٦١)، والترمذي في جامعه، واللفظ له (ح:٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (ح:٢٢)، ومسلم في صحيحه (ح:١٨٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

ترجع بجميع المخلوقات؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا **هَذِهِ الْبِطَاقَةُ** مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا رجل قالها بصدق وإخلاص ويقين»(٢).

فالأعمال لا تتفاضل بالصور ولا بالعدد، وإنما تتفاضل بمصدرها من القلب، فقد يصلي الإنسان وقد يتصدق ويكثر العبادة، لكن الآخر أقل منه عبادة إلا أن عبادته صدرت من قلب حي، فهذا الذي صدرت عبادته من قلب حي وإخلاص لله - تعالى- أفضل من الآخر؛ وقد يكون بينهما كما بين السماء

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح:٢٦٣٩)، وابن ماجه في سننه (ح:٤٣٠٠) وأحمد في مسنده (ح:٦٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه (ح:٤٦١)، والحاكم في مستدركه (ح:٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٢).

والأرض، وكما بين المشرق والمغرب، لكن هذا الحديث مطلق وقيده المصنف بما سيأتي في حديث أنس: «لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا» أي: أن (لا إله إلا الله) لا تنفعك إلا بشرط أن تلقى الله وأنت سالم من الشرك قليله وكثيره وقد مت على التوحيد.

وفيه دلالة على علو الله على خلقه، والأدلة على ذلك كثيرة؛ لأنه قال: (وعامرهن)؛ يعن: السماوات، والسماوات معلوم أنها أعلى من الأرض وأرفع، وكما في قوله -تعالى-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]؛ أي: أأمنتم من على السماء، والآيات كثيرة، كلها تدل على إثبات العلو لله.

وللترمذي وحسنه عن أنس ﵁: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

أنس ﵁ خدم النبي ﷺ، وقد دعا له الرسول ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**»(٢)، فكان من آخر من مات من الصحابة، توفي سنة اثنين وتسعين أو ثلاث وتسعين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٤٤)، ومسلم في صحيحه (٦٦٠) من حديث أنس ﵁.

وقالوا: إن له من الولد نحو مئة وعشرين، فهذا ببركة دعاء النبي ﷺ، وهو من أفاضل الصحابة رضي الله عنه.

قوله: (قال الله تعالى): هذا حديث قدسي؛ لأن الرسول ﷺ يحكيه عن الله، فهذا من كلام الله.

والله يقول: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي): فالإنسان ينبغي أن يكثر من الدعاء وأن يلح في الدعاء؛ فإن الله أمر عباده أن يدعوه في آيات كثيرة، ووعدهم أن يستجيب لهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ -يعني: عن دعائي- ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] يعني: صاغرين ذليلين حقيرين، فقد توعدهم -سبحانه- إذا لم يدعوه أن يدخلهم جنهم صاغرين ذليلين حقيرين.

الله يغضب إن تركت سؤاله ❁ وبني آدم حين يسأل يغضب

فأنت إذا سألت الآدمي فإنه يملك ويسأم منك ويغضب، أما الرب -سبحانه- فإنه يغضب إذا لم تسأله ولم تدعه، -تعالى-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ كل هذا يدل على مشروعية الدعاء، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إني والله لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء؛ لعلمي أني إذا وفقت للدعاء حصلت الإجابة»[(١)].

---

(١) ينظر: الاقتضاء (٢/ ٢٢٩) لابن تيمية، والداء والدواء (ص: ٢٩) لابن القيم، ولم يتم الوقوف عليه مسندا.

فمن علامات الإجابة: أن يوفقك الله للدعاء، ولكن الدعاء لا يكون من طرف اللسان، بل لابد أن يصدر من صميم القلب، فإذا صدر من صميم القلب، من قلب حي مقبل على خالقه وباريه فالله لا يخيب دعاءه ولا يرده.

بل إما أنه يعطي سؤلك، ومجيب دعاءك، أو أن يدخر دعاءك هذا في الآخرة، أو يصرف عنك من البلاء ببركة دعائك ما لا تعلمه.

فالدعاء إذا صدر من قلب حي مستجمع لشروط قبول الدعاء فإن الله لا يخيب دعاء الداعي أبدا، إلا أن الدعاء المستجاب له شروط، كما قال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله ادع الله أن أكون مجاب الدعوة.

فقال ﷺ: «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ»(١)، فالحرام إذا خالط البدن والقلب والدم فحري ألا تجاب دعوة من هذا حاله، ولهذا حرم الله الميتة، قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قال العلماء: الحكمة في تحريم الميتة؛ أن الرطوبات بقيت فيها، ولها تأثير في القلب؛ فإن الإنسان إذا أكل الميتة فإنها تؤثر في الدم وتؤثر في القلب بالقسوة والبعد عن الله -سبحانه-، وذكر العلماء أشياء كثيرة من هذا النوع.

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»: هذا يدل على كرم الرب وعظيم إحسانه وأنه ينبغي أن تلح بالدعاء،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح:٦٤٩٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ولكن الدعاء أفضله أن تكون ساجدا، كما في الحديث: «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[1]؛ أي: حري أن يستجاب لكم، إلى غير ذلك.

ثم قال: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء»؛ أي: السحاب، لو كان لك ذنوب من الأرض حتى السحاب وما يقاربه «ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي» يعني: متى دعوت الله وطلبته واستغفرته من قلب حي فإن الله يغفر لك، قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرة، إلا أن الاستغفار مشروط بأداء الواجبات، وأن يكون من قلب حي، أما إذا كان من طرف اللسان ولم يصدر من القلب فهذا وجوده كعدمه؛ كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ**»[2]، يعني: ما في القلب لابد أن يصدقه العمل، فالعمل إذا كان صادرا من القلب فهذا الذي ينفع.

ثم قال: (يا ابن آدم لو أتيتني)، يعني: يوم القيامة، (بقراب الأرض): وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها ذنوبا وخطايا (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)؛ أي: لأتيتك بملء الأرض أو بما يقارب ملأها مغفرة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في هذا الحديث فوائد:

الأولى: شرط غفران الذنوب أن تلقى الله لا تشرك به شيئا، سالما من الشرك قليله وكثيره، فإذا مت على التوحيد وهو حقيقة: (لا إله إلا الله) فإن مآلك إلى الجنة بكل حال، ولو كان هناك ذنوب، لكن هذه الذنوب إن شاء الرب -سبحانه- غفرها لك، وإن شاء أدخلك النار وعذبك بقدر ذنوبك وجرائمك، ثم المآل إلى الجنة، وهذا التوحيد باللسان وبالقلب وبالجوارح، ليس باللسان فحسب، بل لابد أن يكون من القلب، ومن اللسان، ومن الجوارح، فاللسان يقول، والقلب يعتقد، والجوارح تعمل، فإذا كان كذلك فهذا هو الموحد.

والشرك المنافي للتوحيد هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، هذا الشرك الأكبر، وصاحبه كافر حلال الدم والمال ما لم يتب.

والشرك الأصغر وهو الذي ينافي كمال التوحيد ضابطه: ما ورد في النصوص تسميته شركا ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، كيسير الرياء، ومثل قول: «ما شاء الله وشئت»، ومثل: «لولا الله وفلان»، وما أشبه ذلك، فإذا لقيت الله سالما من هذا كله، صافيا توحيدك، عملك لله، واعتقادك لله، وقولك لله، فإن الله -سبحانه- يقابل ذنوبك بالمغفرة، وربما أن الذنوب تنقلب حسنات إذا صفي توحيدك وقوي؛ لأن توحيد الناس يختلف كما أن الإيمان يزيد وينقص على حسب ما وقر في القلب، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد دل على هذا القرآن، خلافا للمرجئة والأشاعرة؛ فإن المرجئة يقولون: الإيمان مجرد

التصديق، فإذا صدق الإنسان بقلبه يعني: وحد الله بقلبه كفى، وإن لم ينطق لسانه، ولم تعمل جوارحه!

لو كان هذا صحيحا لكان أبو جهل من جملة المؤمنين! لأنه مصدق بقلبه، إلا أنه جحد ذلك عنادا وكفرا، كما حكى الله عنه في القرآن: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثم -أيضا- العمل مع اختلال العقيدة لا ينفع، والعقيدة والقول مع تخلف العمل لا تنفع، بل لابد من هذا، وهذا، وهذا، قول وعمل واعتقاد، فإذا مات الإنسان على هذا، فإن الله يغفر له ما حصل له من الذنوب؛ كما في الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

الفائدة الثانية: في الحديث رد على الخوارج، فالخوارج يكفرون بالذنوب ويقولون: من ارتكب كبيرة فهو كافر، حرام عليه الجنة، حلال الدم والمال حتى لو صلى وصام، ولو جاء بشعائر الإسلام كلها، وهذا لاشك أنه خطأ وذنب عظيم من الخوارج، ومذهب فاسد، والحديث يرد عليهم، والرب عَزَّ وَجَلَّ يرد عليهم كما في هذا الحديث: (لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)، الخوارج يقولون: هذا ليس صحيحا، ما دام أنه صدرت منه كبيرة فهو من أهل النار، وهو كافر حلال الدم والمال!

ثم -أيضًا- قاربهم المعتزلة القائلون بالمنزلة بين المنزلتين، لا يحكمون عليه بالكفر، فالزاني وشارب الخمر وآكل الربا في منزلة بين المنزلتين، لا نسميه

كافرا ولا نسميه مؤمنا بل هو فاسق، ويحكمون أنه خالد مخلد في النار، وفي كتبهم ألحقوا بهذا النوع عثمان رضي الله عنه، قالوا: إنه في المنزلة بين المنزلتين وإنه خالد مخلد في النار! في حين أن الرسول ﷺ شهد له بالجنة[1]، وهو من أفاضل الصحابة، ومن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وقال عنه الرسول ﷺ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟!**»[2]، لما دخل وقد بدا بعض من فخذه فغطاه، فقيل له: دخل أبو بكر وعمر ولم تغط ودخل عثمان فغطيتهما.

وهو ذو النورين، وجاءت أحاديث كثيرة صحيحة ثابتة تدل على فضله، ومع ذلك قالوا فيه ما قالوا، وقابلهم الخوارج، فالخوارج عندهم أن من فعل كبيرة فقد إيمانه حتى يقلع من تلك الكبيرة، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فيقولون: الإنسان إذا فعل كبيرة ذهب عنه الإيمان ما دام مقارفا لهذه الكبيرة، وصار إيمانه كالظلة فوقه، خلعه كما يخلع الثوب، فإذا انتهى من فعل الكبيرة عاد إليه، بل إيمانه كإيمان جبريل عليه السلام وإيمان النبي ﷺ وإيمان أبي بكر رضي الله عنه، كل ذلك على السواء، هذا عند الأشاعرة، ولا يميزون أن الإيمان يزيد وينقص، والله -سبحانه- رد عليهم في القرآن، فإنه ذكر ذلك في مواضع كثيرة، قال الله -تعالى-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]،

(١) كما في خبر أبي موسى رضي الله عنه عند البخاري في صحيحه (٣٦٧٤)، ومسلم في صحيحه (٢٤٠٣).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٤٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وغيرها من الآيات التي لا تحصى، كلها تثبت أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فانظر إلى تباين هذه الفرق، هؤلاء كفروا مرتكب الكبيرة وهم الخوارج، وهؤلاء لم يكفروا وحكموا عليه بأنه خالد مخلد في النار، والآخرون قالوا: مؤمن كامل الإيمان، أما أهل السنة والجماعة فيقولون في مثل هذا: نحن لا نسلب عنه مسمى الإيمان، بل معه أصل الإيمان، ولكن لا نعطيه الإيمان المطلق، بل نقول: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو: مؤمن ناقص الإيمان، فلا نعطيه الإيمان المطلق، ولا نسلب عنه مطلق الإيمان، والمراد بالإيمان هنا: هو التوحيد، وهذا معنى الحديث: (يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)، وهذا هو الذي عليه جماهير أهل السنة كما حكاه الإمام النووي[(١)] وغيره.

والحديث القدسي كلام الله بمقتضى ما قرره شراح الحديث، وهو الذي يحكيه الرسول ﷺ عن الله، فالذي يحكيه الرسول ﷺ عن الله وينسبه لله هو (الحديث القدسي).

ورواية الحديث بالمعنى جاء ذكرها في المصطلح وذكرها شراح الحديث وغيرهم، بعضهم يجيزه، ولا مانع من رواية الحديث بالمعنى ما لم يغير فيه[(٢)].

---

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٢/ ٤١) للنووي.
(٢) ينظر: الألفية (ص١٤٩) للعراقي، وقال:

وليرو بالألفاظ من لا يعلم ... مدلولها، وغيره فالمعظم
أجاز بالمعنى وقيل: لا الخبر ... والشيخ في التصنيف قطعا قد حظر

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وعن حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: **لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ،



وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٢٠).

شرح: باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

تحقيق التوحيد: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فمن المعلوم أن الشرك الأكبر ينافي التوحيد بالكلية، والشرك الأصغر ينافي كمال التوحيد، والشرك الأصغر هو أكبر من الكبائر، والبدع قادحة في التوحيد، ومن أمثلتها: الاحتفال بالمولد، أو مثل قول: «أسألك بجاه نبيك محمد ﷺ»، فهذه بدعة، والبدع تنقص ثواب التوحيد، فإذا كان معك أصل التوحيد فإن هذه البدع تقدح في توحيدك، والبدع أعظم من المعاصي؛ والعبد مأمور بألا يسأل إلا الله، يسأل الله بأسمائه وصفاته، لا أن يسأله بأحد من خلقه، فهذا دعاء، والدعاء عبادة، وقد شاب هذا الدعاء بهذه البدعة وهي قوله: «أسألك بجاه محمد»، أو «بجاه نبينا»، أو «بجاه فلان»، وما أشبه ذلك.

وقد يقول قائل: نجد المجوزين لهذا يستدلون بأن الرسول ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم»[(١)].

نقول: هذا الحديث لا أصل له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا الحديث ليس له أصل لا في الصحاح ولا في السنن ولا في المسانيد»[(٢)].

أو مثلا يسأل الله ويطلبه عند قبر رجل صالح ظنا منه أن هذا المكان مكان فاضل، دفن فيه رجل صالح، هذا من البدع، وسيأتي هذا في كلام المصنف عند

---

(١) ينظر: قاعدة جليلة (ص١٧٤) لابن تيمية.
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩).

قوله: (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!).

والتوسل إلى الله بأحد من خلقه من البدع، فلا يجوز أن تتوسل إلى الله إلا بأسمائه وصفاته، وبالأعمال الصالحة.

فإن قلت: ما معنى قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]؟

نقول: الوسيلة هنا هي العمل الصالح؛ لأن الله يقول: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فعطف الوسيلة على تقوى الله، من باب عطف الخاص على العام، فالتقوى كلمة جامعة، وهي: فعل المأمورات وترك المنهيات.

فصلاتنا وسيلة، وقراءة القرآن وسيلة، نتوسل بها إلى الله، والصوم وسيلة، وطلب العلم بغرض الخروج من ظلمات الجهل إلى نور العلم وسيلة، فلا نتوسل بذوات المخلوقين، بل نتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، أما ما يقوله عباد القبور من التوسل بفلان أو بجاه فلان، فهذا كله من البدع القادحة في التوحيد.

ولو قال قائل: «أسأل بجاه الله»، فقوله هذا من الاعتداء في الدعاء، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وكذلك تتوسل إليه بشهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، وهي داخلة في العمل الصالح، أما التوسل بألفاظ لم ترد، فلا.

وحديث الأعمى أنه جاء إلى الرسول ﷺ وسأله بأن يدعو الله أن يرد عليه بصره، فقال له: «إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ لِآخِرَتِكَ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ».

قال: ادع الله لي.

فأمره أن يذهب ويتوضأ ويسأل الله أن يقبل دعاء النبي ﷺ، ثم إن الرسول ﷺ دعا له.

هذا الحديث ليس فيه دلالة على جواز التوسل - وإن استدلوا به-، وفي سنده مقال[1].

ولو قلنا: إن الحديث صحيح على سبيل التنزل، فليس فيه ما يدل على أنه توسل بالرسول ﷺ، فإن ذلك كان في حالة حياته، فلو كان الرسول ﷺ حيا جئناه وقلنا: ادع الله لنا، مثل ما أقول لك: ادع الله لي، أو أنا أدعو لك، لا شيء في هذا، فالأعمى جاء إلى الرسول ﷺ وهو حي حاضر، وأمره أن يتوضأ ويصلي ويدعو الله بأن يقبل شفاعة الرسول ﷺ، ثم الرسول ﷺ ذهب يدعو لهذا الأعمى فدعا له، فرد الله عليه بصره، هل في هذا أن الأعمى جاء بعد وفاته أو جاء وهو غائب؟!

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١٧٢٤٠)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٥٧٨)، وابن ماجه في سننه (ح: ١٣٨٥) وابن خزيمة في صحيحه (ح: ١٢١٩) من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه.

جاء حيا حاضرا وطلب منه أن يدعو له عند الله، مثل حديث ربيعة بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث كان يخدم الرسول ﷺ فقال له الرسول ﷺ: «سَلْ».

قال: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.

قال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ».

قال: قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ.

قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

لاحظ قوله: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»، فالرسول ﷺ لم يدع له عند الله إلا إذا كان الرجل ممن توسل إلى الله بالأعمال الصالحة: بالصلاة والدعاء، ولم ينقل أن الصحابة جاءوا بعد وفاته وقالوا له: ادع لنا.

أما طلب الدعاء من الحي فلا مانع منه، مثل ما قال النبي ﷺ لعمر: «لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ»[2].

وكذلك قصة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في استسقائه بالعباس ليس فيها أي دلالة على جواز التوسل، وهم يستدلون بها، ويقولون: إن البخاري روى في «صحيحه» أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توسل بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٨٩) من حديث رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ١٤٩٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وينظر**: الأصول (١/ ١٨٩) للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نقول: نعم توسل بدعاء العباس؛ لأنه عم الرسول ﷺ، ولو كان التوسل بالأموات جائزا لم يعدل عمر عن الرسول ﷺ إلى العباس رضي الله عنه، لكن عمر يعرف أن التوسل بالأموات ممنوع.

ثم هذا التوسل فسره عمر بقوله: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»(١)، لاحظ: «قم يا عباس فادع الله»(٢).

فسر هذا التوسل بقوله: «قم يا عباس فادع الله»، هذا هو التوسل، فجعل يدعو الله، وهذا ليس فيه دلالة على التوسل الممنوع، وإنما نتوسل إلى الله -كما قلنا- بأسمائه وصفاته، ونتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصوم وحج، والائتمار بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه، كل هذا من الوسائل التي تقرب إلى الله، أما أن نطلب من الرسول ﷺ الشفاعة، فنقول: يا رسول الله اشفع لنا، اشفع لنا يا عبد القادر، فلا، نحن لا ننكر شفاعة الرسول ﷺ بل هي حق، لكن لا نطلبها منه، فهذا مناف للتوحيد؛ لأن الطلب دعاء، بل نحن الذين نشفع للأموات وليس هم الذين يشفعون لنا، بدليل ما في صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»(٣) فنحن إذا قمنا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) هذه الزيادة عزاها غير واحد إلى صحيح البخاري، ولم أقف عليها عنده، بل وقفت عليها في تاريخ دمشق(٢٦/ ٣٥٦) لابن عساكر، من رواية ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «فقال عمر للعباس قم فاستسق..».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٤٨).

نصلي على الميت نقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ»[(١)]، الحقيقة أننا نشفع له بدعائنا هذا، لا أننا نطلب من الميت أن يشفع لنا، مع أننا لا ننكر شفاعة الصالحين والأنبياء والأفراط يوم القيامة، لكن لا نطلبها منهم، بل نطلبها من الله، ولذا تجد أننا عندما نصلي على الفرط ونحن نعتقد أنه يشفع لوالديه، لا نقول: «اشفع لوالديك»، بل نقول: «اللهم اجعله ذخرا لوالديه، وفرطا وأجرا وشفيعا مجابا»[(٢)]، نطلب من الله أن يكون هذا الفرط شفيعا مجابا لوالديه، هذا هو التحقيق في هذه المسائل.

والحاصل: أن البدع تقدح في التوحيد، والمعاصي تنقص ثواب التوحيد، فكلما كثرت ذنوب العبد نقص ثوابه، وصار توحيده ناقصا من جهة الثواب.

فلهذا نقول: تحقيق التوحيد: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فالشرك الأكبر ينافي التوحيد، والشرك الأصغر ينافي كمال التوحيد، والبدع قادحة في التوحيد، والمعاصي منقصة لثواب التوحيد.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

هذا ثناء من الله - سبحانه- على عبده وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، وخليل الرحمن، وقد أمر نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع ملة إبراهيم:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٦٣) من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج البيهقي (٧/ ٣٠١) نحوه في السنن الكبرى عن أبي هريرة موقوفا، وعلق البخاري (٢/ ٨٩) نحوه عن الحسن.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

(الأمة): هو من يقتدي به في الخير، ويعلم الناس الخير، فإذا كان يعلم الناس الخير ويقتدى به فهو الإمام، وهذه صفة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ قَانِتًا ﴾: القنوت: هو دوام الطاعة، فإنه دائما مطيع لله، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالإنسان إذا قام يصلي وأطال القيام يقال عنه: (قانت)، فهذه من صفات إبراهيم التي أمر نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعه فيها.

﴿حَنِيفًا ﴾: للعلماء فيها تفسيران – ولكن المعنى واحد–، وإن تنوعت العبارات:

التفسير الأول: أن (الحنيف): هو المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه.

التفسير الثاني: أن (الحنيف): هو المائل قصدا إلى التوحيد عن الشرك، والمعنى واحد.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾: نفى الله عنه الشرك قليله وكثيره، ولم يكن ممن عمل أي شرك.

وقال المصنف في كلامه على الآية في إمامة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودوام قنوته وأنه حنيف وأنه لم يكن من المشركين، قال: «لئلا يستوحش السالك من قلة السالكين»[(١)].

---

(١) ينظر: إبطال التنديد (ص٢٩).

يعني: أن إبراهيم عليه السلام وحده ولم يستوحش من قلة السالكين، بل هو يعبد الله وحده، وجميع قومه على غير هداه، كما حكى الله عنه في القرآن ومناظرته لقومه وتكسيره لأصنامهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فهو سلك الطريق وحده، فلا تستوحش من قلة السالكين.

فارق المشركين ببدنه وعمله واعتقاده، وحصلت له الاستقامة في العلم والعمل والدعوة، هذا هو إبراهيم عليه السلام، ولهذا السبب حصلت له الخلة: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال المفسرون: إن إبراهيم حصلت له هذه الخلة التي أثنى الله عليه بها لأمور ثلاثة: الأول: أنه بذل نفسه لله، فإنه لما كسر أصنام قومه وناظرهم وأقام الحجة عليهم عمدوا إلى أن يوقدوا له نارا ويلقوه بها فلم يقل: أنا مكره، ولم يوافقهم، فلما ألقوه في النار قال الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ولولا أن الله أتبع قوله: ﴿بَرْدًا﴾ بقوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لمات من شدة بردها.

الثاني: أنه بذل ولده لله؛ ليسلم قلبه لله، ولا يكون فيه شركة لسواه: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أهوى إلى حلقه بالسكين

فأدركته رحمة رب العالمين: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٥]، ولذا فدي بذبح عظيم.

الأمر الثالث: أنه وهو على شظف من العيش جاءه الملائكة فظن أنهم ضيوف فقرب إليهم أعظم ما يملك، جاءهم بعجل سمين فقال: ألا تأكلون؟ فلما رأى أنهم كفوا أيديهم ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة.

فبذل عليه السلام ماله ونفسه وولده لله، لهذا صار خليل الرحمن، وهو إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، وهو الذي حقق توحيده عن علم وصبر ويقين واستقامة ودعوة.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

أثنى الله عليهم بهذه الصفات الحميدة، وهؤلاء -أيضا- حققوا توحيدهم وهم الصنف الثالث المذكور في قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، هؤلاء هم السابقون بالخيرات، وذلك أن المسلمين ثلاثة أقسام:

الأول: الظالم لنفسه، وهو: من عنده حسنات وسيئات، وقد حقق شهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، إلا أن عنده شيئا مما ظلم به نفسه.

الثاني: المقتصد: وهو العامل بالمأمورات، التارك للمنهيات، ولكن ليس عنده كمال وزيادة عمل.

الثالث: هم السابقون بالخيرات: الذين أدوا المأمورات والمستحبات، وابتعدوا عن المحرمات والمكروهات، بل وبعض المباحات، فهؤلاء هم السابقون وهم المذكورون في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ الآية [المؤمنون: ٥٧].

وقولنا: (إن البدع تقدح في التوحيد) يترتب عليه أن توحيد المبتدع ناقص، لكن لا نخرجه من الإسلام، هو مؤمن ومسلم، لكن توحيده ناقص بما ارتكبه من تلك البدع؛ لأن البدع لا تنافي أصل التوحيد، بل هي قادحة في التوحيد، وإلا فأصل التوحيد موجود، مثل ما قالوا في حديث الكسوف في خطبة النبي ﷺ، فإنه خطب الناس بعدما صلى الكسوف فقال: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(١).

ما هي الحكمة من ذكر الزنا في موعظة الكسوف؟ لم يذكر قتل النفس، ولم يذكر الربا، ولم يذكر شرب الخمر، ولم يذكر الكفر والشرك، وإنما ذكر الزنا.

قالوا: لأن القلب كالشمس مشرق بالإيمان، فالشمس حصل عليها هذا الكسوف فغيرها وأحدث فيها نكتة سوداء، فالزاني عندما يزني يحصل في قلبه الذي هو كوكب من نور نكتة سوداء، إن تاب ورجع ذهبت تلك النكتة السوداء، وإن استمر في المعاصي انطمس هذا النور، والبدعة نكتة في توحيد العبد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٠٤٤)، و مسلم في صحيحه (ح: ٩٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟

فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت.

قال: فما صنعت؟

قلت: ارتقيت.

قال: فما حملك على ذلك؟

قلت: حديث حدثناه الشعبي.

قال: وما حدثكم؟

قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أنه قال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ».

قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله.

فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا،

وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ».

ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

(أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟): لا غرض لسعيد في الكوكب؛ لكن يريد بذلك أن يفتح باب المذاكرة في العلم.

(الذي انقض البارحة)؛ أي: الذي رمي البارحة، و(البارحة): أقرب ليلة مضت، ولا يقال (البارحة) إلا بعد الزوال، وأما قبل الزوال فتقول: الليلة؛ أي: الليلة الماضية.

و(البارحة) مشتق من (برح) وهو الشيء الذي مضى، تقول: برح زيد؛ أي: راح.

قال حصين: (أنا) ثم خشي أن يفهم الحاضرون أنه كان قائما يصلي ويتعبد فخشي أن يمدح بما لم يفعل فيدخل في قوله سبحانه: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فقال: (أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت)، فدخلوا في الغرض الذي يريدون.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه (ح: ٥٧٠٥)، ومسلم في صحيحه باختلاف يسير (ح: ٢٢٠).

وقوله: (لدغت)، يقال: لدغ الرجل إذا لدغته عقرب أو حية أو زنبور أو غيرها من ذوات السموم.

فقال سعيد: (ما صنعت؟).

قال: (ارتقيت)؛ يعني: طلبت من يرقيني.

قال سعيد: (ما حملك على ذلك؟).

قال حصين: (حديث حدثناه الشعبي) فاستدل حصين على ما فعله من طلب من يرقيه بهذا الحديث.

والشعبي: هو عامر بن شراحيل الأنباري، وهو من أجلة العلماء، ومن ثقات التابعين، ومن أحفظ الناس، قال: «والله ما كتبت سوداء في بيضاء»؛ أي: من شدة حفظه[1].

قوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة)، (العين) هي: عين العائن، تخرج من نفس شريرة فتصيب المعاين، فتؤثر فيه بإذن الله.

و(الحمة): هي السم.

قد يظن أنه يفيد الحصر، ولكن المعنى: لا رقية أشفى وأولى من رقية عين أو حمة، وإلا فالرقية تجوز ولو من غير العين أو الحمة، كمرض أو وجع أو غير ذلك.

والعين حق وإن أنكرها بعضهم ممن لا علم لديه، فقد ورد في الحديث:

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٧) للخطيب البغدادي.

«**الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ**»[1]، وهذا أمر معلوم دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١]؛ أي: يعاينونك، تخرج من أنفسهم عين شريرة فتؤثر في النبي ﷺ، هذا معنى الآية؛ ولهذا ذكر ابن كثير في (تفسيره)[2] على هذه الآية الأحاديث المتعلقة بالعين، وأنها حق، وكذلك -أيضًا- مما يدل عليها قوله سبحانه في قصة يعقوب مع أولاده يوسف وإخوته: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، الغرض من هذا خشية إصابتهم بالعين لكثرتهم، كما قاله جمع من المفسرين[3].

كل هذا يدل على أن العين حق وأنها تصيب الإنسان بإذن الله، حتى من غير اختيار العائن، فربما أن الشخص يصيب ولده ويصيب أقرب الناس إليه، فلهذا أمر أن يقول الإنسان: «ما شاء الله»، أو يذكر الله، حينما يرى ما يعجبه، وقد تكلم العلماء في مسألة وهي: إذا قتل إنسان آخر بعين، فهل يقاد به؟ ثبت أن هذا الشخص أرسل عينه على شخص آخر، حتى قتله بعينه، وهو لم يباشر ذلك لا ببندقية ولا سيف، ما حكمه؟ هل يقاد به؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) **ينظر**: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٥) لابن كثير.

(٣) **ينظر**: جامع البيان (١٦/ ١٦٥) لابن جرير الطبري، تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢١٦٨) لابن أبي حاتم.

الفقهاء من الحنابلة يقولون: يحبس هذا العائن حتى يموت؛ لأنه أثر فيه بسببه وأماته وإن لم يحصل منه فعل حسي، لكنه فعل روحاني عمل به هذا العمل.

وقيل: بل يقتل، ولكن المعروف أنه يحبس[(١)]، وقد ذكر ابن عبد البر في «التمهيد»[(٢)] بعض الحكايات المتعلقة بالعين، ومن جملتها أنها تقع ولو في أتفه شيء، ليس من لازمها أن يكون المعاين عنده أمر كبير يختص به دون غيره أو أمر مهم أو شيء مستحسن، قد تقع على الإنسان بأدنى سبب، فمن جملة ما ذكره ابن عبد البر: أن شخصا جلس يبول في أرض دمثة وكان لضرب بوله صوت في هذه الأرض الدمثة، فمر به شخص، فسمع صوت بوله، فأصابه بالعين فسقط مغشيا عليه!

ويدل أيضا على وقوع العين قصة سهل بن حنيف، فإنه كان يغتسل فجاء عامر بن ربيعة، فرآه وقال: «كأنه جلد مخبأة»، فسقط مغشيا عليه، فقيل للنبي ﷺ فغضب وقال ﷺ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟» فأمره أن يتوضأ فصب على سهل الماء الذي توضأ به عامر فبرئ[(٣)].

---

(١) ينظر: الفروع (١٠/ ١١٥) لابن مفلح، الإنصاف (٢٥/ ٣٠) للمرداوي.

(٢) (٢/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (ح:١٣١)، و أحمد في مسنده (ح:١٥٩٨٠) من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف، وإسناده جيد.

و(المخبأة) «بضم الميم، وفتح الخاء، وشد الباء هي: البكر؛ لأن عادتهن التستر تحت الحجال، وأن يخبأن من الرجال، فهن ناضرات الجسوم؛ إذ لا يصيبهن شمس ولا ريح يغير بشرتهن»، قاله القاضي عياض، (مشارق الأنوار ١/ ٢٢٨)، وينظر: النهاية (٣/ ١٠٩٩).

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»؛ أي: عن النبي ﷺ، أحسنت فيما فعلت؛ لأنك لم تعمل إلا بمقتضى ما بلغك.

(حدثنا ابن عباس): ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هو من أفاضل الصحابة ومن علمائهم ودعا له النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[(١)]، وقد قيل لابن عباس: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول[(٢)].

وقد عمي في آخر عمره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(فرأيت النبي ومعه الرهط): (الرهط): هو ما بين ثلاثة إلى عشرة.

(والنبي ومعه الرجل والرجلان)؛ يعني: أن من الأنبياء من لم يقبل ما جاء به إلا رجل واحد أو رجلان فقط.

(والنبي وليس معه أحد): بعث إلى الناس ولم يستجب له أحد، هذا فيه دليل على قلة من استجاب للأنبياء، وأن أهل الخير هم الأقلون، وأن الأكثر هم الضالون كما دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فهذا كله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٤٣)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٤٧٧) شطره الأول، وأما قوله: (وعلمه التأويل) فقد أخرجه أحمد في مسنده (ح:٢٣٩٧) بإسناد جيد.

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٩٧٠) (١٩٠٣)، - ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٤٢٧)- وفي سنده انقطاع.

يدل على أن الأكثر هم مخالفون لما جاءت به الرسل، ويدل على ذلك -أيضا- حديث: «وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (ح: ٣٣٩٣) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وهذا الحديث روي في السنن والمسند من عدة أوجه، وأمثل على ذلك بثلاثة أحاديث:
الأول: ما أخرجه الترمذي في جامعه (ح:٢٦٤٠)، وأبو داود في سننه (ح:٤٥٦٦)، وابن ماجه في سننه (ح:٣٩٩١) من طرق عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
وليس فيه قوله: «كلها في النار إلا واحدة»، وإسناده جيد، ولم يصب من ضعفه بمحمد بن عمرو؛ فإنه صدوق صالح الحديث، قد احتمل الأئمة حديثه، لاسيما إذا لم يخالف، ولم يأت بما يستنكر، قال الترمذي بعد إخراجه: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح».
الثاني: ما أخرجه الإمام أحمد (٢٨/ ١٣٤) (ح:١٦٩٣٧) -ومن طريقه أبو داود (ح:٤٥٩٧)- والدارمي (ح:٢٥٦٠) من حديث صفوان بن عمرو، عن أزهر بن عبد الله، عن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وفيه: «كلها في النار إلا واحدة»، وإسناده جيد، أزهر بن عبد الله صدوق ولم يتكلم فيه إلا من جهة اعتقاده كما قال الحافظ في التهذيب (١/ ١٠٦)؛ فإنه رمي بالنصب، وقد ثبت سماع صفوان منه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤٥٩).
الحديث الثالث: ما رواه ابن ماجه (ح:٣٩٩٣) وغيره من حديث الوليد بن مسلم قال: حدثنا أبو عمرو الأوزاعي، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، به مرفوعا.
وإسناده حسن، صحيح الخبر الترمذي، وابن حبان، والحاكم، ونقل أبو العباس ابن تيمية ذلك عن أكثر أهل العلم (الفتاوى ٣/ ٣٤٥- ١٦/ ٤٩١)، وكذلك صححه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٩/ ٣٧)، والحافظ العراقي في (الباعث على الخلاص ص١٦)، وابن حجر في (اللسان ٨/ ٩٧)، والسخاوي في (الأجوبة المرضية ٢/ ٥٦٩)، في آخرين من أهل العلم، وروي هذا الحديث من مسند سعد بن أبي وقاص، وعوف بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبي أمامة، وعبد الله بن سلام، وفي بعضها ضعف، والله أعلم.

(فقيل: هذا موسى وقومه): فيه فضيلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني إسرائيل؛ فإن التابعين له منهم كثير، ولكن ليسوا كأتباع نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ثم نظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب): فيه فضيلة هذه الأمة، وأن هذه الأمة أفضل الأمم، كما أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الرسل، كما في البخاري: «وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً»(١)، مما يدل على فضل هذه الأمة؛ لكن هذه الأمة لابد أن يقع فيها نظير ما وقع في الأمم قبلها من اليهود والنصارى، فكل ما وقع في اليهود والنصارى لابد أن يقع نظيره عند هذه الأمة، وإنما المراد أن هذه الأمة أكثر اتباعا لنبيها من غيرها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ»(٢).

هذا يدل على أنه لابد أن يقع في هذه الأمة نظير ما وقع في الأمم، وكذلك لابد أن يوجد فيها من الشرك كما وقع في الأمم قبلها، فإن كثيرا من الناس

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٥٠٢١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٤٥٦)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح:٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

زعموا أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك، وأن الله عصمها ببركة نبيها ﷺ بدليل هذا الحديث أن أمته قد سدت الأفق، وأنه استزاد ربه فزاده مع كل ألف سبعين ألفا، وسكت عن الباقين مما يدل على أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك.

كما استدلوا بحديث رواه مسلم وهو قوله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»(١) قالوا: هذا يدل على فضل هذه الأمة، وأن هذه الأمة امتازت على غيرها من سائر الأمم.

نقول لهم: نعم هذه الأمة أفضل الأمم، وهي أكثر اتباعا لنبيها من بقية الأمم، لكن لا يلزم أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك، بل هذه الأمة لابد أن يقع فيها نظير ما وقع في اليهود والنصارى من فساد العلماء والعباد، وأنهم لو وجد فيهم من يأتي أمه علانية لوجد في هذه الأمة من يفعل ذلك، وأن الشرك يقع في هذه الأمة؛ كما قال البخاري: «باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان»، وساق بسنده حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ»(٢)، تعود الخلصة ويعبدونها كما كانوا من قبل، وأما حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» فالله لم ييئسه، بل هو الذي أيس بنفسه لما رأى انتشار الإسلام ودخول الناس في هذا الدين أفواجا؛ أيس أن يعبد في جزيرة العرب، فاليأس وقع من الشيطان نفسه، وذلك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٨١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٧١١٦).

أن الله طرده، فوقوع اليأس من الشيطان لا يستلزم عدم وقوع عبادة الشيطان[1].

(ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك): خاض الناس في أعمال هؤلاء الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ما أعمالهم؟

فيه: حرص السلف على عمل الخير وجدهم في ذلك، يريدون معرفة أعمال هؤلاء من أجل أن يعملوا مثل عملهم، حتى يكتسبوا من الخير والأجر والفضل العظيم نظير ما اكتسبوا.

(فقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا): تنوعت آراؤهم، وفيه دليل على جواز البحث في المسائل العلمية وإن لم يكن عند الإنسان فيها علم متيقن، لا بأس أن تقول: لعل الحكم كذا -لكن لا تجزم- بل تقول: (لعله يجوز)، (لعله يحرم) لا مانع، أما أن تجزم بأن هذا حلال وهذا حرام بدون دليل فهذا لا يجوز؛ لقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦]، بل جعل القول على الله بلا علم أعظم من الشرك كما في قوله - سبحانه-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] أن يقول على الله في أسمائه وصفاته وفي شرعه ودينه ما لا يعلم؛ لأن الآية جاءت بطريق الترقي.

(١) ويرد استدلالهم بهذا الحديث على منع وقوع الشرك في هذه الأمة بوجه آخر وهو: أنه لو قيل بالتسليم بهذا الاستدلال فالمذكور في الحديث جزيرة العرب وأكثر الأمة خارجها!

والشرك أعظم من الفواحش، والقول على الله بلا علم أعظم من الشرك الأكبر، فإذا احتاج الإنسان للبحث ينبغي ألا يجزم، كما فعل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم.

هذه أعمال السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

ومعنى (لا يسترقون)؛ أي: لا يطلبون من يرقيهم، بل يعتمدون على الله ويتوكلون عليه.

(ولا يكتوون)؛ أي: لا يتداوون بالكي بالنار.

(ولا يتطيرون)؛ أي: لا يتفاءلون بالطيرة، كما كانت جاهلية العرب تصنع، إذا أراد أحدهم أن يسافر تطير فينظر: إن ذهب الطائر أمامه قال: «ناطح ونطيح» أو: «قاعد وقعيد»، وإن ذهب عن يساره أو خلفه تشاءموا بهذا السفر، وإن كان عن يمينه تفاءلوا، كل هذا من الأمور الباطلة.

ثم ذكر الأصل الجامع لهذا كله فقال: (وعلى ربهم يتوكلون)؛ أي: يفوضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه.

ولا يلزم من هذا أن الاسترقاء ممنوع، ولا أن الكي ممنوع، بل ذلك جائز، ولكن إذا تركه الإنسان توكلا على الله واعتمادا عليه وصبرا على البلاء، فهذا من تحقيق التوحيد، وإن فعل شيئا من ذلك فلا مانع، فهو من باب تعاطي الأسباب؛ فإن تعاطي الأسباب جاءت به الشريعة مع الاعتماد على الله، لا تعتمد على السبب نفسه، بل اعتمد على الله، والأنبياء كلهم تعاطوا الأسباب، كما دل عليه القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، فلم يأمر الله بالأكل من الرزق إلا بعد

تعاطي الأسباب، وهو: (المشي في مناكبها)؛ أي: طرقها وطلب الرزق، وأخبر الرسول ﷺ عن الطير بقوله: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١)، هذا من باب تعاطي الأسباب، فإن الطير إذا طلع الفجر واتضح طار من وكره يلتمس الرزق ويعمل الأسباب ويرجع وقد شبع، وقال يوسف وهو في السجن حين خرج صاحباه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، هذا من باب تعاطي الأسباب، فيوسف تعاطى السبب قال: «اذكرني عند الملك»؛ لأن السجن طال عليه، وكما في قصة مريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] هذا من باب تعاطي الأسباب.

ولهذا قال المحققون: إن الاعتماد على الأسباب شرك، وترك الأسباب قدح في الشريعة، فالنافع الضار هو الله، وترك السبب قدح في الشريعة، فالله -سبحانه- ربط الأسباب بمسبباتها، لا يمكن دفع العطش إلا بالشرب، ولا دفع الجوع إلا بالأكل، ولا وجود الولد إلا بزوجة.

لو دعوت الله وسألته أن يعطيك ذرية صالحة دون أن تتزوج! لاعتبر هذا سفها، فالله أمرك بتعاطي الأسباب ثم اسأل.

والرقية لا بأس بها، قال النبي ﷺ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»(٢)، وقد رقى النبي ﷺ ورقي له.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٣٢) (ح:٢٠٥)، والترمذي في جامعه (ح:٢٣٤٤)، وابن ماجه في سننه (ح:٤١٦٤) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإسناده جيد.
(٢) أخرجه مسلم صحيحه (ح:٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

وكذا الكي، فالرسول ﷺ فعله وقال: «لا أحبه»، ونهى عنه، لكن لما فعله حين كوى أبي بن كعب وسعد بن معاذ[١] دل على أنه لا مانع منه، لكن إذا تركه اعتمادا على الله فهو أولى، وإن فعله فهو جائز، لا شيء فيه، وفي الحديث: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ –وذكر منها-: كَيَّةِ نَارٍ»[٢].

والطيرة عقد لها المصنف: «باب ما جاء في الطيرة» وذكر فيه ما كانت تفعله العرب من تطيرهم بصفر، وكذلك – أيضا- بالطائر، وإذا سمعوا طائرا قالوا: «خير خير»، قال طاوس: (لا خير ولا شر، وأي خير عند هذا؟).

الأمور بيد الله، إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك، والإنسان إذا وقع في قلبه شيء فلا ينبغي أن يتطير، بل يقول: «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٣]، وهذا لا ينافي الفأل كما يأتي بيانه.

وفيه: علو همة عكاشة بن محصن رضي الله عنه، لما سمع بهذا بادر وطلب من الرسول ﷺ أن يدعو الله له، فقال: «أنت منهم». نستفيد من هذا:

أولا: فضل عكاشة رضي الله عنه.

ثانيا: مشروعية طلب الدعاء من الصالح، لا مانع من ذلك، بل ينبغي إذا

---

(١) أخرجه مسلم صحيحه (ح:٢٢٠٧- ٢٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري صحيحه (ح:٥٦٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يأتي تخريجه في: (باب ما جاء في التطير).

وجدت رجلا عليه آثار الخير أن تقول له: «ادع الله لي»، هذا إذا كان حيا حاضرا، فيقول: «اللهم اغفر لي ولأخي»، وليس فيه دلالة على طلب الدعاء من الأموات الصالحين، أو من الأنبياء بعدما ماتوا، أو من الملائكة، بل كل هذا من الشرك.

وعكاشة من فرسان العرب وشجعانهم، قتل على يد طليحة الأسدي حينما ادعى النبوة، وذكر علماء السير أنه حضر يوم بدر، وأنه قاتل ومعه سيف ولكن سيفه انكسر فذهب للنبي ﷺ وطلب منه سيفا فأعطاه جزلة حطب، فأخذها فهزها فصارت سيفا، فذهب يقاتل في سبيل الله، كما ذكره علماء السير[1].

(سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ) هذه الجملة من حسن المعاريض التي سد بها النبي ﷺ الباب، فلم يقل: «أنت منهم» فيتسلسل الأمر فيقوم فيطلبها من ليس لها بأهل فيرده، فيعرفه الحاضرون.

ولم يقل: (لست منهم)، خشية أن يعرفه الحاضرون، بل قال: «سبقك بها عكاشة». وبقى هذا السائل الذي بعد عكاشة لا يدري هل هو منهم أو ليس منهم؟ هذا من باب استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.



(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٨٨) لابن سعد.

(٣) باب الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فسئل عنه فقال: «الرِّيَاءُ»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»(٣).



(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٢٤٠٦٤) من حديث مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٤٩٧).

(٣) أخرج البخاري في صحيحه الشطر الأول من الحديث دون الثاني (ح: ١٢٩)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٩٣)؛ لكن من رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

شرح: باب الخوف من الشرك

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد ذكر فضله، وذكر تحقيقه، ثم ذكر الخوف من ضده؛ لأنه لا يكفي أن تعرف التوحيد، بل لابد أن تعرف ضده، كما قيل:

ضدان لما استجمعا حسنا ❁ والضد يظهر حسنة الضد[1]

وكما قال عمر رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[2]، فلابد من معرفة الشرك التي كانت عليه الجاهلية، لتعرف التوحيد وتعرف ما يناقض التوحيد، ولهذا كانت الدعوة لا تختص بالأمر بالمعروف، بل تشمل -أيضًا-: النهي عن المنكر، كما في الآيات الكثيرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، لابد أن تعرف المعروف وتعرف المنكر، فتأمر بهذا وتنهى عن هذا، قال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]؛ لهذه الأسباب قال المصنف عقب ذكر التوحيد وفضله وتحقيقه: (باب الخوف من الشرك).

---

(١) **ينظر**: شرح ديوان المتنبي (١/ ٢٢) للعكبري.

(٢) لم أقف عليه مسندا، وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١)، وابن القيم في الداء والدواء (ص٤٩٦)، من رواية ابن أبي شيبة (١٧/ ٣٣٢) (٣٣١٣٩)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٢٩)، والحاكم (١٠/ ٢١٠) (٨٥٢٣)، والبيهقي في الشعب (١٠/ ٢٨) (٧١١٩) من طريق شبيب بن غردقة، عن المستظل بن الحصين، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: «قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب! إذا ساس أمرهم من لم يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعالج أمر الجاهلية»، وإسناده صحيح.

والشرك معلوم أنه وقع في هذه الأمة كثيرا، وقد ألفت المؤلفات العديدة في الدعوة إلى الشرك، والحث عليه، والترغيب فيه باسم: (التوسل) تارة، وباسم: (الشفاعة) تارة أخرى؛ أي: التوسل بالأولياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم، أن يشفعوا عند الله، والمشركون الأولون لا يعتقدون أن الأموات والغائبين يستطيعون أن يجلبوا النفع ويدفعوا الضر، بل هم معترفون أنه لا قدرة لهم على شيء من ذلك، وإنما القادر على النفع والضر هو الله -سبحانه-، ولكن يريدونهم وسائط بينهم وبين الله، كالوزراء وسائط بينك وبين السلطان، فقد يقول: أنا لا أصل إلى السلطان ولا قدرة لي على الدخول على السلطان، فلابد من واسطة بيني وبين السلطان، وهو هذا الوزير، يرفع حاجتي إلى السلطان، كذلك هؤلاء نأتيهم ونطلب منهم أن يكونوا وسائط بيننا وبين الله.

نقول: هذا من الغلط، ومن المعلوم أن السلطان قد يقبل قول الوزير لأجل حاجته إليه، فلو لم يقبل شفاعة هذا الوزير لتنكر عليه وهو محتاج إليه في كثير من أموره، بخلاف الرب فإنه لا يحتاج أحدا، هو الغني عن كل ما سواه[1].

---

(١) وفي هذا أنشد ابن القيم رحمه الله (الكافية الشافية ص٢٥١):

فالشرك تعظيم بجهل من قيا ... س الرب بالأمراء والسلطان
ظنوا بأن الباب لا يغشى بدو ... ن توسط الشفعاء والأعوان
ودهاهم ذاك القياس المستبين ... فساده ببديهة الإنسان
فالفرق بين الله والسلطان من ... كل الوجوه لمن له أذنان

إلى آخر البيت.

ثم إن السلطان لا يعرف طلبك ولا حاجتك إلا بواسطة هذا الوزير الذي رفعت الحاجة عن طريقه، أما الرب - سبحانه- فيعلم كل شيء، فكيف يجعلونه نظيرا لهذا، ويقولون: «هؤلاء صلحاء يرفعون حوائجنا إلى الله»؟!

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من جعل بينه وبين خالقه واسطة كفر إجماعا»[(١)]؛ لأن الله أمرك أن تسأله، ولم يجعل بينك وبينه واسطة كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولم يقل: «وإذا سألك عبادي عني فإني جعلت بيني وبينهم وسائط!».

هذا يدل على أنه لم يرض أن يكون بينه وبين خلقه واسطة، ولهذا جاء في الحديث أن الله قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي»[(٢)]، فما أجل هذه العبودية وما ألذها على القلب حيث أضافك إليه وجعلك عبدا من عباده.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ لأنه يعلم السر وأخفى، ولكن وقع الشرك في هذه الأمة بهذه الشبهة، بنيت القباب

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على القبور، وجعلوا يسألونها من دون الله، وألفت المؤلفات في هذا؛ فقد ألف بعضهم كتابا سماه: «حج المشاهد»، يريد أن تحج إلى المشاهد وأن تسألها! ويستدلون بحديث أبي هريرة: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، وَسَلِّمُوا فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[1]، قالوا: فيه الحث على أنك تتردد إلى قبر النبي ﷺ، وأنك لا تهجره؛ كما أن العيد لا يأتي في السنة إلا مرة، هذا هو التأويل عندهم.

وهذا غلط، وهو من التأويل الفاسد؛ فإن الرسول ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»[2]، والعيد: هو ما يعود ويتكرر مجيئه سواء كان في السنة أو الشهر أو الأسبوع، ومما يدل على بطلان ما ذهبوا إليه أنه في نفس الحديث قال: «وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا »؛ يعني: أشغلوها بالصلاة وقراءة القرآن؛ فإنه متى تركت وصارت لا يصلى فيها ولا يقرأ فيها القرآن صارت كالمقبرة؛ إذ إن المقبرة منهي عن الصلاة فيها، ومنهي عن قراءة القرآن فيها، فالبيت الذي لا يصلى فيه ولا يتلى فيه القرآن هو شبيه بالمقبرة، ويبطل هذا -أيضا- آخر الحديث: «وَصَلُّوا عَلَيَّ، وَسَلِّمُوا فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»، وبهذا نعرف أنه لا دلالة لهم في هذا، وإنما هي ترهات وخرافات.

وقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) سيأتي تخريجه في باب: ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٨٩٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تضمنت هذه الآية:

بيان صحة ما عليه أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن العبد إذا مات على التوحيد سالما من الشرك قليله وكثيره فهو تحت المشيئة، إن شاء الرب عفا عنه، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ومعاصيه ثم أدخله الجنة؛ بدليل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما دون الشرك ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، والذي هو دون الشرك يدخل فيه الكبائر وغيرها، هذا مذهب أهل السنة، وقول جمهورهم كما قاله النووي في «شرح صحيح مسلم»[1].

وفي الآية الرد على القبوريين الذين يطلبون المدد من غير الله، كعبد القادر والدسوقي، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣- ١٤]، والآية هذه نظير آية الأحقاف: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وكما في آية سورة الأعراف: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]، ووجه الدلالة من هذه الآيات:

في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٢/ ٤١).

يعني: هذا الذي تسأله وترجوه وتطلبه ما يملك حتى القطمير، والقطمير هو: اللفافة الرقيقة التي تكون على النواة، فإذا كان عاجزا عن ملك هذا الشيء التافه، فكيف تجعله ندا لله وتسأله كما تسأل الله وتصرف له من حقوق الله؟! هل مثل هذا يساوي برب العالمين؟!

الوجه الثاني: قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] لا يسمع دعاءك، ولا علم له بك.

الوجه الثالث: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] على سبيل الفرض والتقدير أن الميت سمع دعاءك وطلبت منه الشفاعة، وأن يرفع حاجتك لله، فلا يقدر أن يجيبك ولو فرضنا أنه يسمع، لا قدرة لهذا الميت على ذلك، والله لا يقبل شفاعة شافع إلا بعد إذنه له، ثم الله لا يأذن إلا لأهل التوحيد، فاطلبها من الله.

الوجه الرابع: قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] هذا الذي تدعوه وتسأله، يتبرأ منك، ويقول: يا ربنا ما أمرناهم بعبادتنا، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، هذه أربعة أوجه، كلها تنفي التعلق بغير الله عز وجل.

قال ابن القيم: «إذا سلم الإنسان من ثلاثة أمور فليهنأ بالسلامة»:

الأول: تعلق القلب بغير الله.

الثاني: طاعة القوة الغضبية.

الثالث: طاعة القوة الشهوانية[1].

أما الأولى وهي: تعلق قلبه بغير الله، فهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وأما الثانية وهي: طاعة القوة الغضبية، فهي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، لا يطيع قوته ومقدرته الغضبية في التعدي على الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم.

وأما الثالثة وهي: طاعة قوته الشهوانية، فهي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فإذا سلم من تعلق القلب بغير الله، بل تعلق بالله في جميع أموره، وقطع العلائق عن جميع الخلائق واتصل بالخالق، وقمع قوته الغضبية بألا يتعدى على أحد في دم أو مال أو عرض، ووطد نفسه من الناحية الشهوانية من زنا وتقبيل وما لا يجوز له إذا سلم من ذلك كله فليهنأ بالسلامة، وأخطر هذه الأمور وأعظمها هو: التعلق بغير الله.

وفي الآية الرد على المعتزلة في مسألة الكبائر، فالمعتزلة ومثلهم قسم من الخوارج، يخلدون في النار من فعل الكبيرة.

والمعتزلة يقولون في السارق والزاني وشارب الخمر ونحوهم: ليس بكافر إلا أنه في منزلة بين المنزلتين، غير أنه في الآخرة خالد مخلد في النار، والآية ترد عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ماذا يعملون بهذه الآية؟!

---

(١) ينظر: الفوائد (ص١١٦).

الآية تدل على أن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة منه، وأن ما دون الشرك صاحبه تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم مآله إلى الجنة.

وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(اجنبني)؛ أي: أبعدني، من المجانبة وهي: المباعدة، هذا سؤال من الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل الله أن يبعده من عبادة الأصنام، وإذا كان هذا خليل الرحمن وإمام الحنفاء ووالد الأنبياء خاف على نفسه من الشرك ووقوعه في عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟!

هذا الخليل صفى قلبه لله، وبذل نفسه لله، حتى أوقدوا له نارا لما كسر أصنامهم، وألقوه فيها، فمن الله عليه بالسلامة، أمر الله النار أن تكون بردا وسلاما، وأمر بذبح ولده ليسلم قلبه لله، ولا يكون فيه شركة لسواه، وبذل ماله وقربه لهؤلاء الضيوف، فصار خليلا وأثنى عليه ربه بقوله:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ١٢٠- ١٢١]، ومع ذلك يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥،٣٦]، أي شيء أبلغ من هذا؟!

إذا كان هذا إبراهيم يخشى على نفسه الوقوع في عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟!

في حين أن كل عاقل حينما يتأمل في هذه الأصنام وعبادة الأموات، وهذه الأبنية وهذه الأشجار التي يعتقدون فيها يعرف أنها لا تنفع ولا تضر، وأي نفع عند هذه؟! وأي نفع في هذا الصنم؟!

و(الصنم) هو: ما نقش على صورة وعبد من دون الله.

و(الوثن) أعم، فكل صنم وثن، وليس كل وثن صنما، ومشركو العرب بعضهم - وهم قلائل- عندما يضعون هذا الحجر الذي يذبحون له، وينذرون له، ويجعلون له السمن والذبائح، يعرفون أنه لا شيء عنده، ولهذا جاء رجل من العرب بإبله يريد البركة من صنم للعرب يسمى (سعدا)، لما جاء تفرقت إبله، فأنشد يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ❊ فشتتنا سعد فلا نحن من سعد[1]

وجاء آخر بإبله يريد البركة، فلما رأى الثعلب يلعب على ظهر الصنم ثم بال عليه تعجب! ثعلب يلعب على ظهر صنم حتى بال عليه!!

وهو جاء يريد خيره وبركته، والانتفاع به، فلما رأى ذلك أنشأ يقول:

أرب يبول الثعلبان برأسه؟! ❊ لقد ذل من بالت عليه الثعالب[2]

فالعاقل بمجرد تأمله يعرف بطلان عبادة غير الله، وقد كان عند أهل مكة شجرة العزى، وأهل الطائف عندهم مناة، حتى منَّ الله ببعثة النبي ﷺ، فهدم ذلك كله.

---

(١) ينظر: القصة والبيت في كتاب الأصنام (ص٣٧) للكلبي.

(٢) ينظر: الطبقات (١/ ٣٠٨) لابن سعد، البداية والنهاية (٣/ ٦٠٦) لابن كثير.

والمصنف عقد هذا الباب لينبه أن على المسلم أن يعرف التوحيد وما ينافيه، فلابد أن تعرف ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة غير الله، ثم تعرف التوحيد، ولهذا كان حذيفة رضي الله عنه يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني»[(١)].

وعندما تقرأ تراجم الأولياء الذين يعتقدون فيهم وما يذكرونه في ترجمة هذا الولي الذي ينذرون له ويذبحون له ويطلبون منه المدد، تجد في ترجمته ما تستحي العقول منه لو كانت العقول حية، لكنهم نشأوا على هذا ولا يعرفون التوحيد، من ذلك ما ذكر الشعراني[(٢)] في ترجمة بعض الأولياء، فقد ذكر حكاية يستحي المرء أن يقولها، ذكر: أن الولي الواصل بالولاية والكرامة ما لا يصله غيره من مناقبه: أنه كان يزني بأتان في الشارع في مكة!

هذا من مناقبه! هل هذا معقول؟! هل هذا ولي؟! يجعلها من أفضل الكرامات، بمعنى: أنه تجاوز التكليف، ليس هذا مكلفا.

وكذلك النبهاني ألف كتابا سماه: «شواهد الحق بالاستغاثة بسيد الخلق»، ذكر أشياء من هذه الترهات، حتى إنه ذكر أن هناك بقرة مباركة فيها حليب كثير، وأن الناس بنوا على قبرها قبة، وكانوا يرتادونها ويطلبون منها الوساطة بينهم وبين الله! هل مثل هذا فيه عقل؟! من كان له أدنى مسكة عقل فضلا عن العاقل يعرف بطلان ذلك، وقد ضل من ضل بسبب هذا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٦٠٦)، ومسلم في صحيحه (ح:١٨٤٧).
(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٨٨- ١٢٩).

وفي الحديث: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فسئل عنه فقال: «الرِّيَاءُ»[(١)].

هذا الذي يتخوفه النبي ﷺ على أمته، فانظر إلى نصحه وشفقته على أمته، فإنه جاء في الحديث: «ما من نبي إلا حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»[(٢)]، وهو ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، كما قال في خطبة الوداع عشية عرفة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

قالوا: نعم.

فأشار بأصبعه إلى السماء وقال: «اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ»[(٣)].

وقال ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[(٤)].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علما[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٢٣٦٣٦) وغيره من مسند محمود بن لبيد رضي الله عنه وإسناده جيد.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٠٥)، ومسلم في صحيحه (ح:١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/ ٣٦٧) (ح:١٧١٤٢)، وابن ماجه في سننه(ح:٤٣)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وإسناده حسن.
(٥) أخرجه وكيع في الزهد (ح:٥٢٢)، والطيالسي في مسنده (ح:٤٧٩)، وأحمد في مسنده (ح:٢١٣٦١) من طرق يعضد بعضها بعضا.

والأحاديث في هذا كثيرة، والله لم يقبض نبيه ﷺ إلا بعد أن أكمل به الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالدين قد كمل، وما بقي شيء إلا وقد أوضحه الرسول ﷺ وأمرهم به وحثهم عليه ورغبهم فيه، ونهاهم عما ينبغي نهيهم عنه.

(أخوف): صيغة أفعل التفضيل عبر بها للمبالغة.

(فسئل عنه): أي: الشرك الأصغر، (فقال: الرياء): الرياء: هو أن يعمل الرجل الطاعة من صلاة أو صدقة أو حج أو صوم أو غيره لله، لكن وقر في قلبه محبة محمدة الناس له وثنائهم عليه، فيحب أن الناس يطلعون على عمله من أجل أن يثنوا عليه أو لأجل أن يمدحوه، فصار هذا العمل مشوبا غير خالص لله، فما دام أن العمل غير خالص لله، فإن الله لا يقبله، وقد ذكرنا فيما تقدم أن العبادة تنبني على أصلين، فإذا تخلف أحد الأصلين، فالعمل مردود:

الأول: تجريد الإخلاص لله، فإذا قصد بعمله مدح الناس، أو قصد بعلمه أو تعلمه نيل وظيفة أو دراهم، أو قصد بعمله الصالح صرف وجوه الناس إليه فعمله مردود عليه، لا يقبل الله منه شيئا؛ لأن الأصل الأول الذي هو تجريد الإخلاص لله قد تخلف، فلابد أن يكون قد استقر في قلبك أنك لا تريد إلا التقرب إلى الله، أما إذا كان هناك رياء أو إرادة حظ من حظوظ الدنيا كرئاسة أو وظيفة فقد تخلف الإخلاص، وقد تكلم على ذلك الحافظ ابن رجب[1] فقال

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (ص٦٥) لابن رجب.

فيمن قصد بعمله الصالح مصلحة دنيوية، وضرب لهذا أمثلة كمن تعلم العلم وبذل النفيس في تحصيله، وسهر الليالي، وتعب في تحصيل العلم، ولكن قصد بهذا نيل وظيفة أو دراهم أو رئاسة، فقال: «هذا والله قد باع جوهرة عظيمة بدمنة بعير!»؛ يعني: بعت عملا صالحا عظيما بدمنة بعير لا قيمة لها، فلو أخلصت نيتك لله حصل لك ما تريد، فما تريد يساق إليك، فالله لا يقبل أي عمل أشرك فيه معه غيره.

الأصل الثاني: تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، فلو كان عملك خالصا لله تريد به وجه الله، لكن لم يكن على مقتضى ما جاء به الرسول ﷺ فعملك لا يقبله الله، وهذا معنى قوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[(١)]، وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، فشهادة (أن لا إله إلا الله) تقتضي الإخلاص، وشهادة (أن محمدا رسول الله) تقتضي أن عملك على وفق ما جاء به الرسول ﷺ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»[(٢)].

الند: هو المثيل والشبيه والنظير، فإذا مات الإنسان وقد جعل لله ندا يدعوه ويرجوه ويخافه فقد أشرك شركا أكبر، وقد قال ابن القيم في «النونية»[(٣)] في هذا المعنى:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه(ح:١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٤٩٧).
(٣) ينظر: الكافية الشافية (ص٢٢٠).

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ❁ ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا ❁ كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ❁ ويحبه كمحبة الديان

(والشرك فاحذره فشرك ظاهر... ذا القسم)؛ يعني: أنه قسمان، وهذا الشرك الظاهر هو الذي نسميه: (الأكبر)، (ليس بقابل للغفران)، ثم بينه بأنه اتخاذ الند سواء كان من حجر أو من شجر أو إنسان أو أي مخلوق جعلته مثيلا لله.

فالله لا يغفر الشرك أبدا إلا بالتوبة منه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، كل هذا يدل على أن من مات على الشرك فمآله إلى النار لا محالة، أما إذا تاب فالله يقبل توبة عبده.

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»[1].

من مات على التوحيد سالما من الشرك قليله وكثيره، فهذا مآله إلى الجنة يدخلها في أول وهلة إن كان سالما من الكبائر، فإن كان له كبائر فهذا تحت المشيئة، إن شاء الرب – سبحانه- غفر له بما له من الحسنات أو بمحض فضله ومنته وإحسانه وأدخله الجنة، وإلا سيعذبه بالنار قدر جرائمه وذنوبه ثم مآله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٣).

الجنة، كما تقدم في حديث أنس رضي الله عنه: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

(ومن لقي الله يشرك به شيئا دخل النار): إذا مات الإنسان وقد جعل لله ندا يرجوه ويدعوه ويخافه فهذا مآله النار؛ لأنه لا توحيد له، بل صرف محض حق الله لهذا المخلوق الضعيف، جعل يدعو ويندب عبد القادر أو العباس أو ابن عباس أو السيدة زينب، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الأمور الباطلة التي ابتلى بها كثير من الناس، بل جعلوا يعظمون من اتخذوهم أندادا لله أشد من تعظيم الله، فلو قلت له: «احلف بالله»، حلف في هذه اللحظة.

وإذا قيل له: «احلف بسيدك» توقف، فلا يمكن أن يحلف به كاذبا مهما كان.

وهذا لما وقر في قلبه من تعظيم محلوفه، هذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر أبدا إلا بالتوبة منه.



(١) سبق تخريجه.

(٤) باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ الآية [يوسف: ١٠٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله – وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله–، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه[1].

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه».

فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها.

فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٩).

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله -تعالى- فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من حمر النعم»[(١)]
يدوكون: يخوضون.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح:٢٩٤٢)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح:٢٤٠٦).

شرح: باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد الذي من أجله خلقت الخليقة، ومن أجله أرسلت الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب، ومن أجله جردت سيوف الجهاد، ومن أجله حقت الحاقة ووقعت الواقعة، ومن أجله نصبت الموازين، ومن أجله قام سوق الجنة والنار، ومن أجله صار الناس فريقين: فريقا في الجنة وفريقا في السعير.

ذكر بعد هذا فضل التوحيد وما للموحدين من الأجر والثواب الجزيل، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ثم ذكر تحقيق التوحيد، ثم ذكر الخوف من ضده وهو الشرك.

وبعد هذا بقي على الإنسان أمر واحد، وهو: أنه إذا عرف الأمر الذي خلقه الله لأجله، وعرف فضل التوحيد، وكذلك حقق توحيده، وعرف ما ينافي التوحيد، وابتعد عنه في نفسه، وأدى ما عليه، بقي عليه أمر آخر وراء ذلك كله وهو: الدعوة إلى الله، فلابد أن يدعو الناس إلى الله، فبما أنه عرف التوحيد وعمل به، وعرف ما ينافي التوحيد وابتعد عنه؛ لابد أن يدعو الناس إلى ذلك، ولهذا ذكر هذه الترجمة: (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

والدعوة هي طريقة الرسل من أولهم إلى آخرهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]،

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكذلك هي دعوة نبينا محمد ﷺ؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلابد من الدعوة، ثم إذا تأملت آيات الدعوة وجدتها أكثر بكثير من آيات الصوم والحج، اللذين هما من أركان الإسلام، فتجد آيات الحج: أربع آيات، وكذلك الصوم، أما الدعوة فكثيرة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]؛ أي: يوصي بعضكم بعضا، يأمر بعضكم بعضا بالحق، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، والآيات في هذا كثيرة جدا، كلها تحث على الدعوة وترغب فيها.

ثم إذا تأملنا سيرة النبي ﷺ ودعوته، وكذلك دعوة الصحابة، تجدهم صبروا على ما أصيبوا في سبيل الدعوة، فهذا النبي ﷺ جعل يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، ويأمرهم بترك الأوثان، ويأمرهم بإفراد الله بالعبادة، حتى إن عقبة بن أبي معيط أخذ النبي ﷺ من رأسه وخنقه[1]، وبصق أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ[2]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٨٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٥٣) للسهلي.

كل هذا في سبيل الدعوة، ولكن كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وهذا أبو بكر رضي الله عنه لما قام يدعو الناس في المسجد الحرام، وكانت قريش ذلك الوقت على شدتها وشرها وتمسكها بكفرها فضربوه حتى غشي عليه، فلم يعرف أنفه من وجهه، حتى جاءت قبيلته بنو تيم فحملوه في ثوب لا يشكون أنه قد مات[(١)]، كل هذا في سبيل الدعوة، فالدعوة أمر لازم، كل بحسبه.

والذي فعل جريمة ننصحه برفق ولين، ونعمل الطرق التي ينبغي اتخاذها، ولا ينبغي للداعية أن يتسرب اليأس إلى نفسه، ويقول: «الناس انحرفوا وفرطوا فلا فائدة من استصلاحهم»، بل عليه أن يدعو ويجد ويجتهد، وإذا علم الله منه صدق النية فإن الله يثيبه ويعطيه الأجر الجزيل، كما في الحديث: «فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[(٢)]، والحياة ما هي إلا أيام معدودة، فينبغي أن الإنسان يقضيها في هذا السبيل، أولا في نفسه فيتمسك بدين الله وشرعه، ثم يدعو الناس على حسب قدرته، ولا يقول: «ما لي وللناس؟!» فالله يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ أي: يدعو الناس ويرشدهم وهو في نفسه صالح وعامل بما علم.

ثم إن الدعوة لا يمكن أن تقبل حتى يقوم بها الإنسان نفسه، فيعمل بما يدعو إليه؛ لأن الناس متى رأوك تعمل بما تدعو إليه قبلوا منك، أما إذا رأوك تأمرهم وأنت تخالف ما تأمر به فلا يكون لكلامك أثر.

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة (٦/ ٣٤٩) لأبي نعيم، وأسد الغابة (٧٤/ ٣١٤) لابن الأثير.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٩٤٢)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٤٠٦).

وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويأتيهم في منازلهم، ويقول: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟»[1].

وينبغي البدء بالأهم قبل المهم، فأعظم ما يدعو إليه الإنسان هو الدعوة إلى التوحيد والعقيدة السليمة التي درج عليه سلفنا الصالح -رحمهم الله-، لا بد من تنبيههم وإرشادهم، وهذا غرض المصنف حيث عقد هذا الباب فقال: (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية [يوسف: ١٠٨].

يقول الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ أي: طريقتي التي أنا عليها وهي الصراط المستقيم، عبادة الله وحده لا شريك له، أرشد الناس وأبين لهم وأحثهم وأرغبهم على سلوك هذا السبيل الذي أنا عليه.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي: على علم ويقين من ذلك.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: يدعو إليه -أيضا- أتباعي، فأنت متى دعوت إلى السبيل الذي جاء به الرسول ﷺ وهو الصراط المستقيم فأنت من أتباع الرسول ﷺ.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: أنزه الله وأجله وأعظمه من أن يكون له شريك أو مثيل أو نديد في عبادته أو في أسمائه وصفاته.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، واللفظ له (ح:١٤٦٥٣)، وابن حبان في صحيحه، باختلاف يسير (ح:٦٢٧٤) من حديث جابر رضي الله عنه وإسناده جيد.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]: بل أفارقهم، قال المصنف في المسائل: فيه إبعاد المسلم عن المشركين؛ لأن المخالطة تؤثر، فمتى خالطت المشرك ولم تنكر عليه فإنك ستتأثر فيكون قلبك حينئذ لا يغير منكرا ولا يعرف معروفا، حتى ولو كنت أنت في نفسك لا تشرك ولو كنت في نفسك صالحا، لكن متى وأكلته وجالسته ورافقته فأنت حينئذ يخشى أن تكون مثله وإن لم تكن مثله في العقيدة، فالذي يفعل هذا مجرم بهذا الصنيع، وعليه إثم كبير، فلابد من مفارقته؛ لأن مخالطته لابد أن تؤثر عليك بأي حال، كيف والنبي ﷺ يقول: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١)، أقل ما يفيده هذا الحديث التحريم، وإلا فظاهره يفيد الكفر، وتكلم ابن تيمية على هذا الحديث كلاما بديعا حاصله: أنك متى تشبهت بهم، بأن تعلمت لغتهم -مثلا-، أو شابهتهم باللباس أو بشيء مما ينفردون به، فإنه ينجذب قلبك نحوهم، ثم ضرب لهذا أمثلة: كما لو كنت في بلاد أوروبا -مثلا- أو غيرها، وأنت تجيد الإنجليزية أو الفرنسية، فعندما تجد شخصا يجيد الإنجليزية فإن قلبك ينجذب إليه؛ لأنه جمعت بينكما اللغة وربطت بينكما بنوع من التشابه، كما لو وجدت في بلاد أخرى شخصا مشابها للباسك، كلهم يلبسون بنطالا إلا أنت، تلبس هذا اللباس، وأنت في بلادهم رأيت شخصا يلبس لباسك فإنك تميل إليه وتود أن تكلمه لأجل أنه جمع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ١٢٣) (ح:٥١١٤)، وأبو داود في سننه (ح:٤٠٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفي إسناده: عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان تكلم فيه جماعة، وقد جود إسناده أبو العباس ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٢٦٩)، ورواه معمر في جامعه (٢٠٩٨٦) موقوفا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا.

بينكما مجرد اللباس، لهذا قال ابن تيمية: «لا ينبغي مشابهتهم بكل ممكن»[(١)].

أما بالنسبة لتعلم لغتهم، فهذا تكلم العلماء فيه، ومنعوه إلا في حالات الضرورة، كالإمام يحتاج من يكتب له، أو من يقرأ له، وإن كان بعض المتأخرين يرى الجواز مطلقا، فإن شخصا ألف رسالة سماها: «الدلائل البينات في جواز تعلم اللغات»[(٢)]، أجازها مطلقا، أما الشيخ تقي الدين وابن القيم وكثير من المحققين، فهم لا يجيزون تعلمها إلا حيث اقتضت الحاجة لذلك وإلا فلا، كما نبه على هذا في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم»[(٣)].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]: بل أفارقهم وأبتعد عنهم؛ لأن من سلك سبيلهم ففيه شعبة من شعبهم مقل ومستكثر، هذا هو معنى ما قاله جمع من العلماء الذين تكلموا في الدعوة وما يترتب عليها، فقالوا في قوله -تعالى-: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] الدعوة مستلزمة لمعرفة ذلك السبيل، إذ لا يمكنك أن تدعو إلى هذا السبيل إلا وأنت عالم به، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي بالعلم، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] بالرفق واللين، ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: أهل الكتاب أو غيرهم، ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] لأنه أدعى للقبول، كما قال الله كما في قصة موسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥٣٠).
(٢) هو: الشيخ المؤرخ عبد العزيز بن أحمد الرشيد النجدي ثم الكويتي، ورسالته هذه هي رد على بعض علماء الأحساء، وقد طبعت قديما، توفي رحمه الله في مطلع ذي الحجة ١٣٥٦هـ.
(٣) (١/ ٦٠).

لكن قد تقول: هذه الآيات تدل على أن الداعية يدعو الناس برفق ولين وتؤدة، لكن إذا لم يؤثر ذلك بل تمادى من يدعوه في الطغيان والعصيان ولم ينفع فيه ذلك اللين، الذي قال الله فيه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] فهل تسقط الدعوة حينئذ؟

نقول: لا، بل الآية الأخرى بينت جواب هذا السؤال، قال الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الذين من جملتهم محمد ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ولم يقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]؛ لأن المقام مقام قوة، فلابد من أطره على الحق أطرا، ولابد من الضرب على يده إذا لم تنفع فيه الموعظة والدعوة، لابد من إجباره ومنعه من تعاطي هذا الإجرام، هذا هو معنى الآية، وهذا يكون للسلطان، والشريعة أمرتنا بالسمع والطاعة لولاة الأمور كما في قوله ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(١)؛ لأن ضربه وظلمه أسهل مما لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما أمرنا بالسمع والطاعة إلا من أجل قوته، فلابد من سلطان، كما قال حسان رضي الله عنه:

دعا المصطفى دهرا بمكة لم ... وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلت بكفه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا

فالأفراد والعلماء وطلبة العلم عليهم البيان وعليهم الإرشاد والإيضاح

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

لولاة الأمور ولغير ولاة الأمور، كل بحسبه، فلو قام كل بما عليه أمرا ونهيا لاستقر الخير فينا، وامتنع فشو المنكر بيننا، فإن الله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ولا تقوم ملة إلا بالدعوة إليها، فنجد المذاهب الباطلة كالقاديانية والماسونية والبهائية ما قامت وانتشرت -مع أنها باطلة فاسدة- إلا بالدعوة إليها، موهوها وأدخلوها على العامة، حتى انتشرت وكثرت، فدخلت في كثير من الأقطار، وما اختل عرش ملة صحيحة ولا تداعت أركانها إلا بسبب عدم قيام أهلها بالدعوة إليها وتبصير الناس بها.

ولذا نقرأ في كتب المستشرقين ما يقوله (زويمر) – وهو رئيس إرساليات التبشير للنصارى- كان في مصر ثم في البحرين، وكان له دور كبير في الدعوة إلى النصرانية ودور كبير في الحط على الإسلام والقضاء على المسلمين، وكان يبعث الدعاة من النصارى في البلدان الإسلامية، وأخذ مدة يبعثهم، وينفق عليهم الأموال التي يأخذها من حكوماتهم، ثم جمعهم وقال: ماذا عملتم؟

قال شخص: أنا نصرت مسلما.

وقال آخر: أنا نصرت اثنين.

وقال آخر: أنا نصرت ثلاثة، فدعا لهم، وقال: بارك فيكم المسيح، ولكن لم تخدموا الغرض الذي نريده، ولم تنتبهوا للأمر الذي تريده البلاد المسيحية، لا نريد أن يخرج المسلمون من الإسلام، هذا لا يمكن أن يحصل إلا من إنسان لم يدرك أبويه ولم يكن له من يعلمه الإسلام، أو إنسان مستهتر بدينه ولا يهمه إلا لقمة العيش فنتمكن من ذلك، لكن الذي نريده منكم أن تدخلوا الشكوك

على المسلمين حتى يكونوا حيارى في دينهم، فبهذا تستعمرون البلاد المحمدية؛ بحيث إذا تعلم الولد من المسلمين بقي حيران شاكا، إن تبوأ مركزا ما ففي سبيل شهواته، وإن جمع مالا ففي سبيل شهواته، فيصبح لا صلة له بخالقه ولا معرفة له بأمته، فهذا الذي نريده منكم.

ثم قال في خطبة أخرى: «إن الإسلام كالشجرة، يجب قطعها بأغصانها»، يعني: ربوا أبناء المسلمين على ما نريد، وهم الذين يقطعون شجرة الإسلام لا أنتم، هذا قولهم.

ويقول أحد الفرنسيين: «يجب بذر الشكوك في قلوب نشئ المسلمين ما داموا في مدارسهم»، فإذا كانوا صغارا لابد أن ينشأوا على إيجاد شبه تعترض لهم دون دينهم ودون إسلامهم، حتى يستهتروا بالإسلام ولا يعرفون لهم دينا بسبب هذه الشبه.

ويقول شخص آخر ألف كتابا سماه: «الغارة على العالم الإسلامي»: «ينبغي للمبشر النصراني عندما يأتي للمسلمين ويريد أن يلقي كلمة أن ينظر إن كان عنده طلبة علم وعلماء المسلمين، فيسلك في محاضرته مسلك التاريخ فقط، فلا يتجاوز التاريخ، وإذا لم يكن عنده إلا العامة ولم يكن عنده أحد من أهل العلم، فليحسن الإسلام ويذكر فضله ثم يوقع الشبه ليظهر أمامهم مظهر المنصف المحق، فيقول مثلا: ما أجل الإسلام وما أحسنه إذ يقول: «المشقة تجلب التيسير»، وما أعظم الإسلام وما أجله حيث يقول: «الضرورات تبيح المحظورات».

وما أجل الإسلام وما أحسن الإسلام حيث يقول: «درء المفاسد مقدم

على جلب المصالح»؛ لأنه لو هاجم الإسلام قاموا عليه، لكن لابد من مقدمة كاذبة، ثم يقول: إلا أن الإسلام أخطأ في كون الرجل يتزوج المرأة باتفاق بينهما وبرضاهما، ثم يطلقها دون اختيار منها، كيف لا يكون مثل البيع لا يفسخ إلا عن تراض؟!

كذلك الإجارة لا تفسخ إلا باتفاق المتعاقدين، فكيف ينفسخ النكاح من جهة واحدة من دون رضى الآخر؟!

وأخطأ الإسلام في كونه فضل الذكر على الأنثى في الميراث حيث يقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، الأنثى ضعيفة مسكينة، وكلاهما يمتون إلى الميت بصلة واحدة، فما الذي فضل الذكر وجعل له سهمين، وللمرأة سهم، وهي أضعف، وهذا القوي النشيط له سهمان؟!.

وهم لا يزالون يحطون على الإسلام من هذا القبيل، أما المسلمون فهم نيام، تجد بعضهم يسب بعضا، ويأكل بعضهم بعضا، وبعضهم -أيضا- لا يبالي بدينه، وبعضهم لا يبالي بعقيدته، وهذا من الامتحان.

وهذا معنى قول المصنف: (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)، إذا كان الإنسان موحدا فإنه يدعو إلى إزالة العلة التي هي فيه، إما معصية ارتكبها أو بدعة فعلها، فينبهه ويدعوه ويحثه، وإن غلب على ظنك أنه لا يقبل فينبغي دعوته وتنبيهه وإرشاده، إذا كان من طلبة العلم تزيل شبهته، أو تبحث عن شبهته، وإن كان من العامة فترشده وتحثه وترغبه، فأنت إذا رغبته وأنا جئت بعدك فدعوته، وجاء الثالث بعدي، ثم الرابع فلابد أن يتأثر، إذا تكاتفنا جميعا،

فنكون بهذا من أتباع الرسل، ومن أتباع النبي ﷺ حيث يقول الله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ -أي: على علم ويقين - ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ ويدعو إليه أتباعي، فأتباعه هم الذين يدعون إلى هذا السبيل الذي أناره النبي ﷺ وأوضحه لأمته وبينه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]: المشرك مهما عمل فالله لا يقبل منه أي عمل ما دام مشركا، ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٧]، عمارة مساجد الله بالطاعة وبتلاوة القرآن والصلاة والأعمال الصالحة، فما دام أنه مشرك فعمله مردود عليه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ولا ينفع النطق بالإسلام إذا لم يحقق شهادة ألا إله إلا الله، والمسلمون اليوم المنتسبون للإسلام كل منهم يقول: «أنا مسلم»، ويكتفي بمجرد ما كتب في هويته وبطاقته: (الديانة: مسلم)، وربما أنه لا يعرف الله طرفة عين، فهل هذا مسلم؟!

أقل أحواله أنه لا يعرف الصلاة، أو يعبد القبور أو يستبيح الخمر، أو يستبيح الزنا، هذا ليس مسلما؛ لأن الإسلام ليس مجرد انتساب، وإنما الإسلام الحقيقي هو العمل بمقتضى شهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة «أن لا إله إلا الله» - وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله-، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض

عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه[1].

هذا الحديث عظيم، جليل القدر، كثير الفوائد، فمن فوائده:

أولا: أنه يتعين على الإمام أن يبعث الدعاة إلى النواحي يفقهون الناس ويعلمونهم ويبصرونهم في دينهم، فواجب الإمام على الرعية السمع والطاعة، وواجب الرعية على الإمام أن يقوم بشؤون المسلمين ويعلمهم ويبعث الدعاة إليهم؛ ليفقهوهم ويخبروهم بما أوجب الله عليهم، كما فعل رسول الله ﷺ؛ فإنه كان يبعث الدعاة إلى النواحي، فقد بعث معاذا إلى اليمن، كل هذا ليعلمهم التوحيد وما أوجب الله عليهم.

ثانيا: فيه دليل على فضل معاذ رضي الله عنه، فهو من أفاضل الصحابة وعلمائهم، وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل»[2]، وورد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٤٩٦)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٢٥٢) (ح:١٢٩٠٤)، وابن ماجه في سننه (ح:١٥٤) من حديث خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس، به مرفوعا.
وإسناده قوي، إلا أنه اختلف فيه على خالد، فوصله عبد الوهاب الثقفي، وأرسله غيره ولا يصح منه موصولا إلا قوله ﷺ: «وإن لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»، وهذا القدر هو الذي اقتصر عليه البخاري في صحيحه (ح:٤٣٨٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٤١٩)، والله أعلم.

عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ هَلَكَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَهُوَ إِمَامُ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ**»(١)؛ أي: برمية حجر، هذا يدل على فضل معاذ، ومما يدل على فضله أن النبي ﷺ بعثه إلى اليمن معلما وقاضيا وقائما مقام النبي ﷺ.

ثالثا: أن الداعية ينبغي أن يكون على مستوى لائق بالمدعوين، فإن المدعوين هنا عندهم علم، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب» -وهم اليهود والنصارى- عندهم علم ومجادلة فاستعد لمناظرتهم، وتهيأ لمجادلتهم بالأدلة، بخلاف مشركي العرب عباد الأوثان، فإنهم جهلة لا علم عندهم، أما هؤلاء فإنهم عندهم شيء من علوم التوراة والإنجيل وعلم الأوائل.

رابعا: دل الحديث على أن الداعية إذا بعث إلى هؤلاء يكون على أهبة واستعداد لمناظرتهم ويتهيأ للأجوبة على شبههم، فيعرف شبههم ويفكر في الجواب عنها حتى يدحض حججهم ويبين لهم الحق.

خامسا: فيه دليل على أن أهم المهمات وأول الواجبات هو معرفة شهادة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (ح:٥٢٤١) موقوفا على مالك بن أنس، وأخرج أحمد في مسنده (ح:١٠٨) نحوه من حديث شريح بن عبيد وراشد بن سعد، عن عمر بن الخطاب، به مرفوعا، وهو منقطع، وأخرجه – أيضا- في فضائل الصحابة (٢/ ٩٢٧) (ح:١٢٨٧) من طريق شهر بن حوشب، عن عمر، به، وإسناده منقطع أيضا.
وأخرجه الطبراني في الصغير (ح:٥٥٦) من مسند جابر، به مرفوعا، ولا يصح؛ فيه مندل بن علي، ضعيف الحديث.
وأخرجه في الكبير (٢٠/ ٢٩) من حديث محمد بن كعب القرظي، به مرسلا.

«أن لا إله إلا الله»، لا كما يقول المتكلمون أن الواجب الأول هو: النظر، أو: اعتقاد أن الله هو القادر على الاختراع، هذا كله باطل، نعم الله قادر على الاختراع ولكن هذا يقر به المشركون، كلهم معترفون أن الله هو الذي يخلق ويرزق ويدبر الأمور ويتصرف بخلقه بما تقتضيه حكمته، لا ينكر هذا أحد، لم ينكره إلا شذاذ قلائل من بني آدم، إنما المراد: فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة «أن لا إله إلا الله»، فإنها تقتضي خلع ما يعبد من دون الله وإثبات العبادة له وحده لا شريك له.

سادسا: فيه دليل على أن هذه الكلمة تعصم الدم والمال مع بقية أركان الإسلام كما في حديث: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»[1]، فدل على أن لها حقوقا، فلابد أن يأتي بمعنى شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، ويأتي بحقوقها ومكملاتها، فلو جاء بها نطقا ولكن جاء بما يناقضها عملا فلا تنفعه، وهذا في مشركي العرب الذين يعرفون معناها، فإن مشركي العرب يعرفون معنى (لا إله إلا الله)، يعرفون أنها دلت على بطلان ما يعبد من دون الله، وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وهم يعبدون الأشجار ويتقربون إليها، كالعزى بوادي نخلة في مكة، فهموا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح:١٣٩٩)، ومسلم في صحيحه (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من هذه الكلمة أنها تثبت العبادة لله، وأنه ليس هناك وسائط بين الخلق والخالق، وهذه الكلمة وهي شهادة: (أن لا إله إلا الله) تبطل أي واسطة بين العبد وبين ربه، بل تتصل بالله بدون واسطة.

كما قالوا -أيضا- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ فهم معترفون أن الخلق والرزق والنفع والضر من الله -سبحانه-، لكن شهادة ألا إله إلا الله تقتضي إثبات العبادة، وهذا الذي يدخل العبد في الإسلام، إلا إذا كان تكفيره ليس بسبب هذا بل بأمر آخر، فلو شهد (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) ولكن جعل مع الله إلها آخر واسطة بينه وبين الله فإنه قد جاء بما يبطل شهادة (أن لا إله إلا الله) ويناقضها؛ أو زعم أن لله صاحبة أو أن لله ولدا، فهذا لا يكفي في إسلامه وتوبته مجرد النطق بشهادة (أن لا إله إلا الله)، بل لابد أن يتبرأ من الشيء الذي صار لأجله مرتدا، أو جحد أسماء الله وصفاته، أو اعتقد إباحة أمر محرم مجمع على تحريمه، فلا يكفي أن ينطق بالشهادتين، بل لابد أن يصرح بالأمر الذي صار من أجله مرتدا، ويتبرأ منه، ولهذا عقد العلماء في كل مذهب: (باب حكم المرتد)، وهو الذي يكفر بعد إسلامه؛ كما هو معروف.

(وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله): فيه الرد على المتكلمين كما قلنا، فإنهم يقولون: أول ما يجب على العبد النظر، نقول: لا، بل أول ما يجب على العبد شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، ثم لا يكفي مجرد النطق، بل لابد أن ينطق بها ولابد أن يعمل بمعناها، ولابد أن يعرف مقتضاها؛ فإن العبادة

لها شروط، فلابد أن تقع العبادة من العابد ذالا خاضعا لمعبوده ممتثلا لأوامره، منتهيا عن نواهيه، كما قال ابن القيم[(١)]:

وعبادة الرحمن غاية حبه ❁ مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ❁ ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ❁ لا بالهوى والنفس والشيطان

قال: (فإن أطاعوك) يعني: قبلوا منك هذه الشهادة ونطقوا بها وعملوا بمقتضاها، (فأعلمهم) أن هناك أمرا آخر وهو: (أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة): هذا يدل على أن الداعية يبدأ بالأهم قبل المهم، وأنه لا ينبغي أن ترى الرجل ارتكب الكبيرة وتسكت وتنكر عليه الصغيرة، لا، ولكن نبهه على الكبيرة، فمثلا: لو رأيت رجلا ترك الجماعة – وهي شرط في صحة الصلاة؛ كما ذهب إليه ابن حزم وابن عقيل وابن تيمية وابن القيم[(٢)]، أو واجبة؛ كما ذهب إليه الحنابلة[(٣)]–، ورأيته لا يتنفل، فهل تنكر عليه وتقول له: لماذا لا تتنفل؟!

الرسول ﷺ لم يقل لمعاذ: «مرهم فليصلوا، مرهم فليزكوا، مرهم فليصوموا» لا، بل لابد من تصحيح العقيدة أولا وهي: شهادة (أن لا إله إلا الله

---

(١) ينظر: الكافية الشافية (ص٤٣).
(٢) وهذا القول رواية عن الإمام أحمد رحمه الله وهي من المفردات، ينظر: المحلى (٤/ ١٨٨) لابن حزم، الفروع (٢/ ٤٢٠)، والإنصاف (٤/ ٢٦٥)، مجموع الفتاوى (١١/ ٦١٥- ٢٦/ ٢٢٣)، كتاب الصلاة (ص٢٤٦) لابن القيم.
(٣) في مشهور المذهب، ينظر: الإنصاف (٤/ ٢٦٥)، كشاف القناع (٣/ ١٤١) للبهوتي.

وأن محمدا رسول الله)؛ لأن غيرها ينبني عليها؛ هذا هو الأساس في أركان الإسلام، فمتى تخلفت الشهادة أو تخلف معناها أو تخلف العمل بمقتضاها، فلا تنفع الصلاة ولا غيرها.

ودل قوله: (فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة) - كما قال بعضهم- على أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، ولا دلالة عليه، بل الصواب أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، فلو قلت: كيف يخاطبون بالفروع وهم لو عملوا بها لم تقبل منهم، فمثلا الصوم: لو صام لا يقبل منه؛ لأنه كافر، أو حج لم يصح حجه؛ لأنه كافر؟!

نقول: نعم مخاطبون بفروع الشريعة ولو عملوا بها لم تقبل منهم؛ لأنهم مطالبون بالدخول في الإسلام والعمل بمقتضى شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).

وفيه دليل على أن الواجب هو خمس صلوات في اليوم والليلة، وأن الوتر ليس بواجب، فالوتر سنة مؤكدة.

قال الإمام أحمد: «المداوم على ترك الوتر رجل سوء، لا ينبغي أن تقبل شهادته»[(١)]، واستدل بعمومات منها: «مَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا»[(٢)].

---

(١) ينظر: المغني (٢/ ٥٩٤) لابن قدامة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٩٧١٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦٩٣٢) من حديث خليل بن مرة، عن معاوية بن قرة، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
ولا يصح، خليل منكر الحديث، ومعاوية لم يسمع من أبي هريرة. =

وبقوله ﷺ: «أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث.

والصلاة ذكرها في هذا الحديث عقب الركن الأول الأعظم، مما يدل على أن الصلاة هي أعظم ركن بعد الشهادتين، وسميت الصلاة «صلاة»؛ لأنها صلة بين العبد وربه، أما ترى أنك إذا قمت تصلي وأردت أن تكبر تكبيرة الإحرام قائلا: الله أكبر، ترفع يديك إشارة إلى كشف الحجاب بينك وبين ربك، كأنك مستشعر عظمة من قمت بين يديه، وتهيأت لخدمته، ولاحظ قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هذا الخطاب كأنك وقفت بين يديه بعد حمدك له وتمجيدك له في قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

قال العلماء: هذا فيه حسن أدب، فمن كانت له حاجة عند شخص فينبغي

= وأخرجه أحمد -أيضا- في مسنده (ح:٢٣٠١٩)، وأبو داود في سننه (ح:١٤١٩) من طريق عبيد الله أبي المنيب العتكي، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، به مرفوعا.
ولا يصح، أبو المنيب لين الحديث، وقد ساق ابن عدي الكامل (٥/ ٥٣٢) هذا الحديث من جملة مناكيره.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (٢/ ٤١٣) (١٢٦٢)، وأبو داود في سننه (ح:١٤١٦)، والترمذي في جامعه (ح:٤٥٣)، والنسائي في سننه (ح:١٦٧٥)، وابن ماجه في سننه (ح:١١٦٩) من طريق أبي إسحاق -وهو السبيعي- عن عاصم بن ضمرة، عن علي، به مرفوعا، قال الترمذي: «حديث حسن»، وعاصم مختلف فيه، وقد أشار إلى إعلال الخبر الحافظ ابن عبد الهادي في المحرر (ص٢٣١)، وأخرجه ابن ماجه في سننه (١١٧٠) وغيره من حديث عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود، به.
وقد أعله الدارقطني وذكر أن المحفوظ إرساله، ينظر: «العلل» (٥/ ٢٩١).



أن يقدم بين يدي حاجته شيئا من الثناء على هذا الشخص بذكر محاسنه ثم يتقدم بحاجته؛ لأن الله علمنا أن نحمده أولا، ونمجده ونثني عليه ثم نطلب حاجتنا.

والصلاة من المزايا والخصائص ما ليس لغيرها من بقية شرائع الإسلام:

أولا: الزكاة لا تجب إلا مرة في السنة، ثم هي لا تجب إلا على الأغنياء، والصوم لا يجب إلا مرة في السنة، ثم هو لا يجب إلا على القادر، والحج لا يجب إلا مرة في العمر، ثم هو لا يجب إلا على المستطيع.

أما الصلاة فتجب في اليوم والليلة خمس مرات على المريض وغيره والمسافر والمقيم؛ مما يدل على عظم شأنها.

ثانيا: الصلاة تؤدى جماعة، يؤديها المسلمون منتظمين صفوفا خلف إمامهم، فلا يوجد شيء من شعائر الإسلام يؤدى على هذه الكيفية، بل كل يؤدي عبادته منفردا، لا ترتبط بعبادة الآخر، فحجك منفرد، وصومك منفرد، وزكاتك منفردة، بخلاف الصلاة؛ فإن المسلمين يجتمعون في مكان واحد صفا هذا بجانب هذا، هذا منكبه محاذ لهذا، يؤدونها منتظمين صفوفا خلف الإمام، وهذا يدل على عظمها وعظم شأنها.

ثالثا: الرسول ﷺ أمرنا أن نعلمها صبياننا إذا بلغوا من السن سبع سنين، فقال: «إِذَا بَلَغَ الْغُلَامُ سَبْعَ سِنِينَ فَأْمُرُوهُ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرًا فَاضْرِبُوهُ

عَلَيْهَا»[1]، ولم يقل: «مروا أبناءكم بالصوم لسبع»، أو: «مروا أبناءكم بالحج لسبع»، بل قال: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[2]، مع أن صلاة ابن سبع سنين لا تجب عليه باتفاق المسلمين، فلو ترك ابن سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين الصلاة

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٨١) – ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (ح:٦٥٤٨)– والدارمي في سننه (ح:١٤٧١)، وأبو داود في سننه (ح:٤٩٤)، والترمذي في جامعه (ح:٤٠٧) من طرق عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا.

قال الترمذي: «حديث سبرة حديث حسن».

وقال أبو خيثمة التاريخ الكبير (٢/ ٧٠١): «سئل يحيى بن معين عن أحاديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده؟ فقال: ضعاف».

وقد أخرج مسلم في صحيحه (ح:١٤٠٦) في المتابعات لعبد الملك، عن أبيه، عن جده حديثا واحدا في (المتعة).

وللخبر شاهد من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا، أخرجه أحمد (١١/ ٣٦٩- ٢٨٤) (٦٦٨٩- ٦٧٥٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح:٣٥٠١)، وأبو داود في سننه (ح:٤٩٥) من طرق عن أبي حمزة سوار بن داود، عن عمرو، به.

وقد أعله العقيلي (٤/ ١٧٦)، وسوار ليس هو بالقوي.

وله شاهد آخر عند الطبراني في «الأوسط» (٤١٢٩) من حديث داود بن المحبر، عن أبيه، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أنس بن مالك، به مرفوعا وفيه: «واضربوهم عليها لثلاث عشرة»، وداود متروك، وقد خالف سندا ومتنا.

وجاء –أيضا– من حديث أبي هريرة ولا يصح.

... الباب حديث سبرة قاله عبد الحق، قال ابن القطان بيان الوهم والإيهام ... لا ضعفا».

فلا حرج عليه ولا إثم على وليه؛ لأنها لا تجب عليه، لكن الرسول ﷺ أمر أن نعلمها صبياننا إذا بلغوا من السن سبع سنين؛ لأن الصلاة أمرها عظيم، حتى يتربى الأولاد الصغار تربية طيبة، يعتادون المجيء إلى المساجد، وينغرس حب الصلاة في قلوبهم، وينشأوا نشأة طيبة صالحة؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ثم أمر الرسول ﷺ إذا بلغوا من السن عشر سنين أن نضربهم، وهذا الضرب ليس بالعصا؛ بل ضرب يتناسب مع جسمه وعقله؛ كفرك الأذن، والضرب باليد وما أشبه ذلك؛ لأنها لا تجب عليه، لكن خشية أن ينشأ على التمادي في ترك الصلاة أو التساهل بها، كل هذا يدل على عظم شأنها.

رابعا: أن الرب هو الذي تولى فرضيتها بنفسه على الرسول ﷺ، بخلاف بقية الشرائع فإن الله يأمر جبريل، وجبريل ينزل فيخبر النبي ﷺ بما أمره الله، أما الصلاة فليست بواسطة جبريل؛ بل فرضت فوق السماء السابعة حينما عرج به، مما يدل على عظمها، وأنها فرضت عليه في أعلى مكان وأرفعه.

خامسا: أن الله فرضها على الرسول ﷺ في بدء الأمر خمسين صلاة، مما يدل على محبة الله لها وعظم شأنها وأنها تؤدي بالعبد إلى الذل والخضوع والانكسار بين يدي ربه، لكن ما زال الرسول ﷺ بين ربه وبين موسى يتردد ويقول له موسى: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ» حتى صارت خمسا، فقال موسى: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ» فقال الرسول ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ»، فنادى مناد: «إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ

فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»[1]؛ فإن الأجر لم ينقص، فكأنك تصلي خمسين صلاة، إنما نقص العدد، كل هذا يدل على عظمها.

سادسا: الصلاة هي أكثر الفرائض ذكرا في القرآن، فنجد آيات الصوم والحج أقل بكثير، فقد ذكرا في نحو أربع آيات، أما الصلاة فتذكر كثيرا؛ فإن الله ذكرها بانفرادها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ [هود: ١١٤] وقوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقرنها تارة مع الزكاة كما قال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] وقرنها مع النسك في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ ﴾[الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] ومع الصبر في قوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وتارة ذكرها بعد ذكر العبادة إجمالا فقال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤] فهو خصوص بعد عموم، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ففعل الخيرات يدخل فيه إقامة الصلاة، ولكن ذكرها بخصوصها من باب ذكر الخاص بعد العام مما يدل على عظمها، وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١]، فإن الصلاة داخلة في التقوى؛ لأن التقوى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، كل هذا يدل على عظمها وعظم شأنها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٤٩)، (ح:٣٢٠٧)، (ح:٣٨٨٧)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٦٣) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

ثم لما ذكر المؤمنين وأعمالهم الزكية، وأخلاقهم الشريفة، بدأها بالصلاة، وختمها بالصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى أن قال بعد هذا كله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

سابعا: الصلاة هي عمود الإسلام، فحظك من الإسلام بقدر حظك من الصلاة، فلا يستقيم بيت بدون عمود، فالخيمة لا يمكن أن تقوم بغير عمود، فإذا سقط العمود سقطت الخيمة، فشبه النبي ﷺ كما في حديث معاذ رضي الله عنه الصلاة بالعمود[1].

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح:٢٠٣٠٣)، ومن طريقه أحمد في مسنده (ح:٢٢٠١٦)، والترمذي في جامعه (ح:٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (ح:١١٣٣٠)، وابن ماجه في سننه (ح:٣٩٧٣) من طريق عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ، به مرفوعا.
أعله الحافظ ابن رجب بأن أبا وائل شقيق بن سلمة لم يسمع من معاذ، وأن الصواب من طرقه ما رواه حماد بن سلمة، عن عاصم، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، به، وهو منقطع.
وأخرجه الطيالسي في مسنده (ح:٥٦١) – ومن طريقه البيهقي في الشعب (ح:٢٥٤٩)-، أحمد في مسنده (ح: ٢٢٠٣٢) من طريق شعبة، عن الحكم، عن عروة بن النزال أو النزال بن عروة، عن معاذ، به.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٥) من طريق عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن معاذ، به.
وقد أورده ابن عدي (٨/ ٤٤) في مناكير عثمان، وفي إسناده -أيضا-: علي بن يزيد الألهاني، لين الحديث. ينظر: ميزان الاعتدال (٣/ ١٦١).
وقد ضعف الخبر بجميع طرقه الحافظ ابن رجب رحمه الله. ينظر: جامع العلوم والحكم (ص٥٠٧).

ثامنا: أن الله أوجبها على الذكر والأنثى، والحر والعبد، والغني والفقير، والمقيم والمسافر، والصحيح والمريض لا يعذر أحد بتركها، المسافر لابد أن يصلي ومع هذا يجوز له الإفطار، الفقير لابد أن يصلي ومع هذا لا حج عليه ولا زكاة، المريض يجوز له أن يفطر في نهار رمضان، ولا يلزمه أن يحج إلا إذا كان غنيا فيقيم من يحج عنه ويعتمر، كما هو معروف، لكن يلزمه أن يصلي، إن استطاع أن يصلي قائما فإن عجز فعلى جنب، فإن عجز يومئ ولو بعينه، بل قال بعض العلماء: لا تسقط الصلاة عن المريض ما دام عقله ثابتا، هذا كله يدل على عظم الصلاة.

تاسعا: أنها من آخر ما وصى بها النبي ﷺ عند وفاته بقوله: «الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»(١).

عاشرا: الصلاة هي أول ما ينظر الله من أعمال العبد يوم القيامة(٢)، لا ينظر في زكاة ولا في صوم ولا في حج ولا في أي شيء حتى ينظر في الصلاة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٢) (ح:٥٨٥)، وأبو داود في سننه (ح:٥١٥٦)، وابن ماجه في سننه (ح:٢٦٩٨) من حديث أم موسى، عن علي، به.
وأم موسى وثقها غير واحد، والأصل في النساء الستر.
وجاء الخبر من مسند أم سلمة ومن مسند أنس وأصلهما حديث واحد، اختلف فيه على قتادة، ثم اختلف فيه علي سليمان التيمي، والذي صوبه الرازيان رواية همام عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن أم سلمة، وهي منقطعة، أبو الخليل لم يسمع من سفينة.
وأما رواية سليمان التيمي فقد سلك فيها الجادة مرة، فقال: عن قتادة عن أنس، وفي روايته اضطراب شديد. ينظر: سنن النسائي الكبرى (٦/ ٣٨٧- ٣٨٨)، علل ابن أبي حاتم (٢/ ١٨١)، علل الدارقطني (١٢/ ١٣٣).

(٢) روي من أوجه، منها: ما أخرجه أحمد (ح:١٦٦١٤) من حديث يحيى بن يعمر، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ به مرفوعا، ورجاله ثقات.

الحادي عشر: أن الله لا يقبل من تارك الصلاة زكاة ولا صوما ولا حجا ولا جهادا ولا أمرا بمعروف ولا نهيا عن منكر، ولا صلة لرحمه، ولا برا بوالديه، بل جميع أعماله مردودة عليه إذا كان لا يصلي.

الثاني عشر: أن تاركها يقتل كافرا -على قول طائفة من أهل العلم- ولو كان مقرا بالوجوب، كما هو مذهب أهل الحديث ومذهب الإمام أحمد، وعلى هذا إذا قتل: لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين في مقابرهم، بل يرمى في أي حفرة، لا قيمة له، الكلب أحسن منه.

هذا شأن الصلاة.

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه».

فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها.

فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟».

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من حمر النعم»[1] يدوكون: يخوضون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٩٤٢)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٤٠٦).

قوله: (لأعطين الراية): اللام هنا موطئة للقسم، كأنه قال: «والله لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله».

و(الراية): هي ما ينصب للقوم عند كرهم وفرهم عندما يقاتلون العدو، يحملها رجل من شجعانهم وأبطالهم حتى تكون علما للجيش يأتون إليها، ويعرفون أن هذا جيشهم وهذا عسكر المسلمين، حتى لا يغيب عنهم أو يختلطوا مع جيش العدو من غير ما يشعرون.

قوله: (غدا)؛ أي: صبيحة اليوم الذي يلي تلك الليلة، يوم خيبر، وهو قتال النبي ﷺ لليهود، وكانوا مقيمين في خيبر، وقصتهم وقصة الفتح معروفة في كتب السير والتواريخ.

قوله: (يدوكون)؛ أي: يخوضون ويبحثون وينظرون، كل منهم يتمنى أن الراية تدفع إليه، لا لأجل الإمارة والرياسة، بل لأجل هذا الوصف العظيم الذي فيه أن من دفعت إليه تلك الراية فهو يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ولأجل هذا لما أصبحوا ذهب الناس كلهم إلى الرسول ﷺ، كل منهم يرجو أن يعطاها، قال عمر: «فإني أتطاول في تلك الساعة لرسول ﷺ لينظر إلي فيدفعها إلي وقال: والله ما أحببت الإمارة إلا يومئذ»[1]، من أجل هذا الوصف لا لشيء آخر.

(فقال: أين علي بن أبي طالب؟ قيل: هو يشتكي عينيه): من رمد كان في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(ح:٢٤٠٥) اللفظ أوله مغاير وليس من لفظ مسلم.

عينيه، والرمد، هو الألم الحار المؤلم للعينين والمانع لها من النظر.

(فأرسلوا إليه فجيء به فبصق في عينيه): فأبرأ الله بريقه الشريف هذا الوجع الحار فأبصر من ساعته، حتى قال علي: «والله ما شكيت عيني منذ بصق فيهما رسول الله ﷺ»(1). فدفع إليه الراية وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»(2).

وقوله: (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله): فيه من الفوائد:

أولا: إثبات الصفات لله خلافا للأشاعرة الذين يؤولون المحبة بمعنى: (الإنعام)، أو (الإثابة) أو ما أشبه ذلك، فالله -سبحانه- أثبت أنه يحب، قال -تعالى-: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وهذه المحبة وغيرها من الصفات يثبتها أهل السنة والجماعة لله إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا نفي مجمل. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات مفصل.

فإثبات الصفات لله جاء على طريق التفصيل، ونفيها جاء على طريق الإجمال.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٤٠٦).

ففيه دليل على أن الله -سبحانه- يحب، ومحبته ليست كمحبة المخلوقين، فالأشاعرة وغيرهم يقولون: إذا أثبتم أن الله يحب، فمن لازم ذلك أن يكون مشابها لخلقه، إذ المحبة إذا أطلقت فتنصرف إلى ميل المحب قلبيا إلى المحبوب، فيكون حينئذ قد شبه بخلقه.

نقول: لا يلزمنا هذا، نثبت لله أنه يحب كما أثبته لنفسه، ولا يلزم من هذا أن محبته كمحبة المخلوقين أبدا، فهل أنت أيها الأشعري أو المعتزلي تثبت أن لله ذاتا؟

يقول: نعم - لأنه لو لم يثبت له ذاتا كان عدما-.

نقول له: هل ذاته تشبه ذوات المخلوقين؟

يقول: لا.

نقول: كما أنك تثبت ذاتا لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت لله صفاتا لا تشبه الصفات، فإن الصفات فرع عن الذات، فينقطع حينئذ.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] هذا مجمل، نفى أن يكون لله شبيها في أسمائه وصفاته أو في ذاته وأفعاله، وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ كل هذا نفي مجمل.

أما طريق الإثبات فقد جاء على التفصيل: أن الله سميع، بصير، غفور، رحيم، يغضب ويرضى، يحب ويتكلم وينادي، هذا معنى قولهم: «بعث الله رسله بنفي مجمل وإثبات مفصل».

ثانيا: يدل هذا الحديث على فضل علي رضي الله عنه؛ فإن عليا من أفاضل الصحابة وعلمائهم وأجلائهم، وقد ذهبت النواصب إلى تكفير علي وهم أهل الشام من أتباع معاوية رضي الله عنه، بدعوه وضللوه وتكلموا في حقه بما لا يجوز.

وأما معاوية وغيره من الصحابة فهم يعرفون فضل علي، ولم يتكلموا فيه، إنما فعل ذلك رعاع الناس، فسموا «نواصب» لبغضهم لعلي.

أما الصحابة رضي الله عنهم فلا يمكن لأحد منهم أن ينكر فضل علي رضي الله عنه، وإنما الذي أنكره الخوارج والنواصب، أما الصحابة ومن أخذ عن الصحابة فهم مجمعون على فضل علي رضي الله عنه، والروافض غلوا في علي وألصقوا بالنواصب ما هم بريئون منه، ونجد في كتب الرافضة -قبحهم الله- أكاذيب ينسبونها إلى بعض الصحابة في حق علي، وهم كذبة مردة، فمنها أنهم يقولون: إن معاوية دفع إلى سمرة بن جندب مئة ألف درهم على أن يحدث أحاديث في ذم علي، فأبى سمرة.

ثم دفع له مئتي ألف، فأبى.

ثم دفع له ثلاث مئة ألف فأبى.

ثم دفع له أربع مئة ألف فوافق سمرة، وحدث بما يدل على ذم علي



والحط من فضله، قالوا: إن سمرة حينئذ فسر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٥] أن هذه الآية نزلت في علي رضي الله عنه، وأن قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزل في معاوية رضي الله عنه، وهذا كله كذب، حاشا أن سمرة أو غيره من الصحابة يحدث بهذا، ويؤولون القرآن على غير تأويله؛ فإن عليا كما قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)، لكن الروافض يريدون الرد على النواصب، ويريدون تكذيب الصحابة، وهم الكذبة، فإنهم لم يرووا هذا بسند صحيح بل ولا ضعيف، والحديث هذا يرد عليهم.

قال ابن تيمية: «لا يمكن أن مثل هذا الوصف العظيم يطلقه الرسول صلى الله عليه وسلم على من علم الله أن يبتدع أو يموت على غير الإسلام»[(١)].

ثالثا: فيه الرد على الروافض القائلين: «إن عليا هو الله»؛ كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام، أو: «إن عليا أفضل من أبي بكر وعمر»؛ كما قاله معتدلهم، وعلي لا شك أنه من أفاضل الصحابة، وأنه رابع الخلفاء، ولاشك أن أبا بكر أفضل منه، وعمر أفضل منه، وعثمان أفضل منه، وعلي في الدرجة

(١) **ينظر**: منهاج السنة (٥/ ٤٤) لابن تيمية.

الرابعة؛ كما جاءت بذلك النصوص، إلا أن التفضيل بين علي وعثمان فيه الخلاف بين أهل السنة، بعضهم يفضل عليا على عثمان، وبعضهم يفضل عثمان على علي، أما الخلافة فأهل السنة مجمعون على أن الأحق بالخلافة هو عثمان رضي الله عنه، ومن زعم أن عليا أولى بالخلافة فقد طعن في الصحابة، وقال ابن تيمية: «هو أضل من حمار أهله»[(١)]، من زعم هذا فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار الذين قدموا عثمان رضي الله عنه.

فالخوارج والروافض في طرفي نقيض، هؤلاء فرطوا وظلموا عليا وبدعوه وضللوه، وهؤلاء غلوا في علي وتجاوزوا الحد، والطائفتان مخطئتان ضلتا عن الصراط المستقيم، والقول الحق: هو ما قاله أهل السنة والجماعة في حق علي وفضله، وأنه من أكابر الصحابة ومن علمائهم وفضلائهم، وشهد النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة، فهو من العشرة المشهود لهم بالجنة، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه علي فقال: «يا علي يهلك فيك رجلان: محب، ومبغض»[(٢)]، وقد قال لنا بعض علماء مكة: إن الشريف عونا كان من عادته أن يقيم وليمة للعلماء الحجاج ويدعو إليها علماء مكة، وقد أقام وليمة كبرى ودعا إليها العلماء،

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٨).

(٢) أخرجه عبد الله في «زوائد المسند» (٢/ ٤٦٨) (١٣٧٦)، والنسائي في «خصائص علي» (١٠٣) من حديث الحكم بن عبد الملك، عن الحارث بن حصيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن علي رضي الله عنه، به مرفوعا.

الحكم ضعيف، وأبو صادق وأخوه ربيعة لا يكادان يعرفان كما قال الذهبي، والحارث ذكر ابن عدي أن رواية أهل الكوفة عنه هي في فضائل أهل البيت، وأنه شيعي محترق (الكامل (٢/ ٤٥٤)).

وحضروا عنده بعد المغرب مجيبين دعوته لتناول طعام العشاء عنده، وكان من جملة الحاضرين رئيس علماء الشيعة، وكان على يمين الشريف، ورئيس علماء الإباضية -الخوارج- على يساره، فدخل رجل من الحنابلة يقال له: (صالح بن عبد الله الدومي)، وكان محرما جاء من المدينة فسلم على الشريف، وكان الشريف يحب أن يربط بين العلماء فيبحثون حتى يظهر ما عندهم.

فقال له الشريف: هذا رئيس علماء الشيعة سلم عليه، وهذا رئيس علماء الإباضية سلم عليه.

فقال الحنبلي الدومي: هذا رئيس علماء الشيعة؟

قال الشريف: نعم.

ثم قال الدومي: وهذا رئيس علماء الإباضية؟

قال الشريف: نعم.

فقال الدومي: قال الإمام أحمد: -وساق الإسناد- أن النبي ﷺ دخل عليه علي، فقال ﷺ: «علي: يهلك فيك رجلان محب» - وأشار إلى الشيعي - «ومبغض»- وأشار إلى الإباضي-.

فقال له الشريف: أسألك بالله هل هذا حديث؟

قال: نعم.

فقال الشريف: أقيموهم والله لا يأكلون طعامي، فأخرجهم وطردهم.

وهذه تعد من مناقبه، لم يجامل ولم يقل هؤلاء وفود علماء، وهؤلاء

وفود حجاج، بل أبعدهم وطردهم ثم أمر بمائدة وقدمت للحاضرين.

رابعا: في هذا معجزة للرسول ﷺ، حيث أبرأ الله بريقه الشريف هذا الوجع الشديد.

ولو قال قائل: أين هذه المخترعات - كما يقول بعضهم- من معجزات النبي ﷺ؛ فإن الشخص يتكلم من بلاد بعيدة ويسمع صوته، وتتوزع ملايين الأصوات، ومع هذا لا يؤثر هذا على هذا؟!

قلنا له: هذه آلة وصنعة، تعلمها ومعرفتها يسير، لكن معجزات الرسول ﷺ لا تدرك بالتعليم أبدا، من الذي إذا أمر يده على الأقرع ينبت شعره؟!

ومن الذي إذا بصق في البئر جاشت ماءا؟!

ومن الذي إذا بصق في عيني الأرمد برئ حالا من ساعته وما اشتكى عينيه؟!

ومن الذي إذا قدم له الطعام القليل صدر عليه الخلق الكثير؟!

ومن الذي إذا قدم له قليل من الماء ووضع يده فيه فاض الماء وصار ينبع من أصابعه ويتوضأ منه أكثر من ألف وأربع مئة؟!

مثل هذا لا يمكن أن تجده أبدا، أما هذه الصناعات فأي شخص يتعلمها يعرفها، أما معجزات الأنبياء لا يمكن أن يصلوا إليها أبدا، وأعظمها القرآن - لو كان الناس يفهمونه ويعرفون بلاغته وفصاحته ومعانيه-.

خامسا: فيه دلالة على نبوته ﷺ إذ أخبر بالشيء قبل وقوعه، إذ قال:

(يفتح الله على يديه)، ووقع كما أخبر، وما أخبر ﷺ به من العلوم المغيبة كلها دالة على نبوته، فإن ما أخبر به على ثلاثة أقسام:

الأول: أشياء أخبر بها في وقته وحصلت في وقته.

الثاني: أشياء أخبر بها من المغيبات ولكن حصلت فيما بعد، مثل قوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»(١)، فقد خرجت سنة أربعة وخمسين وست مئة في المدينة، وأخذت شهرا حتى أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، ومثل قوله: «لا تقومُ الساعةُ حتى يلعنَ آخِرُ هذه الأمةِ أولَها»(٢)، وهذا وقع، فإن الروافض يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وأبا هريرة وعددا من الصحابة، هذا أخبر به ووقع بعده عليه الصلاة والسلام.

الثالث: أشياء أخبر بها ولم تقع وستقع.

(انفذ على رسلك): هذا من جوامع الكلم الذي أعطيه النبي ﷺ وخص به، الكلمة القليلة تجمع الفوائد الكثيرة التي لا حصر لها، فقوله: (انفذ على رسلك) جمعت آداب الحرب كلها، فكأنه قال: لا تكن في مسيرك عجلا طائشا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح:٧١١٨)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٥٤) من حديث إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر، عن عبد الملك بن عمير، عن مسروق، عن عائشة به مرفوعا.
إسماعيل ضعيف.
وجاء الخبر من مسند أبي أمامة كما في «أمالي ابن بشران» (١/ ١٠٦)، ضعفه الحافظ في «المطالب العالية» (١٨/ ٢٩٨).

بل عليك بالصبر والتأني والتثبت، وإياك ورفع الأصوات والضجيج.

وقوله: (حتى تنزل بساحتهم): ساحة القوم ما قرب منهم، لا تكن كالجبان تبعد عنهم، بل كن قريبا منهم، ففيه عدم الضعف والقوة مع العزيمة.

(ثم ادعهم إلى الإسلام): قبل أن تقاتلهم لابد من دعوتهم إلى الإسلام؛ فإن النبي ﷺ لم يبعث لجمع المال ولم يبعث للسيطرة ولا للملك، إنما بعث لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، ليس له غرض غير إدخال الناس في الإسلام وإبعادهم عن الشرك.

وهكذا كان سلفنا الصالح من الصحابة رضي الله عنهم في جميع قتالهم، فإن المسلمين لما جاؤوا إلى العراق بعثوا ربعي بن عامر لكسرى فدخل عليه فعرض عليه كسرى بأن يدفعوا إليه شيئا من الأموال، فقال: «قد علمت أنكم في بلادكم جياع، وأنه لا شيء عندكم، ولكن ارجعوا إلى بلادكم، ولكل واحد منكم كذا من الذهب وكذا من الذهب وكذا من الطعام وكذا من الكسوة فارجعوا».

فقال ربعي بن عامر: «أيها الملك لم نأت لطلب المال، فقد كنا معشر العرب متفرقين متشتتين فبعث الله فينا محمدا ﷺ، فأمرنا أن ندعو الناس؛ لنخرجه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلمة الجور والشرك إلى نور التوحيد والهداية»[1]، ولهذا قال الرسول ﷺ لعلي: «ثم ادعهم إلى

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٥١٨)، البداية والنهاية (٩/ ٦٢١).

الإسلام»: قبل كل شيء لابد أن تدعوهم إلى الإسلام، والإسلام هو: حقيقة شهادة (أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، ثم الدعوة تارة تكون بالقتال إذا كان لهم شوكة ومنعة، وتارة تكون بالنصيحة، وتارة تكون بأفعال الداعي وهو أن الداعي يعمل العمل في نفسه حتى يقتدي به غيره من الخير والطاعة، كل هذا من باب الدعوة.

وكثير من أهل المذاهب الباطلة يدعون إلى مذاهبهم بشتى أنواع الدعوة: بالمال تارة وبالقتال أخرى، وبالدعاية وتأليف الكتب تارة، كما هو واقع القاديانية والماسونية والبهائية والشيوعية وأمثالهم، هي مذاهب باطلة، ومع هذا قاموا على قدم وساق يدعون إلى مذهبهم، فما قامت ملة وإن كانت فاسدة إلا بالدعوة إليها، والتشمير عن ساعد الجد في سبيل بيانها، وتحسينها للناس وإن كانت باطلة، وما اندثرت ملة وسقطت بعد قيامها وانهدت بعد ارتفاع أعلامها إلا بسبب ترك الدعوة، حتى مشركي العرب كانوا يدعون إلى باطلهم، قاموا بالدعوة إلى وثنيتهم، من ذلك ما ذكره المؤرخون أن القيصر ملك الروم أراد تنصير جزيرة العرب وأن يبعث إلى مكة من يدعوهم إلى النصرانية بدلا من الوثنية، واختار أفضل القساوسة ممن عنده عقل ودهاء ومعرفة، فبعث إلى ملك العرب النعمان بن المنذر فقال: قد علمت أن العرب عباد أوثان ونريد أن نخرجهم من وثنيتهم إلى ما هو أصلح وأنفع وهو دين المسيح، وقد بعثت إليك فلانا – أحد القساوسة – فساعده وسهل له طريقه.

فحبذ النعمان الفكرة ووعد بالنصرة ومساعدة القس، وجاء القس إلى

النعمان على أنه سيبعث معه من يدخله جزيرة العرب ويدله في البلاد ويذهب به إلى مكة، والقس من أعقل القساوسة ومن دهاتهم، ومن أشد الناس صبرا على شظف العيش وشدة الحر كما هو واقع بلاد العرب، النعمان لا يريد النصرانية في جزيرة العرب أبدا، لكن لا قدرة له على حرب ملك الروم وعلى الامتناع، وإلا فلا يريد النصرانية، ففكر ماذا يعمل في سبيل رد هذا الدين الجديد، فقال لرجل عنده: إذا جاء الغد تأتي وتكلمني بعدما تأتي وفود العرب ويتكامل الناس.

قال: ما أقول؟!

فقال: تكلم في أذني من غير أن يسمعوا.

فلما جاء الصباح وجاءت وفود العرب للنعمان، وجاء القس وجلس بجانبه وتكامل الناس، جاء هذا الشخص وهمس في أذن النعمان قليلا، ثم تغير وجه النعمان، وتنفس الصعداء وتباكى.

فقال له القس: ما الخبر أيها الملك؟!

قال: الخبر عظيم.

قال: ويحك ما الخبر؟!

قال: الخبر عظيم، جاء هذا وأخبرني أن رئيس الملائكة توفي.

قال القس: هذا يكذب، رئيس الملائكة لا يمكن أن يتوفى والملائكة لا يموتون.

قال: بلى قد جاءني وأخبرني.

قال: أبدا هذا كذب.

قال النعمان: لماذا؟! عيسى هو الله أو ابن الله يموت ورئيس الملائكة لا يموت؟! فأسقط في يد القس، وقال القس: لا حيلة فيكم أيها العرب، فرجع إلى قيصر وقال: مهما عملت فلا تستطيع أن تنصر العرب.

رده بهذه الحيلة، كل هذا في سبيل الوثنية، محافظة على دنيه ودين آبائه وأجداده، لما لم يستطع أن يرده بالقوة عمل هذه الخطة فرده، فما من مذهب باطل ولا صحيح إلا وقام بالدعوة، لكن من كان عنده بصيرة وعلم يعرف أن هذا مذهب باطل، أما العوام الذين لا خبر لهم ولا معرفة أتباع كل ناعق، الذين ليس عندهم علم ولا بصيرة، إذا دعي تبع، مذهب صحيح أو غير صحيح، فهم كما قال ابن عقيل الحنبلي حين سئل عن العزلة وقيل له: إن الناس كثر عندهم الشر والفتن والبلاء، فهل الأفضل أن الإنسان يخالطهم أو الأفضل أن الإنسان يلزم بيته ويدع الناس؟

فقال: إن كان من أهل العلم فينبغي أن يخالطهم، ويغشاهم في بيوتهم ويغشونه في بيته وإن كان في وقت فتن وبلوى وشر، أما إن كان من العوام فلا، قيل: وما ذاك؟

قال: لأن العالم مثل ضالة الإبل، في قوله ﷺ: «دَعْهَا فَإِنَّ مَعَهَا حِذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ»[1]، أما العامي فيدخل في المذاهب الباطلة من غير أن يشعر، مثل ضالة الغنم لك أو لأخيك أو للذئب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٤٢٧)، ومسلم في صحيحه (ح:١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

ولهذا نجد في القرآن آيات الدعوة أكثر بكثير من آيات الصوم والحج اللذين هما ركنان من أركان الإسلام، فالحج ليس في القرآن إلا أربع آيات ومثله الصوم، وأما الدعوة فالقرآن مملوء من أوله إلى آخره بآيات الدعوة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى، كلها في الدعوة، مما يدل على عظمها، وأن الدين لا يقوم إلا بالدعوة بذكر محاسنه وفضائله وتنبيه الناس على كل ما يخالفه، وأعظم ما يخالفه هو الشرك بالله، ولهذا قال الرسول ﷺ: «ثم ادعهم إلى الإسلام» الإسلام: هو حقيقة شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، وعرف بعضهم الإسلام بقوله: «الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»[1].

(وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه): إذا دخلوا في الإسلام بأن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأخبرهم بما يجب عليهم؛ يعني: من حقوق الإسلام التي هي الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين إلى غير ذلك من شرائع الإسلام، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لما ارتد من ارتد من العرب: «نقاتلهم»، فقال له عمر رضي الله عنه: نقاتل قوما يشهدون (أن لا إله إلا الله وأن

(١) ينظر: ثلاثة الأصول (مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ١/ ١٨٩).

محمدًا رسول الله) وقد قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

قال أبو بكر: «فإذا قالوها عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، والزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها.

قال عمر: فما رأيت إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[1].

هذا شأن الصحابة، فهم قاتلوا أهل الردة، كما قاتلوا أهل اليمامة، وأهل اليمامة بنو حنيفة يشهدون (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، ويؤذنون ويصلون ويصومون ويحجون ويتصدقون، إلا أنهم يقولون: «إن مسيلمة نبي»، ومع هذا قاتلهم الصحابة، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وكذلك -أيضا- بنو عبيد القداح في مصر كانوا ينصبون القضاة والمفتين ويعملون بالشريعة إلا أنهم أظهروا أشياء مخالفة للدين الإسلامي، وأجمع المسلمون على قتالهم، وصنف ابن الجوزي كتابا سماه: «النصر على مصر»، كل هذا يدل على قتال هؤلاء، وأن مجرد النطق بالشهادتين لا يكفي إلا إذا قام بها نطق بها وعرف مقتضاها وعمل بمعناها ظاهرا وباطنا، فهنا تعصم دمه وماله،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٣٩٩)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

ومما يدل على هذا قصة الرجل الذي كان مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فإنه قال: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء»؛ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، ذهب عوف بن مالك ليخبرن، لكن سبقه القرآن نزل على الرسول ﷺ خبرهم، فجاء الرجل الذي تكلم بهذه الكلمة، وقال: يا رسول الله، والله ما قلتها إلا لنقطع بها عناء الطريق وإنا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥][(١)]، فما نفعته شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، ولا أنه غزا مع المسلمين؛ لأنه تكلم بكلمة صار بها كافرا، قال الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وهم الذين سكتوا ولم ينكروا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

فالحاصل من قول الرسول ﷺ: (فادعهم إلى الإسلام): هو معنى شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) لفظا ومعنى واعتقادا وعملا، وبما لها من المكملات والحقوق؛ ثم إن النبي ﷺ رغب في الآخرة وحذر من الطمع في الدنيا والقتال لأجل الدنيا، فحلف الرسول ﷺ -وهو الصادق ولو لم يحلف- حلف يرغب في الآخرة، قائلا: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)، لا يكن مقصدك الغنائم ولا ما تأخذه من أهل خيبر، وليكن

---

(١) ينظر: جامع البيان (١١/ ٥٤٣).

قصدك إسلامهم وخروجهم من الشرك، ولا يعلق بقلبك ما يحصل لك وللجيش من المغانم، ولذا قال: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)، حلف للتأكيد، وفيه جواز الحلف على الفتيا.

وقوله: (خير لك من حمر النعم)؛ أي: خير لك من كل ناقة حمراء على وجه الأرض، وفيه فضل ثواب من دعا إلى الله، فإذا هدى الله على يديك رجلا ودخل في الإسلام فهو خير لك من الأرض وما في الأرض من ذهب وفضة، بل وخير من أمثال الدنيا عشرات المرات، وإنما خصص النوق الحمر؛ لأنها إذ ذاك أنفس أموال العرب، فإنهم يتنافسون فيها؛ فما عندهم شيء أنفس من النوق الحمر، فهداية رجل على يديك وما يحصل لك من الثواب بسبب ذلك، خير لك من كل ناقة حمراء على وجه الأرض، وذكر النووي أن هذا من باب التقريب للأفهام، وإلا فذرة من ذرات الآخرة خير من الدنيا وأمثال الدنيا[1].

وهنا مسألة – في قصة المستهزئين-: وهي حكم الاستهزاء والانتقاص من العلماء؟

نقول: إن كان الاستهزاء بهم من باب الانتقاص لما حملوه وما انتموا إليه فهذا تكلم عليه النووي في مقدمة «شرح المهذب» في مسألة الاستهزاء، واستدل بحديث: «من عادى لي وليا»[2]، وقال: «من ابتلى بسب العلماء وثلبهم ابتلاه

---

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٥/ ١٧٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله بموت القلب»، وذكر شيئا من هذا، ونقل عن ابن عساكر[١].

أما الاستهزاء باللحية وما أشبهها فالحقيقة أن هذا تشويه للإسلام وحـ على الإسلام، ليس على الشخص الذي استهزئ به، كون الإنسان يتمـ بالسنة جعلوا يرمونه بكبر لحيته وأنه كذا وكذا، هذا يدل على ضعف الإيمـ وأن القلب فيه شيء من الانحراف، هذا الرجل لما تمسك بالسنة، وعمل بقـ الرسول ﷺ: «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللِّحَى»[٢]، جعلوا يتهكمون ويصفون لحيته؛ يعني: من جنس المشركين سواء بسواء، قال تعالى: ﴿ ... الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٠]، لماذا لما تمسك بالسنة تضحك عليه وتغمزه؟! يخشـ على الإنسان من المروق من الدين والعياذ بالله، ليست المسألة بسيطة.

---

(١) ينظر: المجموع شرح المهذب (١/ ٢٩٤) للنووي.

(٢) أخرجه البخاري (ح:٥٨٩٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح:٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله -تعالى-: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾الآية [الزخرف: ٢٦- ٢٧].

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»(١).



---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه، به مرفوعا.

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب:

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

تقدم لنا بيان التوحيد، وبيان فضله، وبيان الخوف من ضده، وبيان الدعوة إليه، وأن كلا منا لابد أن يبين للناس محاسن التوحيد، ويحرص على إنقاذهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، كما تقدم في الباب قبله.

ذكر المصنف هنا تفسير التوحيد الذي هو: شهادة (أن لا إله إلا الله)، فقوله: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)؛ من باب عطف الدال على المدلول، فالمدلول هو التوحيد والذي دل عليه هو شهادة (أن لا إله إلا الله)، والكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو مقتضى هذه الشهادة، والتوحيد ليس معناه -كما يقوله بعض المتكلمين وبعض من لا معرفة له بالتوحيد- يقولون: التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المعطي المدبر لهذا العالم المتصرف فيه، إذا اعترفت بهذا فهذا هو التوحيد، وهذا غلط كبير، فهذا توحيد الربوبية، وقد أقر به المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ، كلهم معترفون أن الله هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يخفض ويرفع، ويعز ويذل، وينفع ويضر، فلا قدرة لأحد على إيجاد نفع أو دفع ضر، كلهم معترفون بهذا، ومع هذا لم يدخلهم هذا في الإسلام؛ لأنهم اتخذوا الوسائط بينهم وبين الله، فبعض مشركي العرب اتخذ الملائكة وسائط بينه وبين الله، وبعضهم جعل الشمس والقمر وسائط بينه وبين الله، والبعض منهم جعل الأنبياء وسائط بينهم وبين الله،

وبعضهم جعل الأحجار والأشجار وسائط بينهم وبين الله، وهؤلاء كلهم كفرهم القرآن، وقاتلهم النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠]، ما داموا أنهم جعلوهم وسائط فهم في الحقيقة أرباب لهم، وبالنسبة للشمس والقمر: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، فالله لم يرض أن يكون بينك وبينه واسطة لا بسجود ولا بدعاء حيث تصرف له شيئا من العبادة التي لا يصلح صرفها إلا لله، والبعض منهم اتخذ الأشجار والأحجار؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ -أي: جائرة- ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وكما في حديث أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع النبي ﷺ ونحن حدثاء عهد بكفر: وهذا اعتذار مما وقع منهم؛ أي: لم نعرف الإسلام حقيقة بل نحن قريبون من الكفر.

«فمررنا وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم»؛ أي: يرجون خيرها وبركتها، فقلنا: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»؛ أي: اجعل لنا سدرة نعلق عليها أسلحتنا ونرجو خيرها وبركتها كما كان أولئك يرجون خيرها وبركتها ويعلقون عليها أسلحتهم، فقال النبي ﷺ:

«الله أكبر إنها السنن»؛ أي: الطرق. «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون»[1]، هم لم يقولوا: اجعل لنا إلها، بل قالوا: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، لكن الرسول ﷺ شبه الطِلْبة بالطلبة، واعتبر المعنى الحقيقة ولم يعتبر اللفظ، الخير عند الله والبركة من الله، تدعوه وتسأله، وأي خير وبركة عند هذه الشجرة؟!

وبهذا تعرف أنهم وإن كانوا قالوا: هذا وسيلة، نحن لا نعبدهم، وإننا لا نريد منهم أنهم ينفعون أو يضرون، وإنما نريد أنهم وسائط بيننا وبين الله؛ لأنهم صلحاء، وهذا من باب الوسيلة.

قل لهم: (وسيلة) أو (صلحاء) أو (قربة) أو (واسطة) مهما قلتم، فقد جعلتموهم أندادا لله وجعلتموهم أربابا من دون الله.

قالوا: لم نجعلهم إلها، بل الإله الرب.

قلنا: هذا الرسول ﷺ شبه الطلبة بالطلبة، والمعنى بالمعنى، وإن اختلف اللفظ.

وهؤلاء المعبودون من الجن أسلموا وبقوا على إسلامهم، وهؤلاء متمسكون بهم يعبدونهم، قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٦- ٥٧] فكيف لا تصنعون مثل صنيعهم.

---

(١) سيأتي تخريجه في موضعه من المتن.

فالذين تعبدونهم من جن أو أنبياء أو ملائكة لا يستطيعون رفع ضرر حل بكم، ولا يستطيعون إيصال النفع إليكم، ولا تحويلكم من حال إلى حال؛ كأن ينقلوا الضرر عنكم إلى غيركم، أو يأتوا إليكم بالنفع، فإنهم لا قدرة لهم، وإذا كانوا عاجزين فكيف ترجونهم وتسألونهم، وتساوونهم برب العالمين؟!

ثم قال: أولئك الذين تزعمون أنهم ينفعونكم ويضرونكم هم بأنفسهم يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة، فأعظم ما يتقرب به العبد إلى الله ويتوسل به: هو الإيمان به والعمل بمقتضى شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، هذا من أعظم ما نتوسل به إلى الله، مع بقية شرائع الإسلام، فصلاتك وسيلة، وتتوسل إلى الله بقراءة القرآن والصلاة والصوم وطلب العلم، إذا كان طلبك للعلم بنية خالصة لم يشبها شيء، تتوسل إلى الله بالدعاء، كل هذا تتوسل به، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، أما عباد القبور فهم يقولون: هم وسائل بيننا وبين الله، ونحن نتوسل بهم ليرفعوا حوائجنا إلى الله؛ لأننا قوم مذنبون وقوم مجرمون، فنحن لا نصل إلى الله، بل لابد لنا من هؤلاء؛ لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله، وهذا هو الخطأ، وقد وقع هذا الشرك، كما قال النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»[(١)]، واللام موطئة للقسم؛ أي: ممهدة للقسم، المعنى: «والله لتتبعن سنن من كان قبلكم»، وجاء في بعض ألفاظ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٤٥٦)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الحديث: «حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْ[نَعُ] ذَلِكَ»[1]، فما وجد في اليهود والنصارى من الفساد لابد وأن يوجد نظيره في هذ[ه] الأمة، وقد وجد من علمائهم من فضل الطاغوت وفضل الشرك وحط علي الإسلام والإيمان، فلابد أن يوجد في هذه الأمة نظير ذلك؛ كما في قوله تعال[ى] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، مدلول هذه الآية في اليهود ولابد أن يوجد نظيره في هذه الأمة.

ومعنى الآية: أن مشركي العرب لما بعث فيهم النبي ﷺ وجعل يأمرهم وينهاهم نابذوه وعادوه، فبعثوا وفدا لعلماء اليهود في المدينة: حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، جاء الوفد إلى هذين العالمين وهما من الأكابر، فقالوا: إنكم أهل علم وأهل كتاب، وبعثنا قومنا إليكم لنسألكم عنا وعن محمد.

فقالوا: ما أنتم وما محمد؟

قالوا: محمد وحده، لم يتبعه إلا سراق الحجيج من غفار ومزينة، ونحن نذبح الإبل، ونطعم الحجاج، ونسقي اللبن، أنحن خير وأهدى سبيلا أم محمد؟

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح:٢٦٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ١٤٦٤٦)، والحاكم (ح:٤٤٤) من حديث عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعا.
عبد الرحمن بن زياد هو ابن أنعم الإفريقي، صالح، عابد، إلا أنه «منكر الحديث» كما قال أحمد، وسئل عنه مرة أخرى فقال: «ليس بشيء». ينظر: سؤالات المروزي (٢٠٤)، الجرح والتعديل (٥/ ١١١١).

فقال الكافران الكاذبان الجاحدان الملعونان: أنتم خير وأهدى سبيلا من محمد! فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[النساء: ٥١- ٥٢][(١)]، المعنى: أنه لابد أن يوجد مثل هؤلاء في هذه الأمة مثل ما وجد في اليهود ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، وهم يعلمون حقيقة أن محمدا رسول الله، لكن جحدوا ذلك حسدا وبغيا.

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

جمعوا بين الرجاء والخوف، فالمؤمن لا يجوز له أن يغلب جانب الرجاء ولا أن يغلب جانب الخوف، إن غلبت جانب الرجاء هلكت ووقعت في الأمن من مكر الله، وإن غلبت جانب الخوف وقعت في القنوط من رحمة الله، وكلا الأمرين حرام، تفعل المناكير وتقول: «الله غفور رحيم» هذا لا يجوز، أو لا تعمل الصالحات؛ لأن الله شديد العقاب؛ هذا لا يجوز، نعم، الله شديد العقاب، والله غفور رحيم.

لا يتغلب على قلبك الرجاء فتقع في الأمن من مكر الله، ولا يتغلب عليه الخوف فتقع في القنوط من رحمة الله، بل فيه الرجاء والخوف مستويان،

---

(١) سيأتي تخريج الخبر عند ذكر الآية في المتن.

كجناحي طائر، فترجو رحمة ربك وتخاف ذنوبك، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] هذا فيمن غلب الرجاء، وقال فيمن غلب الخوف: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

والله جمع بينهما في آيات كثيرة: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فالإنسان لا يجوز له أن يغلب أحد الأمرين، فإنه إن غلب جانب الرجاء هلك، وإن غلب جانب الخوف هلك، بل يخاف ويرجو، يخاف ذنوبه وجرم ما ارتكبه، ويرجو رحمة ربه؛ كما دل عليه قوله -تعالى-: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] جمعوا بين الأمرين، وهذان ركنان من أركان توحيد الألوهية، وأركان توحيد الألوهية هي: الخوف والرجاء والمحبة.

الخوف والرجاء: دل عليهما قوله تعالى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، والمحبة دل عليها مع الرجاء والخوف أول سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]: هذه المحبة، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]: هذا الرجاء، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]: هذا الخوف.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الآية [الزخرف: ٢٦- ٢٧].

إبراهيم تبرأ من جميع المعبودين واستثنى منهم ربه الذي فطره وأوجده.

وقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ تضمنت معنى كلمة الإخلاص.

فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا نفي وهو معنى: (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فيه الإثبات وهو معنى: (إلا الله)، تبرأ من المعبودين كلهم عدا الله -سبحانه-، فهو إلهه ومعبوده، وهذه الكلمة هي مقتضى شهادة: (أن لا إله إلا الله)، وهي دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، فكلهم يتبرأون من جميع ما يعبد من دون الله، ويستثنون من المعبودين ربهم الذي فطرهم وأوجدهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]؛ فإنه اعتزلهم واعتزل معبوديهم من دون الله، ودعا ربه فاعتزلهم بالدعاء، والدعاء هو مخ العبادة، هذه دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إمام الأنبياء وخليل الرحمن.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] يسأل الله أن تبقى هذه الكلمة في ذريته، ولاشك أن كلمة التوحيد باقية في ذريته، وإن كفر من كفر من مشركي العرب وممن كان قبلهم، كما في وقتنا هذا من يعبد القبور، يذبحون وينذرون لها، ويسألونها تفريج الكربات وإغاثة اللهفات، هؤلاء في الحقيقة جعلوهم معبودين من دون الله شاؤوا أم أبوا، وإن زعموا أنهم وسائط، فإنهم صرفوا لهم حق الله.

وليس المراد بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ إثبات أنه تعالى هو الذي خلقني وأوجدني، فهذا شيء أقر به جميع بني آدم، ولا ينكره منهم

إلا من شذ، وإنما المراد إفراد الله بالعبادة، هذا هو المعنى، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة؛ فإن الترجمة: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

﴿أَحۡبَارَهُمۡ ﴾؛ أي: علماءهم، ﴿ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾أي: عبادهم، ﴿ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: جعلوهم أربابا لهم من دون الله، وهذا يسمى شرك الطاعة، حيث يحلون لهم ما حرم الله، ويحرمون عليهم ما أحل الله، هذا هو الشرك بعينه، ويدخل في هذا القوانين الوضعية التي انتشرت في كل مكان، وما زالت كثير من الدول المنتسبة للإسلام تحكم بها في الدماء والسرقات وتحكم بها في الحدود، وتحكم بها في جميع شؤونها بدلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن الآية تنطبق عليهم وهم داخلون في معناها، فيحلون لهم ما حرم الله، ويحرمون عليهم ما أحل الله، والله يقول: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]، فالآية قسمت الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: إما الاستجابة للرسول ﷺ، وإما اتباع الهوى، فهذه القوانين الوضعية داخلة في اتباع الهوى.

ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ ﴾ [القصص: ٥٠]، يعني: لا أحد أضل ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾؛ لأنهم حللوا وحرموا وافتروا وجاءوا بأشياء من قبلهم، فقالوا: «إن الشرع لا يصلح لهذا الوقت»، وما أشبه ذلك، وكل هذا من الأمور الباطلة.

وهنا مسألة وهي: هل يجوز للقاضي أو المفتي أن يأخذ قولا من أقوال أهل العلم فيقضي به أو يفتي به من غير نظر ولا ترجيح، ومن غير معرفة للدليل؟

نقول: لا يجوز ذلك، بل حكى شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع أهل العلم على تحريم الحكم بقول أو وجه لم يعرف له دليل[(١)].

لابد أن يعرف وجهه ودليله، سواء أصاب أو أخطأ إذا كان بذل جهده واستفرغ وسعه في طلب الحق، فهو معذور، أما أن يأخذ هذا القول من غير نظر في الترجيح ومن غير معرفة دليله فهذا لا يجوز إجماعا على ما قاله ابن تيمية، وربما دخل في عموم هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، لكن اختلاف العلماء لا يدخل في هذه الآية، فلو قلت مثلا: نجد العلماء يختلفون في المسائل الفرعية التي أمرها عظيم وشأنها كبير كالصلاة، فهؤلاء يقولون بصحة الصلاة، وهؤلاء يقولون ببطلان الصلاة -مثلا-، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة، فهل ذلك داخل في هذه الآية؟

نقول لك: لا، ما داموا اجتهدوا، وكل منهم له حظ من الأدلة سواء أصاب أو لم يصب، فهؤلاء لا يدخلون؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[(٢)]، وقد صنف ابن تيمية

---

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٥٥)، الفروع (١١/ ١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٧٣٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح:١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

كتابا من أجمل الكتب وهو: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، وقال ما معناه: لا يمكن أن أحدا من أهل العلم يريد مخالفة الرسول ﷺ أبدا، لكن إما أن يكون الحديث لم يبلغه، أو يكون بلغه لكنه عنده غير صحيح، أو يكون صحيحا، لكن لا يدل على هذه المسألة، أو له معارض، أو أنه منسوخ[(١)].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

المعنى: قيل: اتخذوا أندادا يحبونهم مثل محبتهم لله، فهم يحبون الله، لكن يحبون أندادهم ومعبوديهم محبة مماثلة لمحبة الله، فساووهم في المحبة.

قال المصنف: فما ظنك بمن أحب الند أكثر من حبه لله، وما ظنك بمن أحب الند وحده دون محبة الله؟!

والمحبة الطبيعية أنت معذور فيها ولست مكلفا، كمحبة الرجل لماله وأولاده وأهل بيته، هذا ليس داخلا في هذا المعنى، بل قال النبي ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ»[(٢)]، إنما معنى المحبة التي يقع فيها الشرك، هو أن يحب الند كمحبة

---

(١) ينظر: رفع الملام (ص٢١) لابن تيمية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩/ ٣٠٥) (ح:١٢٢٩٣)، والنسائي في سننه (ح:٣٩٣٩) من طريق سلام أبي المنذر، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه، به.

سلام هو: ابن سليمان، صدوق، وقد تابعه جعفر بن سليمان الضبعي كما عند النسائي (٣٩٤٠)، قال الذهبي في الميزان (٢/ ٢٧٧): «إسناده قوي»، وصحح إسناده ابن الملقن (البدر المنير ١/ ٥٠١)، وحسنه الحافظ (التلخيص ٣/ ٢٤٩).

إلا أن حماد بن زيد ومحمد بن عثمان روياه عن ثابت مرسلا عن النبي ﷺ.

قال الدارقطني (العلل ٦/ ٤١): «والمرسل أشبه بالصواب».

الله، كما لو أحب هذا القبر أو المدفون كعبد القادر، وجعله في المحبة نظيرا أو مثيلا لله، فالمحبة هنا: هي المستلزمة للائتمار والإخلاص في العمل له.

لو قال قائل: أنا أحب الله أكثر من حبي لعبد القادر أو البدوي ولا أساويهم بمحبة الله.

نقول: ما عملت له؟

قال: سأذبح للبدوي وأطوف به وأحبه، لكني أحب الله أعظم من حبي له.

نقول: كذبت، ما دام أنك صرفت شيئا من العبادة لهذا، فهذا نظير لله في المحبة؛ لأن من لازم المحبة الائتمار بأمر المحب، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١][(١)].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»[(٢)].

معناه: أن مجرد التلفظ لا يكفي، لابد أن يكفر بجميع ما يعبد من دون الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنف في المسائل: «يا لها من مسألةٍ ما أجلها وأعظمها، ويا له من

---

(١) فلو كنت تحب الله -تعالى- لأطعت أمره وأفردته بالعبادة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه، به مرفوعا.

بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع»؛ لأن المنازع يقول: أنتم تكفرون الناس وهم يقولون: «لا إله إلا الله»؟!

نقول: نعم، الحديث: (وكفر بما يعبد من دون الله)، فإذا قال: «لا إله إلا الله»، ولم يوجد منه ما ينافيها كان ذلك عاصما لماله ودمه وليس لنا إلا الظاهر.

(وحسابه على الله): الله هو الذي يتولى السرائر، وهو العالم بالمخبئات التي في الصدور والضمائر.



(٦) باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقه من صفر، فقال: «ما هذه؟».

قال: من الواهنة.

فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا» رواه أحمد بسند لا بأس به.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا؛ يعني: قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له».

وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا وفي يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].



شرح: باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

ذكر المصنف أولا: التوحيد الذي من أجله خلقت الخليقة، ومن أجله أرسلت الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب، ومن أجله جردت سيوف الجهاد، ومن أجله نصبت الموازين، ومن أجله قام سوق الجنة والنار، وهو: (عبادة الله وحده لا شريك له).

ثم ذكر بعده فضل التوحيد وتحقيقه، ثم الخوف من ضده، ثم ذكر الدعوة إليه، فلابد أن يدعو الإنسان إلى التوحيد ويبين للناس محاسنه، ولا ينقذهم من النار إلا التمسك بالتوحيد.

ثم ذكر تفسير التوحيد الذي هو حقيقة شهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، وأن مجرد النطق بها لا ينفع ولا يؤثر، وأن كثيرا من المنافقين واليهود والنصارى وغيرهم يتكلمون وينطقون بها فلا تنفعهم؛ لأنهم يأتون بما ينقضها ويخالفها، كل هذا قد مر.

ثم بعد ذلك كله جعل يذكر الشرك بنوعيه: الأصغر والأكبر، وأن الشرك شعب، منها: عبادة القبور، والاستنجاد بها، وطلب المدد منها.

ومنها: طلب الملائكة أو الأنبياء أو الأشجار أو الأحجار.

ومنها: الذبح لغير الله، والذبح في مكان يذبح فيه لغير الله.

ومنها: النذر لغير الله.

ومنها: الاستعانة والاستغاثة بغير الله، إلى غير ذلك مما يأتي بيانه.

ومنها هذا الباب: وهو أن الإنسان يربط في عضده خيطا يقول: إنه يمنع من الحمى.

ومثله هذه الحلقة التي جاءت في هذا الوقت يجعلها في العضد؛ لأنها تمنع من الحمى، أو تمنع من الروماتيزم[1] الذي يحصل في الركب، وهي حلقة من نحاس بزعمهم أن لها خاصية تمنع من الروماتيزم، وأنها تمتصه، وغير ذلك من الترهات، كل هذا إما أنه ينافي التوحيد بالكلية، فيكون الإنسان مشركا حلال الدم والمال إلا أن يتوب، وإما أن ينافي كمال التوحيد، وذلك على حسب ما يقع في اعتقاد العبد، فلهذا بدأ المصنف بذكر الشرك؛ لأنك لا تعرف التوحيد إلا إذا عرفت ضده، فكما أنك لا تعرف الوضوء حتى تعرف نواقضه ومفسداته، وكما أنك لا تعرف شروط الصلاة حتى تعرف ما ينافيها ويناقضها، وهكذا تعرف -أيضا- شروط الحج وما يناقضه وما ينافيه، وكذلك المعاملات، تعرف شروط البيع، ثم تعرف محترزاتها، فمن شروط البيع: أن يكون البائع جائز التصرف، فالمجنون ونحوه غير جائز التصرف، فلابد أن تعرف حقيقة المجنون والصبي والمحجور عليه، ولابد أن يكون البيع من مالك، أو من يقوم مقامه، فتعرف أن غير المالك لا يصح تصرفه في ملك غيره بغير إذنه، ولابد أن يكون المبيع مقدورا على تسلميه؛ فبيع الشارد لا يصح، لابد أن تعرف الأضداد، وكذا

---

(١) هو: التهاب يصيب المفاصل.

التوحيد لابد أن تعرف ضده وهو الشرك بأنواعه، كما قيل:

ضدان لما استجمعا حسنا ۞ والضد يظهر حسنه الضد[1]

وكما قال عمر رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[2]، فلابد أن تعرف الشرك لأجل أن يستقر في قلبك التوحيد.

(باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء) بعد نزوله (أو دفعه) قبل أن ينزل؛ يعني: أنه يربط على عضده خيطا يقول: إنه يمنع من الحمى، أو يتخذ على عضده حلقة من حديد بزعمه أنها تمنع الحمى وأن لها خاصية بذلك، كل هذه من الأمور الباطلة، وأي خاصية عند هذه الحديدة؟! هذا من وسائل الشرك وذرائعه، أما لو اعتقد أنها بذاتها هي التي تدفع البلاء وتجلب النفع، فهذا كافر منكر لتوحيد الربوبية، حيث اعتقد أن هذه الحلقة تنفع وتضر.

فإذا قال: أنا لا أعتقد أنها تنفع أو تضر، لكن فيها خاصية تمتص الروماتيزم وما أشبه ذلك.

نقول: هذا من الوسائل، وأي خاصية عند هذه؟!

لو قال: هذا من الأسباب.

نقول: نحن لا ننكر الأسباب، لكن الأسباب على حسب ما جاءت به

(١) ينظر: شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٢٢).
(٢) سبق الكلام على هذا الأثر.

الشريعة، أما أنك تأتينا بوسائل الشرك وتقول: هذا من الأسباب! إذن: تذهب للقبر وتقول: هذا من الأسباب! وتذهب -أيضًا- إلى المكان الفلاني وتقول: إنه ترياق مجرب! وتقول: هو من الأسباب!

الأسباب: ما دل الدليل على إباحته منها فهذا لا بأس، فالله خلق الأسباب ورتب عليها مسبباتها، لهذا عقد المصنف هذا الباب، وكما سيأتي في حديث عمران رضي الله عنه وحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

والصحابة عرفوا أن هذا لا ينفع، فحذيفة لما رأى رجلا علق خيطا قال: «ما هذا؟!».

قال: من الحمى، فقطعه حذيفة وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»[1]؛ يعني: لا جعله الله في دعة، بل حرك عليه كل وجع ومؤذ وبلاء؛ لتعلقه بغير الله، حتى لو قال إنها سبب، كل هذا من الأمور الباطلة، نعم، دعاء الله سبب، والقرآن والأدوية المباحة سبب، أما مثل هذه الأشياء فلا تمت للأسباب بصلة، بل هي من وسائل الشرك.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

---

(١) يأتي تخريجه قريبا.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أرأيتم ما تدعون من دون الله، من اللات والعزى ومناة الذين اتخذتموهم آلهة، تريدون أنها تجلب لكم نفعا أو تدفع عنكم ضررا أو من هو فوقهم وأفضل منهم كالملائكة أو الأنبياء أو الصالحين، فهؤلاء الذين تجعلونهم أسبابا ووسائط بينكم وبين الله لإيجاد نفع أو دفع ضر ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾: إذا أراد الله العباد بمرض أو فقر أو بلاء أو جدب أو قحط فهل تستطيع أن تدفع هذه الضرر؟! أبدا لا تستطيع.

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨]: صحة، عافية، سعة رزق، أمن، هل تستطيع هذه الآلهة إمساك هذه الرحمة وإبقاءها على أن لا تزول؟! لما نزلت هذه الآية على الرسول ﷺ وتلاها على المشركين لم يستطيعوا أن يجيبوا.

ثم قال: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ أي: كافيني الله، فالله هو الذي يكفيك من البلاء والشر والمرض والفقر، والله يعطيك الصحة والرزق والعافية، فهو القادر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فالله إذا أعطانا صحة وعافية فلا قدرة لأحد على إزالتها إلا هو، وما يمسك من ذلك فلا قدرة لأحد على إيجاده وإيصاله للناس إلا هو، الأمور بيد الله، كيف تدعى مثل هذه وتسأل؟! ويقال: إنها من الأسباب الجالبة للنفع أو الدافعة للضرر، بل ذلك كله لله وحده.

وهذه الكلمة: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ﴾ [الزمر: ٣٨] هي كلمة النبي محمد ﷺ وكلمة إبراهيم الخليل عند الشدائد؛ فإن إبراهيم لما ألقي في النار لم يزد على قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] والرسول ﷺ لما قيل له يوم

أحد: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ أي: كافينا الله ونعم الموصول إليه، أمور عباده هو الذي يدبرها، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقد ألف بعض العلماء[1] رسالة على هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، سماها: «السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل»، وذكر ما فيها من الخصائص والفضائل وما تتضمنه من الاعتماد والتوكل على الله -سبحانه-، وأن هذا هو قول الأنبياء؛ كما قال هود لما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قابلوه بهذه المقابلة السيئة، قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]؛ أي: إن نقول إلا اعتراك بعض معبوداتنا بجنون، فأنت مجنون؛ لأنه بزعمهم أن ما يعبدونه بعث الجن أو الجنون وسلب هودا عقله، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤- ٥٦]، فهو عليه السلام لما قال له قومه ما قالوا حينما دعاهم إلى الله وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة الآباء أجابهم بهذه المقالة، وأنه متوكل على الله ومعتمد عليه، وأن آلهتهم لم تصبه بسوء لا بجنون ولا غيره، بل فهموا ما جاء به؛ كما في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية [الأعراف: ٧٠].

وفي الآية: اللجوء إلى الله، فإذا تأملت القرآن والأدعية الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم تجد فيها اللجوء إلى الله عز وجل، واعتقاد أن الله هو الذي يجلب النفع ويدفع الضر

---

(١) وهو أبو الحسن الشاذلي، ورسالته مطبوعة.

كما في حديث سيد الاستغفار: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١)؛ يعني: أقر لك بذنبي وأقر لك بنعمتك علي، وكما في الدعاء المعروف الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ» إلى أن قال: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي»(٢)، شبه قلبه بالأرض والقرآن بالمطر، فالمطر إذا نزل على الأرض أنتجت ونبت العشب والكلأ والخير الكثير مما له روائح طيبة ومما هو نافع، فالقرآن إذا نزل على القلب روى القلب حينئذٍ؛ لأنه بمنزلة الأرض استنتج منه العلوم والإيمان بالله والتعلق به دون من سواه.

كل هذا يدل على أن هذه التعلقات لا أصل لها، مع أننا لا ننكر الأسباب الشرعية التي جاءت بها الشريعة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»(٣)، فلو قال هذا الذي علق الحلقة: هذا من باب التداوي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٣٧١٢) وغيره، وفي إسناده من لا يعرف حاله، ينظر: علل الدارقطني (٥/ ٢٠١)، تعليق الذهبي على المستدرك (١/ ٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (ح:٣٨٧٤) – ومن طريقه البيهقي (١٩٦٨١) – من حديث إسماعيل بن عياش، عن ثعلبة بن مسلم، عن أبي عمران سليمان بن عبد الله الأنصاري، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء به مرفوعا.

وإسناده حسن؛ فإسماعيل إذا روى عن أهل الشام فحديثه محتج به، وثعلبه شامي صدوق، روى عنه جماعة.

نقولك لا، بل هذا من وسائل الشرك وذرائعه، لا من باب التداوي، فالتداوي معروف.

ولو قال -مثلا-: أنا آخذ من تراب هذا القبر من باب التداوي، ومن باب تعاطي الأسباب.

نقول: لا، فالأسباب الجائزة هي ما دل الشرع على إباحته، ولهذا قال الرسول ﷺ: «وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»، فإذا كان قد نهي عن التداوي بالحرام فما ظنك بالتداوي بما هو من وسائل الشرك وذرائعه؟!

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقه من صفر، فقال: «ما هذه؟».

قال: من الواهنة.

فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا» رواه أحمد بسند لا بأس به[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٢٠٠٠٠)، وابن ماجه في سننه (ح:٣٥٣١)، وابن حبان في صحيحه، بلفظ مقارب (ح:٦٠٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (ح:٣٩١) من حديث مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن عمران به مرفوعا.
مبارك فيه لين، وقد تابعه صالح بن رستم عند الحاكم (٤/ ٢٤٠) إلا أن صالحا فيه ضعف -أيضا-، والحسن لم يسمع من عمران كما قال جماعة من النقاد، ينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص٤٠).
أما مبارك فإنه وإن كان مدلسا إلا أن عنعنته الظاهر أنها محتملة منه؛ فإنه قد لازم الحسن بضع عشرة سنة وأكثر عنه، وروايته عنه هي من أقوى حديثه كما قال الإمام أحمد، ينظر: سؤالات المروذي (١٨٢).
=

الحديث فيه فوائد:

أولا: دل على أنه لا يجوز تعليق الأوتار ولا التمائم ولا الودع ولا الحلق لغرض الاستشفاء والتداوي؛ فإن النبي ﷺ أنكر عليه، وفي الرواية الأخرى أن المنكر عليه هو عمران بن حصين نفسه، وأنه هو الذي دخل على النبي ﷺ وفي عضده حلقة فأنكر عليه ﷺ إنكارا شديدا، فدل على أنها لا تغني ولا تنفع.

ثانيا: أخبر أنها لا تزيده إلا وهنا؛ فإن الإنسان إذا اتخذ شيئا لا يجوز فإنه يزيده مرضا على مرضه عقوبة له ونقيضا لقصده، وإن كانت تلك الحلقة لا ضرر فيها ولا نفع، بل وجودها كعدمها، ولكن لما رأى الرسول ﷺ الرجل اتخذها من أجل الواهنة أخبره بأنه لا تزيده إلا وهنا، عقوبة له ونقيضا لقصده، والذي يزيد الوهن هو الله.

ثالثا: (الوهن) هو: عرق يأخذ بمنكب اليد فيحصل شيء من الألم أو الفتور.

= وأما ما جاء في مسند أحمد من تصريح الحسن بسماعه من عمران فغلط من مبارك؛ فإن الإمام أحمد ذكر أن مباركا يروي عن الحسن فيقول: «أخبرنا أبو بكرة... أخبرني عمران...» وأصحاب الحسن لا يقولون ذلك، ينظر: الجرح والتعديل (٨/ ٣٣٩)، الضعفاء للعقيلي (٤/ ٢٢٤).

وقد وقع في الخبر اختلاف، فقد رواه الثقات الأثبات معمر بن راشد ويونس بن عبيد ومنصور بن المعتمر عن الحسن عن عمران موقوفا عليه، رواية معمر في (جامعه ١١/ ٢٠٩)، ورواية يونس ومنصور أخرجها ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٠- ٤١) (٢٣٩٢٦- ٢٣٩٢٧)، وهو الصواب، ويقي الانقطاع بين الحسن وعمران، والله أعلم.

رابعا: فيه دليل على أن الإنسان ينكر إذا رأى المنكر، ويكون الإنكار على حسب المنكر، فالنبي ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ»[(١)]، والرسول ﷺ يستطيع الإنكار بيده ولكن علم أن بإنكاره بلسانه يمتثل المنكر عليه، فإذا كان يمتثل باللسان فلا داعي لليد، ولهذا قال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا».

وقوله: «انزعها» فيه دليل على شدة التخلص منها بقوة، مما يدل على الابتعاد عن التعلق بغير الله.

خامسا: أن الإنسان لا يعذر بالجهل لاسيما في الشرك ووسائله، فهذا عمران ما اتخذها إلا لغرض أنها من الواهنة؛ أي: تنفعه مما به من الواهنة، ومع هذا قال له الرسول ﷺ: «لو مت وهي عليك ما أفلحت»، وإلا فمعلوم أنه لا يمكن أن يخالف عمران النبي ﷺ وهو يعلم، فالإنسان لا يعذر بالجهل، بل لابد أن يسأل ويتعلم، كي لا يقع في الشرك من غير ما يشعر، بل يبحث ويسأل أهل العلم، وينظر هل هذا من الأمور الجائزة أو غير الجائزة؟ فالشرك ووسائله لا يعذر أحد بالجهل فيها؛ لأن المسلمين متفقون على أنها لا تجوزه ولأن القرآن والسنة دلا على المنع من ذلك، وليس هذا من باب الفروع الذي يختلف فيه العلماء ويكون المجتهد فيه إما مصيبا له أجران وإما مخطئا له أجر واحد، هذه عقيدة لا يعذر أحد بتركها؛ لأنه يتعلق بغير الله -سبحانه-، حتى لو قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

«إني أعتقد أن النافع الضار هو الله»، ما دام أنه اتخذ ما هو من وسائل الشرك وذرائعه فهو لا يعذر، وإن زعم أن النافع الضار هو الله.

سادسا: قوله ﷺ: «لو مت وهي عليك ما أفلحت» (الفلاح): هو الفوز والظفر والسعادة، فإذا مات وهو على تلك الحالة انتفى عنه الفوز والظفر والسعادة.

وكل ما يتعلق به الإنسان من غير الله، أو من الأسباب التي لم يجزها الشارع، مثل تعليق الوتد على الدواب أو تعليق التمائم أو تعليق الودع أو تعليق الحلق أو تعليق الخيوط، وما أشبه ذلك، كلها ممنوعة وهي من وسائل الشرك، وإن كانت من الشرك الأصغر إلا أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، أكبر من الزنا، وأكبر من شرب الخمر.

روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده، والإمام أحمد هو: أحمد بن محمد بن هلال، إمام أهل السنة وعالمهم، وهو الذي قال فيه ابن النحاس: «عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشبه فنفاها»[1].

(عن الدنيا ما كان أصبره): لا يلتفت للدنيا وليس عنده شيء منها، ولا يبالي بشيء منها، فمن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»[2] ذكر ما معناه: أن سفينة كانت في البحر غرقت فبقي منها لوح وعليه رجل تقلبه

(١) ينظر: طبقات الحنابلة (١/ ٢٣)، وابن النحاس هو: عيسى بن محمد الرملي، محدث ثقة.
(٢) (ص١٩٠).

الأمواج، قال: «فجاءني رجلان وقالا: إن شئت نجيناك من هذا البحر بشرط أن تبلغ سلامنا أحمد بن حنبل».

فقلت لهما: «نعم أبلغه».

وأنا لا أعرف أحمد، فقال أحدهما: «أنا الملك الموكل بالبحار»، وقال الآخر: «أنا الملك الموكل بالجبال»، فأنقذاه حتى ألقياه على الساحل، قال: «فجئت لأبحث عن أحمد وأخبرت أنه ببغداد، فذهبت إلى بغداد وطرقت عليه الباب فقابلني تلميذه أبو بكر المروذي، فقلت له: «غريب أحمل رسالة لأحمد».

فأذن لي فدخلت، فأخبرته بما قيل لي، وأن الملك الموكل بالبحار والملك الموكل بالجبال أنقذاني بشرط أن أبلغك السلام.

فبكى، وذهب إلى بيته فجاءني من بيته بكسرة رغيف وقال: «هذه بشارتك، والله لا أملك غيرها، ولو كنت أملك غيرها لواسيتك».

هذا معنى: «عن الدنيا ما كان أصبره»، لم يجد إلا كسرة خبزة، هذا شأن الإمام أحمد.

(وبالماضين ما كان أشبهه): كأبي بكر رضي الله عنه؛ فإنه صبر يوم المحنة كما صبر أبو بكر يوم الردة، قال ابن المديني: «أحيا الله هذا الدين برجلين: أبي بكر يوم الردة وأحمد يوم المحنة»[١].

(١) ذكره الخطيب في تأريخه (٥/ ١٨٤).

وقال بعضهم: أبو بكر كان عنده من يساعده من الصحابة، وأما أحمد فليس عنده أحد، وقد مكث في السجن، سنتين وأربعة أشهر، يخرج فيجلد ليقول بخلق القرآن ويحمل له أربعة آلاف كاتب لعله يقول بخلق القرآن ومع هذا يمتنع مع أنه مكره، لكن خشي أن يتناقل الناس أن الإمام أحمد يقول بخلق القرآن فيضل الناس، صبر على الضرب العظيم والمحن، في أيام المأمون والمعتصم والواثق، حتى خفف عنه بسبب رجل من أهل مصيصة اسمه محمد بن عبد الرحمن الأذرمي على ما ذكره المؤرخون، وذلك أنه جاء إلى الواثق فسلم عليه وكان عنده ابن أبي دؤاد الذي يقول بخلق القرآن والذي دعا الناس إلى هذا، وهو رئيس القضاة في وقته، فدخل عليه الرجل، فسلم عليه فقال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين».

فلم يرد عليه!

فقال: بئس الأدب يا أمير المؤمنين، فالله يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، فرد فقال: «يا أمير المؤمنين أريد أن أسأل القاضي أحمد بن أبي دؤاد عندك» -وكان الإمام أحمد في السجن-.

قال له: «نعم».

فقال الرجل: «يا أحمد بن أبي دؤاد، هذا الذي تدعو الناس إليه -وهو القول بخلق القرآن-، هل علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي؟».

قال: «لا، لم يعلموه».

قال: «أعلمتم شيئا لم يعلمه رسول الله ولا الخلفاء الأربعة؟!».

فخجل وقال: «لا، بل علموه».

قال: «هل دعوا الناس إليه؟».

قال: «لا».

قال: «أما وسعكم ما وسعهم؟!».

فانتبه الواثق ودخل واستلقى على سريره وجعل يقول: «أما وسعكم ما وسعهم؟!لا وسع الله على من لم تسعه طريقة محمد ﷺ وأصحابه»، فعند ذلك خفف المحنة عن الإمام أحمد، إلا أنه لم يخرج إلا بعد وفاته حين استخلف المتوكل على الله[1].

قوله: «والشبه فنفاها» بالأدلة الواضحة القاطعة.

وللإمام أحمد أخبار ومناقب كثيرة، وقد ألف العلماء في ترجمته المؤلفات العديدة، وله المصنفات العديدة، ومذهبه هو المذهب الحنبلي، وكاد أن ينقرض ويتلاشى ويذهب مثلما ذهب مذهب ابن جرير ومذهب سفيان الثوري، لكن الذي قام بنصرته وجمع الأدلة له ونشره وجمع الروايات عنه هو القاضي أبو يعلى، فهو الذي قام ببيان مذهب الإمام أحمد ونشره، وأخذه عنه أصحابه، وألف فيه المؤلفات، فمن ذلك الحين انتشر، إلا أن انتشاره لم يكن كالمذاهب الأخرى، الحنفي أو الشافعي، والسبب في ذلك كما قال غير واحد

---

(١) ينظر: تأريخ بغداد (٥/ ٢٣٣)، وتأريخ دمشق (٧١/ ١٢٣).

أن الناس يتمذهبون بمذهب الخلفاء أو الملوك، فالأتراك أحناف، فصار أكثر الناس أحنافا تبعا للدولة التركية، فمذهب الإمام أبي حنيفة هو أوسع المذاهب انتشارا، وكذا مذهب الإمام مالك انتشر في المغرب، وقد ذكر ابن خلدون أن من أسباب انتشاره في المغرب أن أهل المغرب فيهم شيء من البداوة، والحجاز فيهم شيء من البداوة، فتشاكلوا فصاروا يذهبون إلى المدينة فيتعلمون من مذهب الإمام مالك، فتمذهبوا بمذهب الإمام مالك[1].

والإمام الشافعي -أيضًا- له أتباع في العراق ومصر إلا أن مذهبه هو قوله الأخير وهو الذي يطلق عليه عند الشافعية: (القول الجديد)، وهو ما قاله في مصر، والقديم في العراق.

أما الإمام أحمد فإن أتباعه ليسوا بالكثير؛ لأنه لم يكن أحد من الملوك ولا من الخلفاء اعتنق هذا المذهب، وأكثر أتباع الإمام أحمد هم أهل الحديث الذين يعملون به، ولذا تجد مؤلفات الحنابلة لاسيما في الفروع مملوءة بالأدلة بخلاف المذاهب الأخرى، تجدها عبارات مجردة إلا ما كان في الكتب المطولة، انتشر في نجد وعلى قلة في بلاد أخرى كالعراق والشام ومصر، لم ينتشر إلا في البلاد النجدية، ولذا قال ابن بدران في بعض مؤلفاته لما كتب شيئا من الحواشي في كتب الحنابلة: «لولا أهل نجد لما حركت في مذهب أحمد قلما»[2].

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص٥٦٨).

(٢) ينظر: المدخل (ص٤٢٣).

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا؛ يعني: قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»[١].

وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»[٢].

(من تعلق تميمة فلا أتم الله له)، (التميمة): شيء يعلق خوفا من العين، يزعمون أنها تمنع عن العين، وتعلق على الأطفال وعلى غيرهم، كانوا في الجاهلية يفعلون هذا اتقاء العين، فأخبر النبي ﷺ بأن هذا لا يجوز، وأنه من تعلق بمثل هذه التميمة فلا أتم الله له مراده، بل ينعكس عليه أمره، فإن قلت: أليس هذا من الأسباب؟

نقول: الأسباب لا يجوز تعاطيها إلا إذا كانت الشريعة الإسلامية تبيحها كالتداوي بما هو جائز -مثلا-، هذا لا مانع منه، أما تعاطي الأسباب الممنوعة شرعا والتي هي وسائل للشرك فهذا لا يجوز، وكما تقدم أن الاعتماد على الأسباب المباحة شرك، وتركها قدح في الشريعة، فإذا كان هذا في الأسباب المباحة فما ظنك في الأسباب الممنوعة؟ أما إذا اعتقد أن السبب هو المؤثر، فلا شك أن هذا شرك أكبر.

وأما تعليق التمائم من القرآن؛ كما لو كتب آيات قرآنية وأدعية نبوية وخرزها في جلد كما يفعله بعض الناس وعلقها على طفله، وهي خالية من الطلاسم، وخالية من الحروف المقطعة، وخالية من الأسماء المجهولة، بل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٧٤٠٤)، والحاكم في المستدرك (ح: ٧٥٠١)، وغيرهما من حديث خالد بن عبيد، عن مشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر، به مرفوعا.
وإسناده حسن، وخالد ليس بالمشهور.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، باختلاف يسير (ح: ١٧٤٢٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

كلها آيات كالفاتحة وآية الكرسي وما أشبه ذلك، فالعلماء اختلفوا في حكم تعليقها، والصواب المنع حتى ولو كانت التميمة من القرآن، حسما لمادة الشرك وذرائعه، ولئلا يدخل في القرآن ما ليس منه، ولأنه يدخل بهذه التميمة الأمكنة القذرة وأماكن قضاء الحاجة، والقرآن منزه عن هذا.

أما قراءة القرآن على المريض فلا مانع منها، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وإن كان شفاء للقلوب فلا يمنع من أن يكون شفاء للأبدان.

(ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)، (الودعة): شيء يشبه الصدف يخرج من البحر، يعلقونه ويرون أن هذه لها خاصية تدفع العين، وهذا لا يجوز، قال الرسول ﷺ: «ومن تعلق ودعة فلا ودع الله»؛ أي: حرك الله عليه كل مؤذ ومؤلم ولا جعله الله في دعة وهدوء؛ لأنه طلب الشفاء من غير الله وتعلق بغير الله، فلا يجوز استعمال مثل هذه الأشياء، ومثل ذلك الحلقة النحاسية التي يعلقونها الآن ويقولون: إنها تمنع من الروماتيزم، وأن لها خاصية، كل هذا لا أصل له، بل أحيلت تلك الحلقة إلى المختبرات وحتى الآن لم يصلوا إلى شيء، والظاهر أنه ليس فيها شيء بالكلية، وإنما هو تعلق بغير الله.

عليه أن يدعو بالأدعية النبوية، كقوله ﷺ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»[١]، ومثل قوله:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٥٦٧٥)، ومسلم في صحيحه (ح:٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[1]، فالتعلق بالله والالتجاء إلى الله هو الذي ينفع، ويكفي العبد شر كل شيء، أما تعلقه بالخيوط والودع والتمائم والحروف المقطعة والطلسمات، فكل هذا لا أصل له.

وبالنسبة للحروف يستخرجون بها المغيبات، ويقولون: إذا كان قابل هذا زوج أو هذا فرد أو هذا وتر أو هذا كذا فإنه يحدث عليك كذا، مثلا: تحسب اسمك واسم أمك بحروف الجمل، ثم تخصم أو تطرح منه بعدما يجتمع عددا معينا، فإذا بقيت البقية عرف المغيب، مثلا:

في أي برج أنت ولدت؟ في برج الحوت أو في برج الحمل أو الثور أو الدلو؟

ثم يقولون: إنك إذا ولدت في برج الحوت -مثلا- يكون عمرك ستين أو سبعين سنة، ويكون لك من الأولاد كذا ويجري عليك كذا، ويكون بيتك كذا، ويجري عليك من المصائب كذا، وكل هذا من الأمور الباطلة لتعلقهم بغير الله، قال -تعالى-: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ﴾: يبطل كل ما زعموا من تنجيم أو حساب أو حروف مقطعة أو ما أشبه ذلك، وقد ألفوا في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(ح:٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

ذلك مؤلفات كثيرة، ككتاب أبي معشر الفلكي، و«شمس المعارف الكبرى»[١]، وكلها لا أصل لها، تعلقوا بغير الله، إلا أنهم يختلفون في كيفية استخراج المغيبات، كما قال الشاعر[٢]:

لعمرك ما تدري الطوارق ❁ ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

والآخر يقول في الذين يريدون استخراج المغيبات بما يفعلونه من حساب أو تنجيم أو غير ذلك:

أطلاب النجوم أحلتمونا ❁ على علم أرق من الهباء
كنوز الأرض قد خفيت عليكم ❁ فكيف علمتم علم السماء؟!

أي شيء عند هذا الخيط؟! أي مصلحة فيه؟! هل عنده من القدرة ما يدفع عنك العين؟!

هذه الودعة التي يعلقها الإنسان أو هذه التميمة والحروف المقطعة أو الطلسمات، أي خير فيها؟! أي نفع لديها؟!

كلها ليست بشيء، إنما هي خرافات وترهات، ولذا دعا النبي ﷺ على من تعلقها بأن الله لا يتم مراده وأن يعكس عليه أمره، ودعا على من علق الودعة أن يحرك الله عليه كل مؤذ، وألا يجعله في دعة وسكون وهدوء لتعلقه بغير الله.

والمؤمن يعلق قلبه بالله ويوكل جميع أموره إليه، وهذا لا ينافي تعاطي

(١) للبوني، كتاب شعوذة وسحر.

(٢) وهو: طرفة بن العبد، ينظر: جمهرة أشعار العرب (ص٩٣).

الأسباب المباحة من التداوي واتقاء الشر وما أشبه ذلك، كل هذا لا مانع منه، بل جاءت به الشريعة.

وذكر بعض المؤرخين[1] أن الواثق مرض ودعا المنجمين من أنحاء مملكته، وقال: «انظروا في اسمي وطالعوا كم بقي في عمري»، وهم نحو خمسين منجما، وفرقهم بحيث لا يطلع أحد على الآخر، ولا يعلم بما يكتبه الآخر، فجعلوا يحدسون ويكتبون ويحسبون، وكلهم أجمعوا من غير أن يعلم أحد بأحد بأنه بقي من عمر أمير المؤمنين خمسين سنة ففرح وسر، ثم لم يمكث إلا عشرة أيام ومات! الأمور بيد الله، هذا شأن التعلق بغير الله.

ولابن أبي حاتم **دَخَلَ حُذَيْفَةُ عَلَى مَرِيضٍ فَرَأَى فِي عَضُدِهِ سَيْرًا فَقَطَعَهُ أَوِ انْتَزَعَهُ**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦][2].

نزلت الآية في الشرك الأكبر، لكن استدل بها على الشرك الأصغر؛ لأن الرجل لا يعتقد أن الخيط هو المؤثر، وإنما يعتقد أن الخيط سبب، وأنه من الأدوية المباحة، وأن الله هو المؤثر، لكن يستدل بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر.

ومعنى الآية: يؤمنون بوجود الله ويؤمنون بأن الله يخلق ويرزق ويعطي

(١) **ينظر**: تاريخ الطبري (٩/ ١٥١)، الكامل (٦/ ١٠٧).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٠٨) (١٢٠٤٠) من حديث عزرة بن عبد الرحمن الخزاعي، عن حذيفة، وإسناده منقطع.

ويمنع؛ لكنهم يشركون في عبادته، فهم مؤمنون بتوحيد الربوبية ويشركون في توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية هو: أن نوحد الله بأفعاله، وتوحيد الألوهية هو: أن نوحده بأفعالنا، فهؤلاء قد وحدوه في أفعاله إلا أنهم لم يوحدوه بأفعالهم حيث جعلوا لله شريكا، وجعلوا لله وسائط بينهم وبين الله، ففي أفعالهم أشركوا، وأما في أفعال الله فهم موحدون.

والحاصل: أنه لا يجوز لأحد أن يتعلق بغير الله، ولا أن يعتمد على خيط أو حلقة أو ودع أو تميمة أو طلسمات أو تنجيم أو حروف مقطعة أو كتاب من كتب الضلال؛ ككتاب أبي معشر وما أشبه ذلك، فكلها من الأمور الباطلة التي إما أنها تنافي التوحيد بالكلية أو أنها تنافي كماله على التفصيل السابق بيانه، وأن تعاطي الأدوية المباحة والأسباب المباحة لا تمنع منه الشريعة، فما أحسن ما جاءت به الشريعة الإسلامية، ما أحسنها وأنفعها للمتمسك بها دون هذه الخرافات، وهذه الخيوط التي يستعملها كثير من الناس، أو الكتب التي تبحث في هذه المواضيع وتكتب عن هذه الأشياء، وفي كتاب: «حياة الحيوان» للدميري أشياء من هذا في ذكر الخواص، وكلها أو معظمها لا أصل لها.



(٧) باب ما جاء في الرقى والتمائم

في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد وأبو داود[(٢)].

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا: «من تعلق شيئا وكل إليه»، رواه أحمد والترمذي[(٣)].

«التمائم»: شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم: ابن مسعود رضي الله عنه.

و(الرقى): هي التي تسمى (العزائم)، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و(التولة): شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٠٠٥)، ومسلم في صحيحه (ح:٢١١٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٣٦١٥)، وأبو داود في سننه (ح:٣٨٨٣)، وابن ماجه في سننه (ح:٣٥٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١٨٧٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٣٩) (ح: ٢٣٤٧٤)، والترمذي في جامعه (ح:٢٠٧٢).



وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدا بريء منه»(١).

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع(٢).

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن»(٣).



(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٤٢١٠) (ح:١٧٠٠)، وأبو داود في سننه (ح:٣٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح:٢٣٤٧٣).

(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص٣٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٤٢) (ح: ٢٣٤٦٧).

شرح: باب ما جاء في الرقى والتمائم

(الرقى): جمع رقية، وهي: العزائم التي يرقى بها الملدوغ أو المصاب بالعين أو ما أشبه ذلك.

ومقتضى ما جاءت به الشريعة أن الرقى على ثلاثة أقسام:

الأول: قسم محرم، وربما وصل إلى الشرك.

الثاني: قسم جائز لا خلاف فيه.

الثالث: قسم فيه الخلاف بين أهل العلم والصواب المنع منه، ويأتي تفصيل ذلك كله.

في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت[1].

(فأرسل رسولا)، الرسول: هو زيد بن حارثة[2].

قوله: (ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر): الوتر: بفتحتين، المراد به وتر القوس الذي يرمون به، وهذا الوتر يكون من المصارين والكرش يجعلونها بالقوس ويرمون بها الصيد، وبها يقتتلون قبل وجود الأسلحة الحديثة وهي تقتل، فإذا اخلولق الوتر عندهم وارتخى أبدلوه بجديد، وعلقوا هذا الوتر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٠٠٥)، ومسلم في صحيحه (ح:٢١١٥).
(٢) ينظر: الاستذكار (٨/ ٣٩٦)، ولم يقف على تعيينه سبط ابن العجمي في تنبيه المعلم (ص٣٦٣).

القديم على نفائس الخيل ونفائس الإبل، ظنا منهم أنها تمنع العين، فتكون الإبل سليمة وكذلك الخيل، فمنع النبي ﷺ من ذلك، حتى لا يتعلقوا بشيء غير الله.

(إلا قطعت): لابد من إزالتها؛ كل ذلك حسما لمادة الشرك وذرائعه، فربما اعتقدوا أن ذلك الوتر المعلق هو الجالب للخير والسلامة، والمانع من العين، فإذا اعتقدوا هذا فهو شرك أكبر، وإذا اعتقدوا أن الله هو المؤثر، وهو الذي يجلب النفع ويدفع الضرر، ولكن الوتر سبب فهذا محرم؛ لأن الأسباب لا تكون مباحة إلا بإذن الشارع بها، فاتضح من هذا أن ما يجعله بعض السائقين على سيارتهم من أشياء بزعمهم أنها تمنع العين تجب إزالتها بكل حال، وأي نفع عند هذا؟! هذا مما كانت تفعله جاهلية العرب.

الأمور بيد الله، والشيطان يتدرج بهم عندما يعلقون هذه الأشياء إلى أن يعتقدوا أن المعلق هو المؤثر بنفسه، فالنبي ﷺ حسم مادة الشرك وذرائعه، ومنع من وسائله مراعاة للغاية.

والرقية على ثلاثة أقسام:

الأول: الرقى الممنوعة، ومنها ما يعلق من الأوتار أو الخيوط أو ما أشبه ذلك؛ زعما أنها تجلب الخير والبركة وتمنع العين.

الثاني: الرقى من القرآن والسنة، مثل حديث: «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ»[1]، ومثل: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[2]، ومثل: قراءة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الفاتحة؛ كما في حديث أبي سعيد في قصة النفر من الصحابة الذين استضافوا رئيس الحي فلم يضفهم فلدغ، فقالوا: أفيكم من يرقي؟

قالوا: نعم، ولكنا استضفناكم فلم تضيفونا فلا نرقي حتى تجعلوا لنا قطيعا من الغنم، فجعلوا لهم قطيعا من الغنم، فجاء أحدهم فجعل ينفث ويقرأ سورة الفاتحة فكأنما نشط من عقال، وقبضوا الغنم، وقالوا: لا نفعل فيها شيئا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فجاؤوا فأخبروه ﷺ، فقال ﷺ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[(١)]، فهذه من الرقية الجائزة التي لا خلاف فيها.

الثالث: الرقية التي فيها خلاف، وهي أنك ترقي المريض بالقرآن وتكتبه له وتعلقه على عضده، وهي آيات قرآنية وأدعية نبوية لم يكن فيها أي شبهةٍ ولا شرك ولا طلاسم، وهذا النوع أجازه بعض العلماء ومنعها آخرون، مثل ابن مسعود وأصحابه، وهذا هو الصواب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، رواه أحمد وأبو داود[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٥٠٠٧)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٢٠١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٣٦١٥)، وأبو داود في سننه (ح:٣٨٨٣)، وابن ماجه في سننه (ح:٣٥٣٠) من طريق عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله، عن عبد الله، به مرفوعا.

وفيه قصة ذكرها الشارح رحمه الله، وإسناده جيد، وابن أخي زينب قال الحافظ في التقريب (٨٤٩٦): «كأنه صحابي».

لهذا الحديث قصة، وهو أن زينب امرأة ابن مسعود كانت تشتكي عينها وكانت قد علقت خيطا، فقال لها ابن مسعود: ما هذا؟

قالت: هذا خيط رقى لي به فلان اليهودي.

فقال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك.

وكان هذا اليهودي إذا رقى على هذا الخيط سكنت عينها، فأخبرها ابن مسعود بأن الشيطان ينخس في عينها حتى تذهب إلى اليهودي فيقرأ لها، ثم تسكن عينها؛ ذلك لأن اليهودي يتوسل إلى الشيطان.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا اشتكى أحدكم فليقل: أذهب الباس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما»[(١)]، يعني: أنك عندما تحس بشيء لا يجوز لك أن تعلق خيطا ولا وترا ولا جلد غزال ولا أي شيء بزعمك أنه ينفع أو يرد العين، إذ لا نافع ولا ضار إلا الله، وإنما تدعو الله بالأدعية القرآنية والنبوية.

وأخذ الأجرة على الرقية ليس فيه مانع؛ كما في قصة الصحابة التي سبق ذكرها.

والذي أباحه بعض الحنابلة من التمائم ليس هو الذي منع منه ابن مسعود

---

(١) لم أقف على مقدمة الحديث بهذا النص، بل هو عند مسلم في صحيحه (ح:٢١٩١) من قول عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا».

في هذا الحديث، فالذي منع منه ابن مسعود كافة العلماء يمنعون منه؛ لأنها علقت خيطا على عضدها بزعمها أنها تسكن عينها، أما الذي أجازه بعض الحنابلة أن تكتب آيات قرآنية كالفاتحة والكرسي وآخر البقرة وسورة الإخلاص فتجعلها في ورقة ثم تعلقها، هذا الذي يجيزه الحنابلة، فلا الخيط ولا الذي يفعله اليهودي أو الطلاسم يجيزه أحد.

الذي أجازه بعض الحنابلة هو مروي عن بعض الصحابة، وابن مسعود وإبراهيم النخعي يرون المنع، والمانعون يقولون: بدلا من أن تعلق القرآن اقرأ القرآن على المريض، أما التعليق فممنوع لأمور:

أولا: المريض يدخل الأمكنة القذرة وهو حامل للقرآن، والقرآن يجل وينزه عن هذا.

ثانيا: لو فتح هذا الباب لجاء الناس وكتبوا مع القرآن طلاسم وأشياء لا تجوز وأدخلت باسم القرآن، والشريعة جاءت بحسم مواد الشرك وذرائعه.

ثالثا: أنه يخشى أن يعتقد المريض أن الذي يؤثر فيه بالشفاء هذا المعلق دون الله -سبحانه-؛ لأنه لبسه وتعلق به فيظن أنه هو الذي يؤثر، فيقع في الشرك الأكبر.

والمعروف عن أئمة الدعوة الإنكار والمنع من هذا منعا باتا؛ حسما لمواد التعلق بغير الله، وبالإمكان أن يقرأ على المريض كما قرأ الصحابي على اللديغ دون أن يعلق شيئا، وكما كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أن يقولوا:

«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[1]، وكما علمهم في دعاء المريض: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا، وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ»[2]، فالرسول ﷺ أوضح الأدعية التي تقرأ على المريض دون تعليق، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه كانوا يعلق، مع أنه نسب إلى بعضهم الجواز.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»، رواه أحمد والترمذي[3].

قوله: «من تعلق شيئا وكل إليه»؛ أي: أن الإنسان إذا تعلق بشيء، فإن الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٢٣٩٥٧) من مسند فضالة بن عبيد، وفي إسناده من لم يسم. ورواه أبو داود في سننه، واللفظ له (ح:٣٨٩٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٤) من حديث زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب، عن فضالة، عن أبي الدرداء به مرفوعا.
وزيادة منكر الحديث. ينظر: لسان الميزان (٩/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١٨٧٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٣٩) (ح: ٢٣٤٧٤)، والترمذي في جامعه (ح:٢٠٧٢) من حديث ابن أبي ليلى - محمد بن عبد الرحمن-، عن أخيه عيسى بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عكيم به مرفوعا.
قال الترمذي بعد إخراجه: «وحديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ».
فأشار إلى تفرد محمد به -وهو ضعيف من جهة حفظه-، وإلى أن رواية ابن عكيم عن النبي ﷺ مرسلة كما قاله - أيضا- الرازيان، وهاتان علتان، وينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٠١-١٠٤).

يكله إلى هذا الشيء الذي تعلق به، كمن كتب ورقة فيها طلاسم وأشياء واعتمد عليها فالله يكله إليها؛ لأنه لم يفوض أمره إلى الله ولم يعتمد عليه، والله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لقيت وهب بن منبه يطوف بالبيت الحرام فقلت له: حدثني وأوجز بحديثك لعل الله ينفعني بحديثك».

فقال وهب: أوحى الله إلى داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «يا داود لو أن عبدا من عبادي اعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات ومن فيهن والأرضون ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن فرجا ومخرجا».

المعنى: أن الإنسان إذا اعتمد على الله واتكل عليه؛ فلو تكيده السماوات ومن فيهن والأرضون ومن فيهن؛ فلابد أن الله يجعل له فرجا ومخرجا ينجيه من هذه الخليقة كلها ولا تضره؛ لاعتماده على الله.

ثم قال: «وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت الأسباب من بين يديه وأسخت الأرض من تحت قدميه ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك»[١].

أي: إذا اعتصم بمخلوق دون الله، واعتمد على مخلوق دون الله فإنه يضيع ولا ينفعه ذلك المخلوق مهما عظمت حالته وعظم شأنه، فالتوكل على الله والتفويض لله والاعتماد على الله إذا صدر من قلب حي فلا يضره شيء أبدا، فمن يستطيع أن يضرك

(١) ينظر: الفوائد (١/ ٢٤٣) لتمام الرازي.

والله قد تكفل بحفظك ووقايتك؟! ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم: ابن مسعود رضي الله عنه.

و(الرقى): هي التي تسمى (العزائم)، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و(التولة): شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

هو ما يسمى بـ(الصرف والعطف)، تستعمله عجائز البادية ونحوهن، فتعطي المرأة دواء فتسقيه الزوج، ثم إن الزوج يحبها حبا شديدا، كل هذا من التولة وهي من الشرك، ولا يجوز تعاطي مثل هذا، وكما قال ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[1].

وبقيت مسألة: وهي ما يفعله بعض الناس اليوم وهو أنه إذا سحر جاؤوا برصاص وماء وأحموا الرصاص حتى يذوب ثم صبوه على ماء يجعل على رأس المسحور، ويقال: إنه يصور الذي سحره وأن السحر ينفك عنه، هل هذا جائز؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

نقول: هذا ليس بجائز، فكل سبب لم يأذن الله به ولم يدل عليه قرآن ولا سنة لا يجوز، بل هذا من تعاطي السحر، فأي منفعة في هذا الرصاص؟! وكيف يبين صورة الذي سحره؟!

هذا بواسطة الشياطين وهو لا يجوز، وقد منع منه كثير من أئمة الدعوة، وإنما إذا ابتلي الإنسان بشيء من هذا فعليه أن يتداوى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والدعاء المعروف، وكذا الأدوية المباحة لا بأس بها، كما سيأتي أن من الأدوية المباحة، أوراق السدر، كما نقل عن وهب بن منبه رَحِمَهُ الله يتداوى بها المسحور، وهو أنه يأخذ سبع ورقات سدر خضر يدقها ويجعلها في ماء ويقرأ فيها آية السحر التي في سورة يونس[1]، وكذلك يقرأ آية الكرسي وآيات السحر في طه وغيرها، ثم يشرب منه ويصب على رأسه منه ويبرأ -بإذن الله-، هذا لا بأس به؛ لأنه لم يكن فيه تعلق بغير الله.

وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدا بريء منه»[2].

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٢١٠ ٤) (ح:١٧٠)، وأبو داود في سننه (ح:٣٦) من طريق مفضل بن فضالة، عن عياش القتباني، عن شييم بن بيتان، عن شيبان القتباني، عن رويفع، به. وشيبان فيه جهالة، إلا أن النسائي في سننه (ح:٥٠٦٧) رواه من طريق حيوة بن شريح، عن عياش، عن شييم أنه سمع رويفع... الحديث -دون ذكر شيبان-، وهذا إسناده ظاهره الحسن.

(يا رويفع لعل الحياة تطول بك): هذا علم من أعلام النبوة، حيث أخبر بالشيء قبل وقوعه، فقد طالت حياة رويفع وتولى الإمارة في بعض الأراضي المصرية، فإنه توفي في برقة أميرا عليها في خلافة معاوية سنة ست وخمسين، وقيل غير ذلك، وهو -أيضًا- مسن قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة.

(فأخبر الناس): دل هذا على أن من كان عنده علم لابد أن ينشره ويبينه للناس ويحرم عليه كتمانه، ولم يكن هذا خاصا برويفع بل هو عام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، لابد أن يبين ما عنده وأن يخبر الناس بما عنده، واستدل -أيضا- بهذه الآية على قبول خبر الآحاد وهي مسألة أصولية معروف حكمها في محلها.

(من عقد لحيته): يعقد لحيته تكبرا، والمؤمن مأمور بالتواضع وحسن الخلق ومأمور بمخالقة الناس بأحسن الأخلاق وأكملها، ولا يجوز له أن يتكبر في نفسه ولا هيئته كفتل شاربه أو عقد لحيته تعاظما في قلبه، يرى الناس كلهم دونه، بل هو واحد منهم، كما قيل: «ألم يكن أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة» فكيف تتكبر وتتعاظم؟!

(أو تقلد وترا): بمعنى علق على نفسه وترا أو على صبيانه أو دوابه.

(أو استنجى برجيع)؛ يعني: استجمر برجيع أو عظم، والرجيع هو: روث الإبل والغنم والبقر مما هو طاهر، لا يجوز أن يستجمر الإنسان بشيء من ذلك؛

لأنها طعام بهائم إخواننا من الجن، فقد قال النبي ﷺ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ»، قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ»[1]، لذا نهى النبي ﷺ عن الاستجمار بالعظام والأرواث.

وهنا مسألة: حكم الاستجمار بالعظم الذي لم يذكر اسم الله عليه؛ فالرسول ﷺ خص العظم الذي ذكر اسم الله عليه بأنه يعود أوفر ما يكون لحما، ثم نهى عن الاستجمار به، فهل يفهم منه أن الذي لم يذكر اسم الله عليه، لا يكون لهم لحما، فلا يأخذ نفس الحكم في منع الاستجمار به؟

الفقهاء يقولون: لا يجوز الاستجمار بالعظم حتى ولو لم يذكر اسم الله عليه، وعللوا ذلك بقولهم: لما فيه من اللزوجة، فلا ينقي المحل، فالذي ينقي المحل لابد أن يكون فيه شيء من الخشونة.

(فإن محمدا بريء منه): قال النووي: «المعنى: فإن محمدا بريء من فعله»[2].

وأهل السنة والجماعة وسلفنا الصالح على خلاف هذا التفسير، فالذي درج عليه الإمام أحمد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وأمثالهم في أحاديث الوعيد أنها تجري على ظاهرها دون تأويل؛ لأن ذلك أبلغ في الزجر، مثل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٤٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) **ينظر**: المنهاج شرح صحيح مسلم (٢/ ١١١).

حديث: ﷺ «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[1]، لا يقال: «ليس من أهل سنتنا»، أو «ليس من أهل طريقتنا»، وحديث: «ليس منا من تكهن أو تكهن له أو تطير أو تطير له»[2]، لا ينبغي أن يقال: «أي: ليس على هدينا ولا طريقتنا» بل تجرى على ظاهرها؛ لأن ذلك أبلغ في الزجر، هذا رأي الإمام أحمد وكثير من سلف هذه الأمة.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع[3].

سعيد بن جبير هو: أحد الأئمة والمفسرين، روى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتله الحجاج ظلما.

(من قطع تميمة كان كعدل رقبة): قالوا: هذا له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا مجال للرأي ولا مسرح للعقول فيه؛ أي: إذا قطعتها مزيلا لها من إنسان علقها فلك من الأجر والفضل كما لو أعتقت عبدا، ومعلوم أن من أعتق عبدا أعتق الله به بكل عضو عضوا من النار، هذا يدل على فضيلة العتق، والقاطع لهذه التميمة يحصل له من الأجر والثواب مثل من أعتق عبدا وحرره من الرق.

(رواه وكيع): وكيع هذا هو: أبو محمد، وكيع بن الجراح، شيخ الشافعي،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يأتي تخريجه في موضعه من المتن.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح:٢٣٤٧٣)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو من مشاهير الضعفاء.

وهو الذي يقول الإمام الشافعي فيه[١]:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ❁ فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ❁ ونور الله لا يهدى لعاصي

أي: أن العلم لا يؤتاه في الغالب العصاة، وإن أتوه فلا ينتفعون به؛ لأنه نور يضي القلب وينوره، وهو إيمان تخالط بشاشته القلوب، فالعلم النافع يؤثر على الإنسان في سلوكه وأخلاقه وعبادته واستقامته.

ووكيع، ترجم له عدد من الأئمة، وذكر الحافظ الذهبي أنه كان كثير اللحم، فقيل له: «يا أبا سفيان، نراك كثير اللحم والشحم ضخما، وما هكذا أجسام أهل العلم، -فإن أجسام أهل العلم تكون نحيفة- فما هذا؟!».

قال: «يا ابن أخي، هذا من شدة فرحي بالإسلام»[٢].

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن»[٣].

(وله)؛ أي: وكيع، عن إبراهيم النخعي.

---

(١) ينظر: ديوان الإمام الشافعي (ص٦١).
(٢) ينظر: تأريخ الإسلام (٤/ ١٢٣٠).
(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص٣٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٤٢) (ح: ٢٣٤٦٧) من طريق هشام بن بشير، عن مغيرة بن مقسم، عن إبراهيم النخعي، وإسناده صحيح.

(كانوا)؛ أي: أصحاب ابن مسعود وغيرهم من السلف.

(يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن)؛ أي: يحرمون التمائم، فالكراهة إذا أطلقت عند السلف يراد بها التحريم، وأما عند الخلف فيراد بها التنزيه، فإذا قال المتأخرون من الفقهاء: يكره، فهي كراهة تنزيه؛ أي: لو فعلها لا حرج عليه إلا أن الأولى تركها، وأما عند السلف فهم يستعملون الكراهة في التحريم، فيعبرون عما يحرم بقولهم: (يكره)، وهذا معنى قول إبراهيم: (كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن...).

والقرآن دل على إطلاق المكروه على الحرام، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ ثم بعد هذا قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعد هذا كله قال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٠- ٣٨]، فقوله: ﴿مَكْرُوهًا ﴾؛ يعني: محرما، فاستفدنا من هذا: أن الكراهة في القرآن وعند السلف تطلق على التحريم، وأنه يحرم ارتكاب هذه المنهيات وإن عبر عنها بالكراهة.

(من القرآن وغير القرآن)؛ أي: لا يجوز تعليق تميمة من القرآن وغير القرآن، للمحاذير الثلاثة التي تقدم بيانها.



(٨) باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ الآية [النجم: ١٩].

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السنن، قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه(١).



(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٢١٨٩٧)، والترمذي في جامعه (ح:٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (ح:١١١٢١).

شرح: باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

أو مغارة أو مكان أو قبر يرجو من ذلك الخير ودفع الضرر، هذا كفر بالله؛ لأنه جعل تلك الشجرة أو ذلك الحجر شريكا لله، يذبح له وينذر له ويطلب منه المدد، وهذا يدل على سخافة عقول مشركي العرب.

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ الآيات [النجم: ١٩].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أضرت أو نفعت؟!

أما اللات فهي صخرة بني عليها بيت وجعلت عليها أشجار كانت ثقيف في الطائف تعبدها ومن كان بقربها من قبائل العرب، يذبحون لها وينذرون لها، يرجون نفعها وبركتها ظنا منهم أنها تجلب النفع وتدفع الضرر، وما هي إلا صخرة، وأي نفع عند الصخرة؟! لكن سلب الله عقولهم، سميت بـ (اللات)؛ اشتقاقا من اسم (الإله) كما قال الأعمش: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز»[1].

والقول الآخر: أن رجلا كان يلت السويق عند تلك الصخرة، فإذا مروا به أطعمهم، فلما مات أسفوا عليه وتذكروا ما كان عليه من الخير، فعظموا تلك الصخرة التي كان يلت السويق عليها، وبنوا عليها البناية وجعلوا عليها الأستار، فكانوا يعبدونها من دون الله، ولما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا؛ اشترط عليهم إقامة الصلوات وهدم اللات، فأبوا فكف يده، ثم وافقوا على

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٦٥).

هدم اللات، وطلبوا منه أن يمهلهم شهرا، فقال ﷺ: «ولا ساعة واحدة»، مما يدل على أن أمكنة الشرك إذا قدر عليها فلا يجوز إقرارها ولا ساعة واحدة، طلبوا مدة شهر، قالوا: مخافة أن تفتتن النساء والسفهاء والصبيان، بعث لها المغيرة بن شعبة لهدمها، وكان المغيرة عنده شيء من المرح، فلما جاء لهدمها، اجتمعوا لينظروا ماذا يفعل بالمغيرة؟! ظنوا أنها تفتك نفسها، وأنها ستؤثر على المغيرة بحيث لا يستطيع هدمها، فلما ضربها بالمعول اندفع على قفاه، فضحكوا وفرحوا، ظنوا أنها دفعته، ثم قام وهدمها ولم يصبه شيء[1].

هذا يدل على أن أمكنة الكفر إذا قدر عليها لا يجوز إبقاؤها ولا ساعة واحدة كما فعل النبي ﷺ.

(العزى): شجرة سمر، وقيل: ثلاث سمرات يعلقون عليها الستور ويتبركون بها، وكانت لقريش في مكة ومن التحق بهم من قبائل العرب، ولما فتح النبي ﷺ مكة كان أول شيء بدأ به أن بعث خالد بن الوليد لهدمها، فذهب خالد فقطعها وهدم ما عليها، ثم رجع للرسول ﷺ فأخبره، فقال: «لم تصنع شيئا، ارجع فاهدمها»، فرجع فلما أقبل رأى امرأة ناشرة شعرها وهي تولول، والسدنة ذهبوا إلى الجبال، فشملها بالسيف فقتلها، ثم جاء وأخبر النبي ﷺ فقال: «تلك العزى ولا عزى بعد اليوم»[2].

اشتقوا (العزى) من اسم (العزيز)، تعظيما لها، وكانوا ينذرون لها

---

(١) **ينظر**: مغازي الواقدي (٣/ ٩٧٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٥٤٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (ح:١١٤٨٣) وإسناده حسن.

ويعظمونها ويتبركون بها ويعلقون عليها رجاء خيرها وبركتها.

والوثن الثالث هو: (مناة)، وكان بالمشلل عند قديد، فبعث النبي ﷺ إليه من يهدمه، وسميت (مناة) لكثرة ما يمنى عندها من الدماء؛ أي: يهراق، وقيل: سموا (مناة) من (المنان)، وهي لبني هلال وبني كنانة والأوس والخزرج يعبدونها ويذبحون لها، هذه الثلاثة هي أعظم الأوثان المعبودة في الحجاز في ذلك الوقت، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩- ٢١]؛ لأن هذه الثلاثة: اللات، والعزى، ومناة، كلها أسماء إناث، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢]؛ أي: جائرة، عادلة عن الحق.

وهناك أوثان كبيرة في غير الحجاز، مثل صنم كبير يسمى: (ذو الكعبات) كان لأهل نجد، يأتونه فيطوفون ويستغيثون به، وكذلك: (ذو الخلصة) لأهل بيشة ومن قاربهم من العرب، هذه الأوثان المعبودة إذ ذاك، والنبي ﷺ بعثه الله لهدم الشرك وإزالته، وليدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يقطعوا العلائق عن جميع الخلائق ويتصلوا بالخالق، هذا محض التوحيد.

وعندما تقرأ في كتب القوم الذين ضل سعيهم عن الخير وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ تجدهم يعظمون ما دون ذلك، فهذا النبهاني له كتاب سماه: «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»، ذكر فيه أشياء غريبة وعجائب، منها أن فلانا كانت عنده بقرة وكانت مباركة وكان لبنها كثيرا وماتت، فدفنها وصنع عليها قبة، وصاروا يسألونها؛ لتشفع لهم عند الله، وترفع حوائجهم إلى الله! إلى هذه الدرجة!

ثم أخذ تكلم عن الوهابية وعن ابن تيمية؛ لأنهم خالفوا هذا ولم يقروه، والقوم لهم أشياء كثيرة من هذا النوع.

وعن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السَّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي وصححه[(١)].

(أبو واقد): هو من مسلمة الفتح، وهم: الذين لم يسلموا إلا بعد أن فتح الله مكة على رسوله ﷺ، ومعلوم أنه ﷺ حينما فتح مكة في رمضان خرج إلى الطائف[(٢)].

(ونحن حدثاء عهد بكفر): قدم هذا اعتذارا منه لما وقع منهم، حيث لم يتمكن التوحيد من قلوبهم.

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح:٢٠٧٦٣)، والحميدي في مسنده (ح:٨٧١)، والطيالسي في مسنده (ح:١٤٤٣)، وأحمد في مسنده (ح:٢١٨٩٧)، والترمذي في جامعه (ح:٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (ح:١١١٢١) من طرق عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد، وإسناده صحيح.

(٢) قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله (الاستيعاب ٤/ ١٧٧٤): «قيل: إنه شهد بدرا مع النبي ﷺ، وكان قديم الإسلام، وكان معه لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، وقيل: إنه من مسلمة الفتح، والأول أصح وأكثر».

قال المصنف: «فيه أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة».

(وللمشركين سدرة يعكفون عندها): العكوف هو: البقاء واللبث، كما قال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]؛ أي: مقيمون، فهم يقيمون عند السدرة رجاء خيرها وبركتها.

(وينوطون بها أسلحتهم): يعلقون عليها أسلحتهم رجاء خيرها وبركتها.

(يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط)؛ أي: لو أذنت لنا بهذه السدرة الخضراء أن نعلق عليها أسلحتنا رجاء خيرها وبركتها، كما للمشركين مثل ذلك، فعند ذلك غضب الرسول ﷺ وقال: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السَّنَنُ»؛ أي: إنها الطرق، فهو أراد أن يعلمهم، واقترن التعليم بالغضب؛ ليكون أوقع في نفس السامع، لاسيما إذا انتهكت محارم الله، وأعظم محارم الله، الشرك.

(قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ): هذه عادته ﷺ، فهو كثيرا ما يحلف، وهو الصادق ﷺ لو لم يحلف.

(كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾): شبه الطِلْبة بالطلبة، والحكم بالحكم، مع أنهم لم يقولوا: (اجعل لنا إلها)، إنما قالوا: (اجعل لنا ذات أنواط)، لكنه ﷺ اعتبر المعاني والحقائق ولم يعتبر الألفاظ والأسماء؛ مما يدل على أن من الشرك الأكبر: أن تعتقد أن هذه النخلة

أو الحجر أو الشجر تجلب لك خيرا وتعطيك البركة، وأن فيها نفعا أو دفع ضر، هذا لا يجوز.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨- ١٤٠] هذا جواب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عندما قالوا له هذا المقالة.

(لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)؛ أي: لابد أن يوجد فيكم مثل ما وجد في اليهود والنصارى سواء بسواء، لابد أن يتخذ قوم منكم الأشجار والقبور إلها، ولكنكم تسمونها توسلا أو شفعاء أو واسطة، ولكن الطلبة كالطلبة، والحكم كالحكم، هذا يدل على أن من ذبح لغير الله أو تقرب إليه فقد جعله مثل الله سواء بسواء، وكان السلف - رحمهم الله- يحذرون من هذا، ويحرصون على قطع كل ما يتعلق به العامة.

يقول: «أنا لا أشرك، وإنما أتبرك بالصالحين، وهذه الأشجار أنا أتبرك بها، فهي أشجار مطيعة لله ليست عاصية، وهذا رجل صالح أتبرك بعرقه -مثلا-».

نقول: هل اطلعت على ما في قلبه، هل هو رجل صالح؟! لا يطلع على ما في القلوب إلا الله، وهل تجزم أن يختم له بالصلاح؟!

أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، فهل كان الصحابة يتبركون بفضل وضوء أبي بكر؟! ويتبركون بعرقه؟! ويأخذون لباسه يستشفون به للمرضى؟! فدل على أن هذا من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمور:



أولا: أن أي صالح لا يصل إلى درجة النبوة.

ثانيا: أن القلوب لا يعلم ما فيها إلا الله، فلا ندري هل هذا الرجل صالح حقا؟! -وإن ظهر لنا من حاله أنه صالح-.

ثالثا: لو كان صالحا لا ندري بماذا يختم له.

رابعا: أن التبرك به فيه فتنة له.

خامسا: لم يكن الصحابة الذين هم أعلم الناس يفعلون هذا مع فضلائهم وصلحائهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فدل على أن هذا من خصائصه -صلوات الله وسلامه عليه-.



(٩) باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ**» رواه مسلم.(١)

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب».

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟!

قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقرب.

قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٩٧٨).

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عَزَّوَجَلَّ، فضربوا عنقه فدخل الجنة»

رواه أحمد.[1]



(١) أخرجه أحمد في الزهد (ح:٨٤).

شرح: باب ما جاء في الذبح لغير الله

كأن يذبح للجن ليمنع إيذاءهم له، فلا يصلون إليه، هذا شرك بالله مناف للتوحيد، وأي ذبيحة تذبح لغير الله فهي حرام، لا يجوز أكلها، وهي شرك، قال -تعالى-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: ما ذبح لغير الله، فلو ذبح إنسان تعظيما للسلطان عند مقدمه فذبيحته لا تؤكل -وإن ذكر اسم الله عليها-، وهل هي شرك أو لا؟

إن قصد بها التعظيم فلاشك أنها شرك، وقد أفتى علماء بخارى بتحريم أكلها، والأدلة على أن الذبح عبادة كثيرة.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

الآية صريحة في أن الذبح لله، والصلاة لله، فلو صلى لغير الله صار بذلك كافرا، فكذلك متى ذبح لغير الله صار كافرا.

وفي هذا الآية جمع بين العبادتين عبادة بدنية، وهي: الصلاة، وعبادة مالية، وهي: الذبح، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ هذه عبادة بدنية، ﴿وَنُسُكِي﴾ هذه عبادة مالية، كأن المعنى أن بدنك ومالك وما يصدر منك من الأقوال والأفعال كلها لله، وذلك لأن الصلاة جمعت بين نوعي الدعاء كما تقدمت الإشارة إليه، ونوعا الدعاء هما: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، وكلا النوعين عبادة لله، فالصلاة منذ ترفع يديك عند تكبيرة الإحرام قائلا: «الله أكبر، سبحانك اللهم وبحمدك..»



إلى نهايتها واختتامها بقولك: «السلام عليكم ورحمة الله»، هذا كله قد تضمن نوعي الدعاء، دعاء العبادة مثل: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك»، ومثل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، «سبحان ربي العظيم» في الركوع، «سبحان ربي الأعلى» في السجود، والتشهد: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله...»، إلى غير ذلك.

وأما دعاء المسألة فمثل قولك: «رب اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني»، وما أشبه ذلك.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: وما أنا عليه في الحياة، ﴿وَمَمَاتِي﴾: وما أنا عليه في الممات. ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾؛ أي: لا أجعل مع الله شريكا في ذلك كله، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، قد تقول: إن الآية تدل على أن الرسول ﷺ أول المسلمين، ومعلوم أنه قد سبقه أنبياء ومسلمون، كما في قصة موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]؟

نقول: هذا صحيح، ولكن قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ يعني: من هذه الأمة؛ فإن كل نبي يتقدم إسلامه على إسلام أمته، فأول من يسلم من الأمم هم الأنبياء، هذا معنى الآية، وليس المراد أنه أول المسلمين من هذه الخليقة.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

أي: أن المسلم يجب أن تكون أفعاله وأقواله لله ولأجل الله، هذه الآية

مثل الآية التي سبقتها وهو أنه سبحانه وتعالى جمع فيها بين العبادتين: العبادة البدنية التي هي: (الصلاة)، والمالية التي هي: (الذبح)، وما في معنى الذبح كالصدقة وغيرها.

وقد اجتمعت هاتان العبادتان: المالية والبدنية في الخليل إبراهيم عليه السلام، وامتاز بأمر ثالث استحق به الخلقة، بذل ماله للضيفان، وبدنه بذله لله، فكسر الأصنام حتى ألقي في النار، ثم أمر بذبح ولده وفلذة كبده ليسلم قلبه لله ولا يكون فيه شركة لما سواه، فعند ذلك بادر وعزم على قتل ابنه؛ امتثالا لأمر الله حتى أدركته رحمة أرحم الراحمين، كما في قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[الصافات: ١٠٤-١٠٦].

ومن الذبح لغير الله: الذبح للجن، إذا كان الإنسان يريد أن يسكن بيتا كما كانت تفعله بعض جاهلية العرب، وكان يفعل في مكة فعندما يريدون أن يسكنوا دارا يذبحون للجن من أجل ألا يؤذوهم وألا يتعرضوا لصبيانهم بشيء، وهذا من الذبح لغير الله، والله حرم هذه الذبيحة، فلا يجوز أكلها؛ لأنها مما أهل لغير الله به.

وكذلك -أيضًا- ما يفعله بعض المشعوذين الدجالين عندما يؤتى إليه بالمريض يقول: «اذبح تيسا أسودا»، أو «خروفا أدهما».

كل هذا لا يجوز أكله، وهو داخل في الذبح لغير الله، والذابح -والحالة هذه- إذا ذبح تقربا للمذبوح له من أجل أن يدفع ضرره أو يجلب نفعه فهو مشرك شركا أكبر، وكذا الذبح عند قدوم السلطان تعظيما له لا من باب الإكرام

لا يجوز بكل حال، وإن ذكر الشارح عن بعض العلماء أنه إذا ذبح لقدوم السلطان من باب الاستبشار والفرح بقدومه أنه لا بأس به-، نقول: لا شك أن هذا وسيلة للشرك، فالأولى حسم المادة[1]، وما كان وسيلة فإنه يمنع[2].

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ» رواه مسلم[3].

قوله: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» في الحديث الآخر: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ»[4]، فيكون البادئ هو المتسبب، كما لو لعن إنسانا فقال: «لعنة الله على أمك»، فقال له: «ولعن الله أمك»، فالواقع أن

---

(١) أي: ذبحه بقصد الذبح المحض، فهي تذبح ولا تؤكل، وليس ضيافته وإكراما له، هذا هو مراد الشيخ في المنع، ومن المعلوم من حال الشيخ رحمه الله أنه كريم مضياف، يدخل بيته الكبراء ومن دونهم، ويكرمهم ويذبح لهم - قال ابنه الشيخ صالح-.

(٢) الحاصل من كلام الشيخ أن الذبح للسلطان ونحوه على ثلاثة أحوال:

الأولى: تقربا له وتعظيما، وهو شرك ظاهر.

الثاني: لإكرامه، وهو جائز، -وهذان القسمان لا إشكال فيهما-.

الثالث: فرحا واستبشارا بقدومه، فيقصد الذبح لا الإكرام، وهذا مختلف فيه، قال الشيخ سليمان بن عبد الله في التيسير (١/ ٤٢٤) الجواز عن بعض أهل العلم، واختار الشارح الشيخ عبد الله المنع حسما للمادة، وسدا للذريعة، والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٩٧٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح:٥٩٧٣)، ومسلم في صحيحه (ح:٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

البادئ هو الذي لعن أمه وإن لم يباشر ذلك باللفظ، ولكن هو المتسبب، فهذا حال المتسبب أنه: ملعون، فما ظنك بمن يباشر لعن أبيه أو لعن أمه؟! وهما السبب في وجوده، والله قد قرن حق الوالدين مع حقه في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]: احتراما لهما وتعظيما لحقوقهما.

وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فكيف يتسبب الرجل بلعن أبيه أو أمه؟!

جاء اللعن في هذا الحديث ونظائره من الأحاديث، مثل: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ»(١)، وحديث: «لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا»(٢)، اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن الرحمة.

(لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا): معناه: أن الرجل يرتكب جناية، فيكون بها مجرما، سواء كانت جناية مالية أو بدنية على معصوم، أو بدعية في الدين، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٧٨٣)، ومسلم في صحيحه (ح:١٦٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣/ ٤٦٢) (ح:٢٠٦٩) من حديث محمد بن أبي حميد، عن أبي توبة المصري، عن ابن عمر، به.
وفي بعض ألفاظه نكارة، ومحمد سيء الحفظ، والمصري لا يكاد يعرف.
وأخرجه أحمد في مسنده (ح:٥٧١٦) من حديث فليح - وهو: ابن سلمان، عن سعيد بن عبد الرحمن بن وائل الأنصاري، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، به مرفوعا.
سعيد مجهول، وفليح متكلم فيه من قبل حفظه (لسان الميزان) (٩/ ٣٤)، وبوب البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥٨): (باب ما يُكره من لعن شارب الخمر).

يلتجئ إلى من يجيره من ذلك، فالذي أجاره ملعون على لسان الرسول ﷺ، كما لو ارتكب إنسان حدا كالزنا وثبت عليه، أو شرب الخمر وثبت شربه للخمر، أو سرق وأريد لإقامة الحد عليه ثم ذهب إلى سلطان فمنع إقامة الحد عليه، أو التجأ إلى من يجيره من ذلك، فهذا الذي أجاره قد آوى محدثا! بمعنى: ضمه إليه ومنع إقامة الحد عليه، فهو ملعون على لسان النبي ﷺ، وقد جاء في الحديث الآخر: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع»(١).

فمتى ثبت عليه الحد ووصل السلطان، ثم ذهب رجل إلى السلطان يطلب منه أن يعفو عن هذا المحدود فسمح وتركه من أجله، فالشافع والسلطان ملعونان على لسان النبي ﷺ.

فالإنسان إذا ارتكب جريمة وفعل ما يوجب الحد فلابد من إقامة الحد عليه، وأي إنسان يسعى لإسقاط الحد الشرعي بعد وصوله السلطان هو متعرض إلى لعنة الله وغضبه وسخطه.

«لعن الله من غير منار الأرض»: (المنار) هي: المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك، فتغييرها بتقديم أو تأخير لا يجوز؛ ومن فعل ذلك فهو

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير باختلاف يسير (ح:١٥٨) من حديث أبي غزية محمد بن موسى المدني، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه أن الزبير... فذكره مرفوعا وفيه قصة،
إسناده ضعيف، تفرد به أبو غزية، وهو ضعيف الحديث، ومالك في الموطأ باختلاف يسير (ح:٣٠٨٧) موقوفا على الزبير، إلا أنه منقطع.

ملعون؛ كما في الحديث: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(١)]، وقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»[(٢)]، وقال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[(٣)]، فجعل المال قرينا للدم في الحرمة.

وقيل: معنى (المنار): العلامات التي في الطرق، يهتدي بها المسافرون، فيأتي إنسان فينقلها من مكان إلى مكان يضل المسافر بذلك، وقد قال هذا القول طائفة من العلماء، والأول هو المعروف، ولكن كلا الأمرين لا يجوز.

واستفدنا من الحديث: جواز لعن أهل المعاصي على سبيل العموم: «لعن الله من ذبح لغير الله»، ولم يعين، «لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض»، «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده عليها»[(٤)]، «لعن الله آكل الربا وموكله»[(٥)].

أما حكم لعن المعين: زيد أو خالد أو عمرو تعرف أنه يشرب الخمر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٤٥٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح:١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٠٥)، ومسلم في صحيحه (ح:١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٥٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

-مثلا-، هل يجوز أن تقول: «لعنة الله عليه»؟

ابن الجوزي جوزه[1]، لكن الصواب المنع؛ لأنك لا تدري ماذا يختم له، ولا تدري ما عاقبته، فلا ينبغي لعنه، وقد جيء إلى النبي ﷺ برجل يشرب الخمر وقد تعدد المجيء به إليه، فقال رجل: «اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟»، فقال الرسول ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[2]، هذا يدل على أن لعن الشخص بعينه لا ينبغي؛ لأنه ربما تاب ورجع، واللعن -كما ذكرنا- هو: الطرد والإبعاد عن مواقع الرحمة، فأنت تدعو عليه بأن يطرده الله ويبعده عن مواقع الرحمة، هذا لا ينبغي، بل ادع الله له بالهداية، ولا ينبغي أن تدعو عليه، وهذا ما اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام وغيرهم[3]، وأما لعن أهل المعاصي على سبيل العموم دون تعيين شخص بعينه، فلا مانع؛ كما كان النبي ﷺ يلعنهم في هذا الحديث وغيره، فالذين يأكلون الربا ويتعاملون بها لاشك أنهم معرضون لسخط الله، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩] ومن يستطيع أن يحارب الله ورسوله؟!

ولم يأت هذا في عقوبة الزنا ولا عقوبة الخمر؛ مما يدل على عظم ذنب الربا وقبحه.

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية (١/ ٣٤٥) لابن مفلح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) ينظر: منهاج السنة (٤/ ٥٦٩)، والآداب الشرعية (١/ ٣٤٥).

قال ابن دقيق العيد: «إن أكلة الربا مجرب لهم سوء الخاتمة»[1].

فالغالب أن من تعاطى الربا لا يختم له بخير، في الغالب أنه يموت على شر؛ لأن دمه ولحمه نبت على سحت، فحري ألا يوفق ولا يختم له بخير.

والربا محرم بالكتاب والسنة والإجماع، ثم لاحظ عقوبة آكل الربا في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، كالمصروع كلما قام سقط، يعرفه أهل الموقف بأكله من الربا، لكن يا للأسف! يا للمصيبة! كثر الربا، والنبي ﷺ ذكر أن في آخر الزمان: «مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ، نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ»[2]، وأظن أن الحديث ينطبق على كل أحد اليوم، لا أحد يسلم، لو لم تأكل لابد أن يأتيك من غباره؛ لأن الإنسان اجتماعي، ربما يضيفك إنسان على قهوة، وهو يأكل الربا، شربت قهوته وما تدري عن حاله، أو تأكل طعامه، لابد أن الإنسان يصيبه من غباره، كما أخبر النبي ﷺ، وهذا كناية عن فشو الربا وانتشاره في آخر الزمان، ثم للأسف أن هناك من يدعي العلم وجعل يحاول إباحة الربا الذي هو محرم بالكتاب والسنة والإجماع، يقول: «إنه جائز إذا كانت الفوائد من أجل التنمية والتجارة»!

---

(١) **ينظر**: فيض القدير (١/ ١٥٣) للمناوي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١٠٤١٠)، وأبو داود في سننه (ح:٣٣٣١) من طريق عباد بن راشد، عن سعيد بن أبي خيرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
عباد ضعيف، وسعيد مجهول، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد تابع عبادا داود بن أبي هند كما عند أبي داود في سننه(ح:١٣٣٣) والنسائي في سننه (ح:٤٤٥٥)، وابن ماجه في سننه(ح:٢٢٧٨)، فبقيت علتان: الجهالة والانقطاع.

لا بأس أن تأخذ -مثلا- ألفا عن ألف ونصف، أو مئة ألف على أنك تسلمها مئة وعشرة آلاف، إذا لم تأكلها، وإنما أقمت بها مصنعا -مثلا-، كل هذا باطل، ومن التعاليم الفاسدة، فالله -سبحانه وبحمده- حرم الربا، وهذا هو ربا الجاهلية، وهؤلاء جاؤوا بأشياء لا دليل لها، ولكن كما قال الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]!

يقولون: «الربا يجوز؛ لأجل مصلحة الفقير»، إذا كنت أنت صاحب مال وجاءك الفقير يريد أن يأخذ منك ألفا بألف ومئة إلى السنة المقبلة، فلا يجوز، وإذا كان غنيا تعطيه الآن ألفا ويعطي إياها ألفا ومئة يفتح بها مشروعا فهذا لا بأس به، هذا تفريق بين المتماثلين، هذا الذي يقوله كثير من العصريين، لكن هذا كله لا أصل له، هل القرآن فرق بين هذا وهذا؟! هل الرسول ﷺ فرق بين هذا وهذا؟!

الله حرم الربا من حيث هو، وحث على الإقراض، وحث على الصدقة، ورغب في الإنفاق والإحسان إلى الناس، وبعد هذا كله ذكر تحريم الربا، فتحريم الربا جاء في آيات البقرة بعد قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، يحث على الإنفاق في سبيل الله، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]: تتصدق على الفقير وتحسن إليه ولا تؤذيه ولا تمن عليه بأنك أعطيته، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ثم

بعدها قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ثم قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ثم بعدها قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ثم قال بعد هذا: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، كل هذا قطعا لدابر الربا، ثم بعد هذا كله قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لا تعط أي إنسان بطلب الفائدة، بل أعطه لله، والله يعوضك خيرا.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب».

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟!

قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقرب.

قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد[1].

(مر رجلان على قوم لهم صنم): (الصنم) هو: ما نحت على صورة وعبد من دون الله، و(الوثن) أعم، فهو: كل ما عبد من دون الله، فكل صنم وثن وليس كل وثن صنما.

(لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب): اعتذر اعتذارا، فقبلوا منه مجرد العمل الظاهر فقالوا: (قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا) إذ من المعلوم أنهم لا حاجة لهم في هذا الذباب، ولا خير فيه، بل هو حيوان مستقذر خسيس، ولكن أرادوا بذلك أن يعرفوا باطنه، هذا قصدهم، وإلا الذباب لا يؤكل، ولا ينتفع فيه بشيء.

فلما قرب ذلك الذباب إلى صنمهم (دخل النار)، فدل على أن الشرك لا يغفر.

وأما الآخر فمع أنهم لم يطلبوا منه إلا طلبة حقيرة، (قالوا: قرب ولو ذبابا)، قال: (ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل).

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد، باختلاف يسير (ح:٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه، باختلاف يسير (١٧/ ٥٣٧) (ح: ٣٣٠٣٨) من حديث طارق بن شهاب، عن سلمان رضي الله عنه موقوفا عليه، وإسناده قوي.
وقد تبع المصنف في حكاية رفعه ابن القيم في الداء والدواء (ص٧٦).

فيه: عظم الشرك بالله، وكون هذا الرجل بذل نفسه لله، وصبر على القتل، في حين أنهم لم يطلبوا إلا ذبابا.

وفيه: أن المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان هو: عمل القلب، فيستدلون بالظاهر على الباطن.

(فضربوا عنقه فدخل الجنة): دل على أن الإنسان يقي دينه وتوحيده حتى بنفسه.

لو قال قائل: هذا الذي قرب ذبابا، ألم يدخل في حد المكره؟ قرب الذباب وقاية لنفسه، والله يقول: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فما الجواب؟

يتحصل لنا ثلاثة أجوبة:

الأول: أن هذا شرع من قبلنا، فإنه لا يعذر في شرعهم بالإكراه، أما في شرعنا فالله أباح النطق بالكفر للمكره الذي قلبه مطمئن بالإيمان.

الثاني: أن الإكراه إنما هو لمن اطمئن قلبه بالإيمان، فالله يقول: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وهذا أصبح قلبه غير مطمئن بالإيمان، بل مطمئنا بما قرب، هذا الجواب الثاني.

وهذا هو الظاهر أن الرجل قلبه غير مطمئن بالإيمان؛ لأنه استمر على تقريبه، ولم يبال، وإلا لو تاب ورجع فالله يتوب عليه.

الثالث: أن الإكراه يقبل إذا كان بالقول، أما بالفعل فلا، وهذا فعل، والله



يقول: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ ﴾؛ هذا يتعلق بالقول وهو الذي يعذر فيه بالإكراه، أما الفعل فلا.

والظاهر أن المكره معذور، سواء أكره على قول أو فعل، خلافا لمن فرق[1].

قال المصنف: (رواه أحمد): الإمام أحمد لم يخرجه في (المسند)، والإطلاق عند المحدثين إذا قيل: «رواه أحمد» ينصرف إلى المسند، فإذا كان قد رواه في «الزهد»، أو في «السنة» أو في غيرها من كتبه فإنه يقال: «رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد» أو «في كتاب السنة» لكن المصنف تابع ابن القيم؛ لأن ابن القيم نقل هذا الحديث بهذا السياق عازيا له بقوله: «رواه الإمام أحمد»[2].



(١) يؤيد الجواب الثاني أن الذي قرب لم يمتنع من أصل التقريب وإنما اعتذر بأنه لا يجد ما يقربه، أما الآخر فأبى أصل التقريب ولو كان معه ما يقربه، والله أعلم.

(٢) ينظر: الداء والدواء (ص٧٦).

(١٠) باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟».

قالوا: لا.

قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟».

قالوا: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما[١].



(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح:٣٣١٣)، وأصله عند البخاري في صحيحه (ح:٦٠٤٧)، ومسلم في صحيحه (ح:١١٠).

شرح: باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

معنى هذه الترجمة: أن المكان إذا كان معدا للذبح فيه لغير الله، أو أن فيه صنما يذبح له، أو موضعا يجتمع فيه المشركون ويعظمونه أو يقيمون فيه أعيادهم، فلا يجوز لك أن تخصصه بالعبادة، وأن تنذر لله بأن تذبح في هذا المكان المعين حتى ولو كانت نيتك خالصة وقصدك صحيحا لا يجوز لك ذلك؛ لوجود المشابهة الظاهرة للمشركين، فالمسلم ممنوع من هذا؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]، وذلك لأن المتشابهة في الأعمال الظاهرة مؤذنة بالمشابهة في الأعمال الباطنة.

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

أول الآية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧- ١٠٨]، سبب نزول هذه الآيات على ما قاله جمع من المفسرين[2] هو: أن رجلا يقول له: (أبو عامر الراهب) كان مشهورا بالمدينة، ويسمى (الراهب) لكثرة عبادته، ولما جاء النبي ﷺ للمدينة وانتشر الإسلام

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (٤/ ٩٤) للبغوي، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٤٦) لابن كثير.

شرق بالدعوة، ونابذ الرسول ﷺ، فعند ذلك سافر إلى الشام وجعل يكاتب المنافقين بالمدينة، ويعدهم بأنه سيأتي بجنود من الروم لاستئصال النبي ﷺ وأصحابه، وكانت الروم تساعده، فعند ذلك أمرهم أن يبنوا محلا يعسكر فيه، وقد سماه النبي ﷺ: «أبا عامر الفاسق»[1]، بنوا مسجدا وقصدهم في هذا المسجد ليس لله، وإنما قصدهم أنه إذا جاء أبو عامر الفاسق يعسكرون فيه ويقومون بالحملة ضد الرسول ﷺ وأصحابه، فيخرجونه من المدينة، ولما تكامل بناؤه جاءوا إلى الرسول ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، إنا بنينا هذا المسجد للصلاة فيه، وليقيم فيه أهل العلة ولليلة الشاتية، فصل لنا فيه»، وكانت العادة إذا رأى الناس مسجدا صلى فيه الرسول ﷺ حرصوا على الصلاة فيه، كما في قصة عتبان بن مالك رضي الله عنه؛ فإنه كان ضرير البصر، لا يستطيع الوصول للمسجد للعذر الذي قام به، فأراد أن يتخذ مسجدا في بيته يصلي بقومه، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يصلي في بيته، فجاءه النبي ﷺ وقال: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ لَكَ مِنْ بَيْتِكَ؟»، فأشار إلى مكان فصلى فيه النبي ﷺ واتخذه عتبان مسجدا[2]، فهؤلاء المنافقون جاءوا إلى الرسول ﷺ يطلبون أن يصلي في مسجدهم، والرسول ﷺ لم يعلم بما عندهم، وكان ذلك عند سفره إلى تبوك، فقال ﷺ: «إِنِّي عَلَى جناح سفر وَحَال شغل وَلَو قدمنَا إِن شَاءَ الله لَأَتَيْتُكُمْ فصلينا لكم فِيهِ»[3]، ثم سافر إلى تبوك وأقام بها نحو عشرين يوما، ثم لما رجع ولم يبق بينه وبين المسجد إلا

---

(١) **ينظر**: علل ابن أبي حاتم (٦/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٢٤)، ومسلم في صحيحه (ح:٣٣).

(٣) **ينظر**: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري (٢/ ١٠١) للزيلعي.

مسيرة يوم أو بعض يوم، نزل عليه خبر المسجد: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ [التوبة: ١٠٧- ١٠٨]، فعرف أن هذا هو مسجد الضرار، وما بني لأهل العلة في الليلة الشاتية ولأهل الأعذار، وإنما يريدون بهذا المسجد أن من حارب الله ورسوله ﷺ، -وهو: أبو عامر الفاسق ومن يأتي معه - يبقون فيه لأجل تفريق المؤمنين وإخراجهم من المدينة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ حلفوا أنهم لا يريدون إلا الخير، ولكن الله شهد بأنهم كذبة فجرة، بنوه لأجل هؤلاء الكفرة الذين سيأتي بهم أبو عامر الفاسق، ولما نزل على الرسول ﷺ خبر المسجد بعث إليه من يهدمه، فهدم ونهى النبي ﷺ عن الصلاة فيه أبدا.

وجه مطابقة الآية للترجمة: أن المسجد بني لمعصية الله، وبني للإضرار بالمؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله، فصار الموضع موضع معصية، ومعدا للمعصية، لذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيه، فاستفدنا من ذلك: أن كل موضع هيء وأعد للمعصية فلا تنبغي العبادة فيه، واستفدنا أن الطاعة تؤثر في الأرض وكذا المعصية.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ هو مسجد قباء، أسس على طاعة الله ورسوله ﷺ، ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ بني ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾، قال بعض العلماء: إن المسجد الذي أسس

على التقوى هو مسجد النبي ﷺ، وقيل: هو مسجد قباء، ولكن لا منافاة بين الأمرين؛ فإذا كان مسجد قباء أسس على التقوى فلأن يكون مسجد الرسول ﷺ أسس على التقوى من باب أولى.

وذلك أن بني عمرو بن عوف كانوا إذا توضئوا يستنجون بالماء فأثنى الله عليهم، فقال لهم النبي ﷺ: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله به عليكم؟» فأخبروه بأنهم يتبعون الحجارة الماء، قال: «فذاك فالزموه»(١).

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: إثبات صفة المحبة لله -تعالى-، خلافا للأشاعرة الذين ينكرون إثبات المحبة لله، ويقولون: إن المحبة هي: الرضا أو الإثابة؛ أي: أن الله يحب المطهرين بمعنى: أن الله يثيب المطهرين ويؤتيهم الأجور، ولكن أهل السنة والجماعة يثبتون لله ما أثبته لنفسه إثباتا يليق بجلاله حقيقة على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، لا نحرف، ولا نكيف، ولا نمثل، ولا نشبه، بل نثبتها كما أثبتها الله لنفسه، وننزه الله عن مشابهة خلقه، لا نقول: كيف المحبة؟ كيف السمع؟ كيف

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، بنحوه (ح:١٥٤٨٥)، والطبري في جامع البيان، بنحوه (١١/ ٦٩٠)، وابن خزيمة في صحيحه، بنحوه (ح:٨٣)، والحاكم في المستدرك، بنحوه (ح: ٥٥٥)، من طريق أبي أويس عبد الله المدني، عن شرحبيل بن سعد، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، به مرفوعا.

أبو أويس فيه كلام من جهة حفظه، وشرحبيل ضعيف وفي سماعه من عويم نظر كما قال ابن حجر في «التهذيب» (٢/ ١٥٨)، وقد جاء الخبر من مسند أبي أمامة وابن عباس وأنس وجابر رضي الله عنهم وجميعها لا تخلو من ضعف.

البصر؟ بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وكيف ننزه الله عن شيء أثبته لنفسه؟! هذا غلط، الله أخبر أنه يحب المطهرين، ويحب التوابين، ويحب المحسنين، ويحب المتقين، فكيف ننفي ذلك عنه؟!

ولا ننكر أن من لازم إثبات المحبة: الإثابة، لكن لا نفسرها بالإثابة، وإنما نقول: الإثابة من نتائجها.

والرحمة نثبتها له ومن ثمرتها: الإنعام، لكن لا نفسر الرحمة بالإنعام.

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟».

قالوا: لا.

قال: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟».

قالوا: لا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح:٣٣١٣)، وأصله عند البخاري في صحيحه (ح:٦٠٤٧)، ومسلم في صحيحه (ح:١١٠)، والحديث قواه شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٤٣٧)، وصححه ابن عبد الهادي في الصارم (ص٣٠٩)، وابن حجر في البلوغ (ص٤٦٨ «١٢٨٦»).

(العيد): اسم لما يعود ويتكرر مجيئه، سواء كان العود في السنة أو الشهر أو الأسبوع، يوم معلوم عندهم في السنة يجتمع فيه الكفار ويتناشدون فيه الأشعار، أو يذبحون، أو يقيمون فيه شيئا من شعائرهم.

(وإسناده على شرطهما)؛ أي: على شرط البخاري ومسلم.



(١١) باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله -تعالى-: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[١].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٦٩٦).

شرح: باب من الشرك النذر لغير الله

النذر لغة: الإيجاب، وذلك أن الناذر يوجب في ذمته ما لم يكن واجبا عليه قبل ذلك، والنذر إذا كان لله فهو على خمسة أقسام:

القسم الأول: نذر مباح، ويكون الناذر مخيرا بين فعله وبين كفارة اليمين، مثاله: لو قال: «لله علي أن أشتري هذه الدار»، أو: «لله علي أن أشتري هذا البشت»[1]، أو: «لله علي أن ألبس هذا الثوب»، هذا ليس بطاعة، بل هو مباح، إن شاء لبس الثوب وإن شاء تركه، إن شاء اشترى الدار أو تركها، وعليه عند عدم فعله: كفارة يمين؛ لأن النذر هنا بمنزلة اليمين، كأنه قال: «والله لألبسن هذا الثوب»، «والله لأشترين هذه الدار».

القسم الثاني: نذر مكروه، وحكمه أنه يستحب ألا يفعله وأن يكفر عنه، مثاله: لو نذر إنسان فقال: «لله علي أن أطلق زوجتي إذا لم يكن كذا وكذا»، فتحقق ما نذر عليه، فالمستحب له أن يكفر كفارة يمين ولا شيء عليه، وإن شاء فعل المكروه، والتكفير أفضل.

القسم الثالث: نذر اللجاج والغضب، وهو أن الإنسان في حالة الغضب واللجاج ينذر أن يضرب فلانا، وهذا ينبغي أن يكفر ولا يفعل ما نذر عليه.

القسم الرابع: نذر معصية، كقوله: «لله علي أن أقتل فلانا»، أو: «لله علي

(١) عباءة يلبسها الرجل.

أن أشرب الخمر»، أو: «لله علي أن أزني بفلانة»، وهذا حرام لا يجوز الوفاء به؛ لأنه معصية، لكن هل عليه كفارة يمين؟

فيه خلاف بين العلماء، والمعروف أن عليه الكفارة؛ لحديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»(١).

القسم الخامس: نذر التبرر، وهو: الذي أريد به البر والطاعة، وهذا يجب الوفاء به، وهو المقصود في هذا الباب، كما لو قال: «إذا شفى الله ولدي من هذا المرض فلله علي أن أتصدق بألف ريال»، وشفي الولد فيلزمه أن يتصدق بألف ريال، وليس فيه كفارة، أو قال: «إن سلم الله مالي الغائب فلله علي أن أذبح شاة»، يلزمه إن سلم ماله أن يوفي بنذره؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»(٢)، وهذا خاص بالفقراء، والنذر من حيث هو لا ينبغي، وقد جاء في الحديث: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»(٣)، فالذي قدره الله من موت أو شيء لابد أن يقع، لكن النذر والوفاء به هو عبادة لله، فصرفه حينئذ لغير الله شرك، والدليل على أنه عبادة قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

وقول الله -تعالى-: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧].

---

(١) يأتي تخريجه قريبا.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) رواه البخاري في صحيحه (ح:٦٦٠٨)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح:١٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾؛ أي: طويلا، فالله مدح الموفين بالنذر.

ووجه الدلالة من الآية على أن النذر عبادة: هو أن الله مدحهم على الوفاء بنذورهم، إذ لو كان مباحا لم يمدحهم الله عليه، وإنما مدحهم الله لأداء واجب أو لفعل مستحب، أو ترك محرم أو مكروه، وكما تدل عليه الآية من وجه آخر وهو أنه سبحانه قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، والخوف من ذلك اليوم عبادة؛ فالمؤمن مطلوب منه أن يخاف الله، وأن يخاف مما سيؤول إليه أمره(١).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

دل على أن النذر عبادة؛ لأن الإنسان إذا أنفق نفقة يريد بها وجه الله فهي عبادة، حتى إن سعدا رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما ينفقه على أهله، فقال: «حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك تؤجر عليها»(٢).

وإذا ثبت أن النذر عبادة فالنذر للقبور أو للمشايخ أو للأنبياء هو صرف للعبادة لهم، كما لو نذر أن يذبح للرسول صلى الله عليه وسلم متقربا، أو نذر -مثلا- دراهم لقبر أحمد البدوي لأجل إيجاد الكهرباء على قبره، أو لتحلية قبره بالذهب، أو للبناء أو الترميم، أو للسادن، هذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، فالله أمر ألا يكون النذر إلا له،

(١) أي: لما كان الخوف من ذلك اليوم عبادة وقرن بالوفاء بالنذر دل بدلالة الاقتران على أن الوفاء بالنذر عبادة.

(٢) سبق تخريجه.

وكثير ممن طغى عليهم الشرك وافتتنوا بعبادة القبور جعلوا ينذرون ويذبحون لها مريدين التقرب بذلك إليها، وما أكثر هذا في البلاد المنتسبة للإسلام، وقد ذكر صاحب المنار: (محمد رشيد رضا) في مجلته كتابا نشره، وجهه إليه شخص يقال له: (سيف الدين اليماني)، كان بينه وبين المنار مكاتبات، وكان في سنغافورة، كتب كتابا حاصله: أنه تكلم عن حالة الإسلام في الجزر الهندية وسنغافورة والشرق الأقصى وهل عندهم إسلام؟!؛ لأنهم كانوا يهتمون بالإسلام في أول هذا القرن، ومن جملة ما ذكر أنه قال: جئت جزيرة من جزر الهند وكانت في وسط بحر، دخلت تلك الجزيرة وإذا فيها قبر والناس يطوفون حوله وينذرون له وعندهم سادن، فدخلت لأنظر إلى هذا القبر وماذا يفعل الناس؟! فأقبل إلي السادن ومعه شيء من الزيت يريد أن يرش به ثيابي للبركة فصحت به بأعلى صوتي: «لا توسخ ثيابي»، فقال: أنت وهابي؟!

فقلت: «نعم أنا وهابي».

فامتاز الوهابية بعدم النذر للقبور حتى في الجزر الهندية التي لم يصل إليها أحد! هذا شأن الكثير افتتنوا بالقبور وعبادة القبور والنذر للقبور[1].

ويقولون في كتبهم عندما يريدون عبادة صاحب القبر: «إن هذا الميت رجل صالح، وإذا وجهت إليه روحك بقلب حي؛ فإن روحه تقابل روحك، ثم هو يشع على قلبك بالأنوار التي تنبعث من روحه كالمرآة التي تعكس ضوء الشمس وتدخله!».

---

(١) ينظر: مجلة المنار (٢/ ٤٢٥).

تعاليم فاسدة، من أين لكم هذا؟! هل هذا معقول؟! هل دل عليه كتاب؟! هل دلت عليه سنة؟! هل دل عليه قول صحابي؟!

لا ينفع القلوب إلا الإقبال على الله -سبحانه-، كما في الدعاء المعروف الذي رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ وفيه: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي»(١)، هذا هو الذي ينفع القلب، لا روح هذا الميت، ومعنى: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي»: أن القرآن بمنزلة المطر، وقلبك بمنزلة الأرض، فالمطر إذا وقع على الأرض أنبتت وجاءت بأنواع الثمار الجميلة النافعة، فالقرآن إذا حل في قلبك أنتج الإيمان وأنتج الخوف من الله وعظمة الله والإقبال عليه، واستنار قلبك وذهب همك وجلى حزنك.

أما هذه الخرافة -وهي من آراء الفارابي- فقد فتنوا بها لهذه العبارات الخلابة التي لا دليل عليها، ولا تمت إلى الشريعة بصلة، هل مثل هذا يبيح صرف العبادة لغير الله؟!

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:٣٧١٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح:٢٩٩٣٠)، والبزار في مسنده (ح:١٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه (ح:٩٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (ح:١٠٣٥٢)، والبيهقي في «الدعوات» (ح:١٨٤) من طريق أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن بن مسعود، عن أبيه، عن جده به مرفوعا.
أبو سلمة لا يكاد يعرف، وليس هو موسى الجهني، ينظر: علل الدارقطني (٢/ ٤٠٣)، لسان الميزان (٩/ ٨٤).

ينذرون للأموات، ويبنون على القبور، ويزخرفونها؛ رجاء خيرها وبركة هذا الميت وشفاعته.

نقول: أنتم عكستم القضية، وخالفتم الشريعة الإسلامية، فالشفاعة ليست عند هذا الميت، بل هي عند الله، نحن الأحياء الذين نشفع لهذا الميت، ألا ترى أنه إذا مات قمنا نصلي عليه منتظمين صفوفا خلف إمامنا، نقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ»(١)، وقد قال النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم»: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(٢)، مع أننا نقول: الصالحون يشفعون، والأنبياء يشفعون، نحن لا ننكر الشفاعة، لكن لا نطلبها منهم، حتى الرسول ﷺ لا نطلب الشفاعة منه، بل نطلبها من الله، فنقول: «اللهم شفع فينا نبيك، اللهم لا تحرمنا شفاعته»، ولا نقول: «يا رسول الله اشفع لنا».

والأفراط -أيضًا- يشفعون، ولا نطلب من الفرط أن يشفع، ولا من الصالح أن يشفع، بل ذلك من الله، ألا ترى أنا إذا قمنا نصلي على الطفل قلنا في دعائنا: «اللهم اجعله ذخرا لوالديه، وفرطا لهما إلى الجنة وشفيعا مجابا»(٣)، الفرط: أي: المقدم، ونطلب من الله أن يكون هذا الفرط شفيعا لوالديه، ولا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) روى البيهقي (٤/ ١٥) نحوه عن أبي هريرة موقوفًا، وعلق البخاري (٢/ ٨٩) نحوه عن الحسن.

نقول للفرط: «أيها الفرط اشفع لوالديك»، بل الشفاعة ملك لله، لكن الله يكرم الصالح بأن يقبل شفاعته فيمن استحق النار أن لا يدخلها، أو فيمن لم يدخل الجنة أن يدخلها، أو من دخلها أن يزاد ثوابه فيها.

فالنذر للقبور والذبح لها والبناء عليها وسؤالها المدد وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، كل هذا ينافي التوحيد الذي من أجله بعثت الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب، ومن أجله جردت سيوف الجهاد، ومن أجله وقعت الواقعة وحقت الحاقة.

والله -سبحانه- يقول: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، نكرة في سياق النهي فتعم أي أحد: نبي أو ولي أو غيرهما، لا يجوز أن ندعو مع الله أحدا، فالدعاء عبادة، كذلك لا يجوز أن ننذر لأحد غير الله، فالنذر عبادة، والذبح عبادة، ولكن يا للأسف كثير من المنتسبين للإسلام افتتنوا بهذه القبور، بل وألفوا المؤلفات في ذلك، فقد ألف المفيد بن النعمان كتابا سماه: «حج المشاهد»، فجعل للمشاهد منسكا![1]، فحينما تذهب تزور الحسين أو علي بن أبي طالب، كيف تطوف؟! وكيف تسجد؟! وكيف تتقرب إليه؟! هذا من دعاة الشرك المنافي للتوحيد، ولكن هذه سنة الله في هذا الكون: مؤمن وكافر، صالح وطالح، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٣]، وكل من جاء بخلاف ما جاءت به

(١) **ينظر**: منهاج السنة (١/ ٤٧٦).

الأنبياء فهو عدو للأنبياء، فالأنبياء جاؤوا بالتوحيد، فالذي يأتي بخلاف التوحيد فقد بارز بعداوة الأنبياء، مهما زخرفوا بأقوالهم وعباراتهم فالحق واضح، فالنبي ﷺ سيد الخلق وأفضلهم، لما قيل له: «ما شاء الله وشئت» غضب وقال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟!»[(١)]، مع أنه ﷺ له مشيئة، وأنا لي مشيئة، وأنت لك مشيئة، وكل إنسان له مشيئة، لكن مشيئتنا تابعة لمشيئة الله، لما جاء بالواو التي تفيد مطلق الاشتراك والجمع أنكر عليه، وقال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟!».

فانظر إلى قول الرسول ﷺ وحمايته حمى التوحيد، حمى التوحيد، وحمى جانب التوحيد، بل وحمى حمى التوحيد، ومن تأمل القرآن والسنة وما درج عليه سلفنا الصالح علم أن هؤلاء القوم الذين افتتنوا بهذه الكتب والبناء على القبور، ليسوا على صراط مستقيم.

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»[(٢)].

هذا يدل على أن أي عبادة نذرتها يجب عليك الوفاء بها، وفيه الرد على الحنفية الذين يقولون: «لا يجب النذر إلا إذا كان جنس المنذور واجبا شرعًا»، كما لو قلت: «لله علي أن أصوم شهرا»، قالوا: يلزمك؛ لأن صيام شهر رمضان واجب، وهذا الذي نذرته لوجوبه أصل في الشرع.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٦٩٦).

ولو قلت: «لله علي أن أصلي عشر ركعات صلاة الضحى»، فعند الحنفية يلزمك؛ لأن لها جنسا واجبا، وهو الصلوات الخمس.

بخلاف ما لو قلت: «لله علي أن أعتكف في شهر رمضان»، يقولون: لا يلزمك؛ لأن الاعتكاف لا يجب من أصله.

أما الجمهور فيقولون: يلزمك الوفاء بالنذر ما دام أنه طاعة، وإن لم يكن له أصل واجب؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»، وهذه طاعة، وتقييدكم بأنه لابد أن يكون له أصل واجب في الشرع لا دليل عليه.

ولو قلت: «لله علي أن أزور فلانا المريض» فالحنفية لا يوجبونه، ويقولون: عيادة المريض ليست واجبة، والجمهور يوجبونه؛ لأن عيادة المريض طاعة، وقد حث عليها النبي ﷺ، وهي من حق المسلم على المسلم.

ولو قلت: «لله علي أن أحج»، فالجميع على وجواب الوفاء -حتى الحنفية-؛ لأن الحج أصله واجب.

والكافر يصح نذره، لكن يوفي به بعد الإسلام، كما في قصة عمر رضي الله عنه؛ فإنه قال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام.

فقال ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ»[(١)]، فالنذر وقع في الجاهلية، ومع ذلك أمره الرسول ﷺ بالوفاء بعد الإسلام، قالوا: فهذا يدل على أن النذر ينعقد من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٠٣٢)، ومسلم في صحيحه (ح:١٦٥٦).

الكافر ويبقى في ذمته ولو أداه حال كفره لم يصح؛ مما يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

«وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»: معلوم أن المعصية لا يجوز فعلها لا بنذر ولا بغيره، مثل: لو نذر: «لله علي أن أقتل عمرا»، حرام عليه الوفاء، لكن هل عليه في هذا النذر كفارة؟

مذهبنا ومذهب بعض العلماء أن عليه الكفارة -وإن كان الوفاء به لا يجوز-؛ لقول النبي ﷺ: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»[1]،

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (ح:٨٧٨)، وأحمد في مسنده (ح:١٩٨٨٨)، والنسائي، في سننه (ح:٣٨٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير(ح:٣٦٣)، والحاكم في مستدركه (٩/ ٤٨١-٤٨٢) (٨٠٣٥- ٨٠٣٦- ٨٠٣٧)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٠٠٧- ٢٠٠٩٥- ٢٠٠٩٨) من طريق محمد بن الزبير الحنظلي، عن أبيه، عن رجل، عن عمران بن الحصين -مرة-، وأخرى: عن أبيه عن عمران -بإسقاط الرجل-، وثالثة: عن رجل عن عمران -بإسقاط أبيه-، ورابعة: عن الحسن، عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما، به مرفوعا.

وإسناده واهٍ، الزبير والحسن لم يسمعا من عمران، والرجل مبهم، ومحمد بن الزبير متروك، كما أنه اضطرب فيه اضطرابا شديدا.

قال البخاري (الضعفاء ص١٢٠): «محمد منكر الحديث».

وقال النسائي بعد إخراجه: «محمد بن الزبير ضعيف لا يقوم بمثله حجة، وقد اختلف عليه في هذا الحديث»، وضعف الحديث أبو حاتم «العلل» (٤/ ١٥٠)، والبيهقي «المعرفة» (١٤/ ٢٠٠).

وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه الطيالسي (٣/ ٨٧) (١٥٨٧)، والإمام أحمد (٤٣/ ٢٠٣) (٢٦٠٩٨)، وأبو داود (٣٢٩٠)، والترمذي في جامعه (١٥٢٤)، والنسائي في سننه (٣٨٣٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٠٨٦) من طريق يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، به مرفوعا. =

= لم يسمعه الزهري من أبي سلمة كما قال الحفاظ، فقد رواه أبو داود (٣٢٩٢)، والترمذي في جامعه (١٥٢٥) من طريق ابن أبي عتيق وموسى بن عقبة، عن الزهري، عن سليمان بن أرقم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عائشة، به مرفوعا.

فبانت علته، وظهر ضعفه؛ فسليمان: متروك ذاهب الحديث كما قال البخاري «العلل» (ص٢٥٠)، ولما أبان إمام الشأن أبو عبد الله أحمد بن حنبل ضعف الخبر قال: «أفسدوا علينا هذا الحديث...» (سنن أبي داود ٣/ ٢٣٢، ومسائل ص٤٠١).

وقد حكى النووي (الروضة ٣/ ٣٠٠) اتفاق الحفاظ على ضعف الحديث، وتعقبه الحافظ (التلخيص ٤/ ٣٢٤) فقال: «قد صححه الطحاوي وأبو علي ابن السكن فأين الاتفاق؟!».

ينظر: علل الدارقطني (٨/ ٣٠١)، معرفة السنن والآثار (١٤/ ١٩٩).

وله شاهد آخر من مسند ابن عباس رضي الله عنهما، رواه أبو داود (٣٣٢٢) من حديث طلحة بن يحيى الأنصاري، عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن كريب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به مرفوعا.

قال أبو داود: «رواه وكيع وغيره عن عبد الله بن سعيد فأوقفوه على ابن عباس».

ورواية الوقف أخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٣١٣)، وصوبها الرازيان العلل لابن حاتم (٤/ ١٥١)، وذكر الحافظ ابن حجر أن الحفاظ رجحوا وقفه. ينظر: بلوغ المرام (ص٤٦٧) (١٢٨١).

وطلحة فيه لين «ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٤٣)، وقد ضعف المرفوع أبو محمد ابن حزم «المحلى» (٨/ ٦)، وأبو عمر ابن عبد البر «الاستذكار» (٥/ ١٨٧).

وجاء موقوفا - أيضًا- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواه عبد الرزاق (٨/ ٤٣٣) (١٥٨١٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٢) (١٢٢٨٨)، من حديث زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، به موقوفا.

وزيد صدوق، وأبو عبيدة حديثه عن أبيه محمول على الاتصال وإن كان لم يسمع منه. ينظر: شرح علل الترمذي (١/ ٥٤٤).

فتلخص أن الخبر لا يصح مرفوعا، وأنه جاء بإسنادين جيدين موقوفا على عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، والله أعلم.



والقول الآخر: أنه لا كفارة عليه؛ لأنه لم ينعقد ولا يجوز الوفاء به، فكيف يكون فيه كفارة؟! فالكفارة لا تكون إلا عن ذنب، ولهذا سميت (كفارة)؛ أي: تكفر ما ارتكبه الإنسان من ذنب، وهذا لم يرتكب ذنبا؛ فتكون الكفارة ليس لها هنا مقابل -هذا قولهم-.

لكن نرد عليهم فنقول:

أولا: الحديث صريح.

ثانيا: وإن كان يحرم عليه الوفاء لكن مجرد قوله: «لله عليَّ أن أقتل فلانا»، هذا التزام، وفعله هذا معصية، فيكفر هذا النذر الذي ابتداؤه معصية -وإن كان لا يجوز الوفاء به-.



(١٢) باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلا فقال: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم[1].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٧٠٨).

شرح: باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام، وهي عبادة؛ فمن استعاذ بغير الله بما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله شريكا لله.

فإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»: فأنت بهذا تعتصم بالله، وتلتجيء إليه، وتتضرع إليه بأن يقيك هذا الشر الذي استعذت بالله منه، والعياذ واللياذ بمعنى واحد، إلا أن اللياذ في طلب الخير، والعياذ في دفع الشر، كما قيل:

يا من ألوذ به فيما أومله ❁ ومن أعوذ به مما أحاذره(1)

أنت المستعيذ، والله هو المستعاذ به، والمستعاذ منه هو ذلك الشر: من جن أو غير ذلك، وجاءت آيات كثيرة في أن المسلم لا يستعيذ إلا بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، فالاستعاذة لا يجوز صرفها لغير الله، فالله هو الذي يقيك ويحفظك من كل شر، فمتى التجأت إليه واعتصمت به وصدر ذلك من قلب حي فالله يحفظك ويعيذك مما استعذت منه.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

---

(1) ينظر: شرح ديوان المتنبي (١/ ٣٨) للواحدي، وكان شيخ الإسلام ربما قالها في سجوده، ينظر: البداية والنهاية (١٥/ ٣٧٨).

هذه الآية نزلت في مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا إذا نزلوا واديا مقفرا أو مكانا موحشا قالوا: «نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه»، يظنون أن الجن تنفر إبلهم إذا نزلوا الوادي، وأنها تعبث بأمتعتهم وتسخر بهم، فهم يلتجئون ويعتصمون بعزيز هذا الوادي – أي: عظيم الجن – من سفهاء قومه، بأن يمنع عنهم سفهاءهم، فإذا قال ذلك مشركوا العرب زادوا الجن رهقا؛ أي: تعاظما وتكبرا، وقيل: زادهم الجن خوفا وشرا؛ لأنهم استعاذوا بغير الله، وعلى التقديرين: لا تجوز الاستعاذة بالجن.

وفي الآية: إثبات وجود الجن، وهم خلق من خلق الله، دلت على ذلك الآيات القرآنية، والسنة النبوية، خلافا لجهلة النصارى وبعض الأطباء المنكرين لوجود الجن، وقد حكى ابن حزم[1] إجماع أهل العلم من اليهود والنصارى والمسلمين والصابئين على وجود الجن، ولم ينكر وجودهم إلا شذاذ قلائل من جهلة الفلاسفة والأطباء، حتى عقلاء النصارى يثبتون وجودهم، والآن كثير من الأطباء ينكرون وجود الجن، لكن القرآن يرد عليهم، السنة ترد عليهم، والواقع –أيضًا– يرد عليهم؛ فإنهم يبرزون لكثير من الإنس ويتحدثون معهم ويعرفونهم، وقد ذكر العلماء في كتبهم شيئا من أحكام الجن، هل تنعقد بهم الجماعة؟ وهل بولهم طاهر؟ إلى غير ذلك مما هو مذكور في محله.

ثم إن الجن أحد الثقلين الذين بعث الله النبي ﷺ إليهم، وكانت الجن تغني ببعثته، وكذلك –أيضـًا– كهان العرب تأتيهم الشياطين وتخبرهم حتى أنزل الله

---

(١) الفصل (٥/ ٩)، وينظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٩٣).

القرآن ببعثة النبي ﷺ فعند ذلك حجبوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن: ٨- ١٠].

والجن خلق من خلق الله، أجسام لطيفة، يتصورون أحيانا للآدمي ويتشكلون، قال ابن تيمية: «من لطافة أجسامهم أنه يدخل مع الجدار وينفذ من الجهة الأخرى، وإن كان الجدار محكما»[(١)]، فهم أدق من الريح لطافة.

ومن أنكر وجودهم فهو كافر مرتد حلال الدم والمال؛ لأنه أنكر ما دل عليه صريح القرآن والسنة، وما أجمعت عليه الأمة.

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلا فقال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رواه مسلم[(٢)].

أرشدهم النبي ﷺ إلى أنهم إذا نزلوا واديا مقفرا أو أرضا موحشة أن يقولوا: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) بدلا من قولهم: «نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه»، فمتى استعاذ المرء بالله فإن الله يكفيه.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله أنه كان يحافظ على هذا الدعاء كل ليلة فنسيه مرة فلدغته عقرب![(٣)].

---

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٣/ ١٣)، والنبوات (١/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بهذا اللفظ (ح:٢٧٠٨).

(٣) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٣٦) للقرطبي.

وفي هذا الحديث: أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، خلافا للجهمية والمعتزلة، ووجه الدلالة من الحديث: أنه لو كان القرآن مخلوقا لم تجز الاستعاذة به، فالاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، وإنما تستعيذ بالله أو بصفة من صفاته، وكلام الله صفة من صفاته، وكلمات الله هي القرآن.

(لم يضره شيء): هو بفتح الراء، وإن كان قد دخل عليه جازم من أدوات الجزم وهو «لم»، وذلك أن الحرف المشدد هو عن حرفين، فإذا لقيه ضمير وقد دخل عليه جازم فإنه يفتح عند النحويين فتقول: «لم يضره»؛ كما في حديث الصعب بن جثامة: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ»[1]؛ التقدير: «إنا لم نردده عليك...».

وكما في الحديث: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»[2]، (ازهد): فعل أمر (يحبك): فعل مضارع مجزوم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٨٢٥)، ومسلم في صحيحه (ح:١١٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (ح:٤١٠٢)، والحاكم في المستدرك (ح: ٧٨٧٣)، والبيهقي في الشعب (ح: ١٠٠٤٣) من حديث خالد بن عمرو القرشي، عن سفيان الثوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي، به مرفوعا.

وإسناده واه، خالد قال فيه الإمام أحمد «العلل» (٣/ ٢٥٤) (٥١٢٢): «ليس بشيء... يروي أحاديث بواطيل»، ورماه ابن معين وصالح جزره بالكذب، وقال النسائي «السنن الكبرى» (١/ ٤٢٥): «منكر الحديث»، وقال أبو أحمد ابن عدي «الكامل» (٣/ ٤٦١): «كل أحاديثه أو عامتها موضوعة، وهو بين الأمر في الضعفاء».

وسئل أحمد عن هذا الحديث فقال: «لا إله إلا الله – تعجبا منه- من يروي هذا؟! عمن هذا؟!». ينظر: المنتخب من علل الخلال (ص٣٧) لابن قدامة. =

في جواب الأمر؛ التقدير: إن تزهد في الدنيا يحببك الله، وإن تزهد فيما عند الناس يحببك الناس، هذا قول أئمة اللغة.



= وقال العقيلي (٢/ ١٠): «ليس له من حديث الثوري أصل».

والحديث حسنه النووي في «الأربعين» وتعقبه ابن رجب في شرحه (٢/ ١٧٤)، وعلم بهذا ما في قول الحافظ الكبير أحمد بن علي ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ ومن تبعه على ذلك من المعاصرين: «رواه ابن ماجه وسنده حسن» «البلوغ» (ص٤٩٥).

فإن قيل: قد تابع خالدا محمد بن كثير كما رواه البيهقي في «الشعب» (٤٠٣٧)؟

فالجواب: أن محمد بن كثير الصنعاني فيه ضعف «الجرح والتعديل» (٨/ ٦٩)، وقد أخذ هذا الحديث عن خالد فدلسه كما أشار إلى ذلك العقيلي في الضعفاء (٢/ ١٠)، وقد سئل أبو حاتم عن هذا الحديث من طريق محمد فقال: «هذا حديث باطل». ينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٥/ ٧٥). والله أعلم.



(١٣) باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيتين [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

وقوله: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية [الأحقاف: ٥].

وقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ الآية [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق.

فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل»[١].



(١) هو من الجزء المفقود من معجم الطبراني، لكن أخرجه الحافظ ابن كثير رحمه الله في جامع المسانيد والسنن (٤/ ٥٦٨)؛ بسنده إلى الطبراني بتمامه.

شرح: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

أي: من الشرك الأكبر أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

الاستغاثة: هي طلب الغوث في حالة الشدة، وذلك أن الطالب يكون في شدة وكربة يطلب الغوث ممن بيده الضر والنفع، والدعاء أعم، فهو لا يختص بحال الشدة والكربة، فيكون حينئذ عطف الدعاء على الاستغاثة من باب عطف العام على الخاص، فكل استغاثة هي دعاء، وليس كل دعاء هو استغاثة.

لو قال: قولي: «يا رسول الله»، هذا نداء وليس دعاء، فأنا أنادي وأنتم خلطتم الدعاء بالنداء، ولم تفرقوا بين الدعاء والنداء، أنا ما دعوت ميتا وإنما أناديه.

نقول: ما دمت ناديت باسم الدعاء فالنداء دعاء، فالله -سبحانه- سماه دعاء، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكذلك في قصة زكريا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٣-٤]، سماه دعاء، فهذا دليل على أن النداء دعاء، والدعاء عبادة.

ثم إن عباد القبور يسألون الأموات والغائبين قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، ظنا منهم أنهم يشفعون عند الله، أو أنهم يتصرفون في الكون، وهذه بلوى، جعل هذا الميت شريكا لله يتصرف في الكون، جعله شريكا لله في الربوبية!

وربما قال: «لا يملك التصرف في الكون، وإنما له مكانة وجاه عند الله، فأنا أطلبه لأجل أن يشفع لي».

نقول: هذا عين شرك المشركين الأولين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، سماه: شركا.

هل تظن أن الله لا يعلم حاجتك حتى تجعل واسطة بينك وبينه يرفع حاجتك إليه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فالله ليس بينه وبين خلقه أي واسطة، وإنما أمرهم أن يدعوه.

كذلك الذين غلوا في مدح الملوك في قصائدهم، أو من أعجب بنفسه فنزل نفسه منزلة الإله، كما وقع لبعض ملوك بني بويه، وهو عضد الدولة، وذلك أن القرامطة لما عظم أمرهم وقويت شوكتهم بعث الخليفة العباسي جيشا من بغداد وهم في البحرين، فهزموا جيش الخليفة، فجهز لهم جيشا آخر فهزموه -أيضا-، فانتدب لهم عضد الدولة وطلب من الخليفة أن يوليه قتالهم، فولاه قتالهم، فجاء عضد الدولة، ومعه قوة، فحارب القرامطة فكسرهم وشتت شملهم، فأعجب بنفسه، فأنشأ يقول:

أنا عضد الدولة وابن ركنها ❁ ملك الأملاك غلاب القدر

بل أنت إبليس ولست غلاب القدر! أعجب بنفسه لما نصره الله على القرامطة، وطمحت نفسه إلى أن ادعى أنه غلاب القدر، وقد قال هذا في أول النهار بعد النصر، فما غربت الشمس إلا وهو مجنون يبول على ثيابه، مكبل بالحديد(١).

هذا شأن ابن آدم، لا يقف عند حد، ولا يعرف قدره، فإذا أعطاه الله وتفضل عليه ظن أن هذا بقوته، كما في قصيدة ابن هانئ لبعض ملوك الأندلس لما حارب من حارب وانتصر، قال:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ❁ فاحكم فأنت الواحد القهار(٢)

فهؤلاء يعظمون الملوك ويرفعونهم ويجعلونهم في رتبة الله، والآخرون يرفعون الأموات ويجعلونهم في رتبة الله، ويطلبون منهم تفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وفي نجد قبل دعوة الشيخ محمد كثير من هذا، كانت المرأة إذا تأخر زواجها ذهبت إلى النخلة الفحال، وتضمها إلى صدرها وتقول: «يا فحل الفحول هات لي زوجا قبل الحول!».

وهناك غار في الدرعية يسمى (غار بنت الأمير)، كانوا يهدون له السمن والأقط واللبن وتأتي الشياطين فتأكله فيقولون قبل.

---

(١) وقيل: إنه لما حضرته المنية لم ينطق إلا بقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩] ينظر: يتيمة الدهر (٢/ ٢٥٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٥٤).

(٢) ابن هانئ عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة، وقد كفره جماعة منهم: القاضي عياض، وقال الذهبي بعد نقل البيت المذكور: «فلعن الله المادح والممدوح، فليس هذا في القبح إلا كقول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]» ينظر: الكامل (٧/ ٣٠٥)، تأريخ الإسلام (١٢/ ٣٦٧).

وكان في (معكال)[1] شخص يدعون أنه يعلم الغيب، جاء شخص إليه ببقرته، فقال له: انظر إلى بقرتي هل فيها عجل أو ثور؟

فأجابه فكان كما قال: فافتتنوا به، هكذا وقوع الشرك.

والله أبطل هذا كله، وأمر العباد أن يتوجهوا إليه في جميع ملماتهم وحاجاتهم، وأخبر أنه هو الذي يجلب النفع لهم ويكشف الضر عنهم، وأنه لم يكل ذلك لا إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنما الرسل واسطة بين الله وخلقه من جهة تبليغ الشريعة، وأوامر الله ونواهيه، دون أن يكون الرسل أو غيرهم واسطة بين العباد وبين الله في قضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم، وعباداتهم، فالله أمرك أن تعبده وحده دون أي واسطة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فالدعاء هو العبادة، وصرف شيء من نوعي الدعاء لغير الله يصير الداعي مشركا كافرا، لكن ابتلي كثير من الناس بطلب الغوث والعون من الأموات، لاسيما من النبي ﷺ؛ فإنهم جعلوا في أشعارهم يطلبون منه المدد، ويسألونه التوفيق، وأن يكون أنيسا لهم إذا أنزلوا في قبورهم، ويطلبون منه الرحمة، صرفوا للرسول ﷺ حق الله، فالحقيقة أنهم جعلوه إلها، وقد قال النبي ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[2]؛ أي: لا تتجاوزوا الحد في حقي، كما جاوزت النصارى الحد في عيسى عليه السلام فجعلوه إلها، لا تصرفوا شيئا من حق الإله إلي.

---

(١) حي من أحياء الرياض.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٤٤٥) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لكن صار بعض هذه الأمة مشابها للنصارى في ذلك سواء بسواء؛ كما قال ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١)، وجد في هذه الأمة نظير ما وجد في النصارى الذين جعلوا عيسى إلها، فهذه الأمة صرفوا حق الإله للرسول، وإن لم يسموه إلها، ما دام أنه يطلب منه الغوث وتطلب منه الرحمة ويطلب منه أن يكون أنيسا للإنسان في قبرهن ويطلب منه التوفيق، فإذن جعلوه إلها!، رتبة الرسول ما هي؟

بينها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة؛ فإنه قام خطيبا في الناس لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «واصباحاه»، فاجتمع عنده أشراف قريش، فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا»، وهؤلاء الذين اتخذوه إلها يقولون: لا، لست بصادق، بل أنت تغني عنا من الله شيئا!

ثم قال: «يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» اشتروا أنفسكم بالإيمان بالله والعمل الصالح، «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(٢).

أبعد هذا يقال: لا، بل أنت تنفع وتضر وبيدك الدنيا والآخرة؟! -كما قال أحدهم-(٣):

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٧٥٣)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) وهو: البوصيري صاحب «البردة».

فإن من جودك الدنيا وضرتها ❁ ومن علومك علم اللوح والقلم

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ❁ فضلا وإلا فقل: يا زلة القدم

وهو ﷺ يقول لأخلص الناس إليه لابنته التي هي بضعة منه: يا فاطمة بنت محمد اشتري نفسك بالإيمان بالله والعمل الصالح، لا أغني عنك من الله شيئا، فإذا صرح وهو سيد المرسلين أنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين -وهي فاطمة-، ثم نظر المرء فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد وغربة الدين، أي دلالة أوضح من هذه؟!

ثم لما شج النبي ﷺ وكسرت رباعيته، جعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

وكذلك جاء في البخاري[(٢)] أنه ﷺ لما رفع رأسه في الركعة الأخيرة من صلاة الفجر جعل يقول: «اللهم العن صفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ فهؤلاء الذين لعنهم الرسول ﷺ تابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، فكيف مع هذا نطلب منه المدد ونرفعه في رتبة الله، ماذا بقي لله؟!

أين قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]؟!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، بنحوه (ح:٤٠٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أين قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؟!

أين تذهب هذه الآية: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦]؟!

نعم؛ الرسول ﷺ هو سيد الخلق، وإمام المرسلين، ولكن ليس إلا مبلغا، ونحن لا ننكر شفاعته بل هو الشافع المشفع ﷺ، بل له عدة شفاعات، لكن لا نطلب الشفاعة منه، بل نطلبها من الله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

ثم الرسول ﷺ حرص على هداية عمه مع أنه عمه أيده وناصره وصبر معه على حصار الشعب ثلاث سنين، فقاطعتهم قريش لا يناكحونهم ولا يبايعونهم ولا يشترون منهم، ولا يأتونهم، فصبر عمه أبو طالب على حصار الشعب من أجل الرسول ﷺ، لما جاءت قريش قالت: «يا أبا طالب، خذ لنا من ابن أخيك، إن كان يريد المال أعطيناه مالا حتى يكون من أكثرنا مالا، وإن كان يريد السؤدد سودناه علينا حتى لا نقطع أمرا دونه، وإن كان به رئيٌّ من الجن جمعنا له من أموالنا وعالجناه حتى لا يكون به بأس».

فقال أبو طالب للرسول ﷺ: «يا ابن أخي لقد أنصفك قومك».

فظن الرسول ﷺ أن عمه سيخلي بينه وبين قومه، فقال ﷺ: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

فقال أبو طالب: «اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا»[1].

أيده أبو طالب وناصره كما في قصائده المعروفة، ولكن لم يؤمن به ظاهرا - وآمن بقلبه كما في أشعاره- فلم ينفعه الرسول ﷺ؛ فإن أبا طالب يقول في قصيدته المعروفة[2]:

ولقد علمت بأن دين محمد ❁ من خير أديان البرية دينا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم ❁ حتى أوسد في التراب دفينا

أيده وناصره، ولكن لما قال له ﷺ: «قل: «لا إله إلا الله»، كلمة أحاج لك بها عند الله»، ذكره أبو جهل وعبد الله بن أمية الحجة الملعونة وهي: تعظيم الأسلاف والأكابر، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

فقال: «هو على ملة عبد المطلب»، وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله»، فأنزل الله تسلية للرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦][3]، أبعد هذا يأتي الآتي ويقول: «يا محمد أغثني، ارزقني التوفيق، من علي بالعافية، من علي بالرحمة، خذ بيدي»؟!

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ❁ فضلا وإلا فقل: يا زلة القدم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ❁ محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (ص١٥٤)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٤٠).
(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق (ص١٥٥).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٣٦٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

قارن بين هذا وبين الأحاديث الثابتة عنه ﷺ في قصة عمه، حين أبى أن يقول: «لا إله إلا الله»، فلم ينفعه، وإنما شفع له أن يخرج من درك النار إلى ضحضاح من النار يلبس منها نعلين يغلي منهما دماغه.

أبعد هذا نقول: إن الرسول ﷺ ينفع ويضر، ويدخل الجنة من شاء، وبيده الرحمة، وبيده التوفيق؟! ماذا بقي لرب العالمين.

والمسلمون مجمعون على أن الإنسان متى جعل بينه وبين الله واسطة ملكا مقربا أو نبيا مرسلا فهو كافر، لا يجوز لأحد أن يسأل إلا الله، ولا يطلب المدد إلا منه؛ كما دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]، فالآية أبطلت ما يتعلق به عباد القبور من أربعة أوجه:

الوجه الأول: قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾؛ يعني: صاحب هذا القبر أو النبي أو الملك هل يستطيع إيجاد مخلوق؟! أبدا لا يستطيع، فإذا كان لا يملك إيجاد مخلوق فكيف تجعله نديدا وشريكا لمن بيده الضر والنفع، والذي تفرد بالخلق والإيجاد؟!

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾، كيف تجعل هذا المخلوق المربوب المقهور في رتبة من أوجده وخلقه؟! هذا هو الضلال.

الوجه الثالث: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾؛ يعني: أن هذا المقبور أو الملك المقرب أو النبي المرسل لا يستطيع أن ينصر داعيه، ولا أن يكشف الضر عنه، فكيف تجعلونهم في رتبة الله؟!

الوجه الرابع: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾: لا يستطيع أن يوجد النفع لنفسه ولا يدفع الضرر عنها، بل هو في قبره، ليس له إلا عمله فقط، فكيف مع هذا تجعله في رتبة الله، وتطلب منه المدد؟!

هذا يدل على بطلان ما يتعلق به عباد القبور.

وقد يقول لنا خصومنا: أنتم بهذا لا تعترفون بالأولياء، فهؤلاء الأولياء نحن ندعوهم نطلب منهم المدد لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله، وإنما نسألهم حوائجنا ليرفعوها إلى الله؛ لأنهم أولياء، فهل أنتم تنكرون وجود الأولياء أو تنكرون كرامات الأولياء؟!

نقول: لا، لا ننكر كراماتهم، بل نعترف بقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[يونس: ٦٢- ٦٤]، وليس معنى هذا أنا ندعوهم ونسألهم، فنحن نؤمن بكرامات الأولياء ونترحم عليهم، لكن لا نرفعهم فوق رتبتهم، بل علينا أن نقتدي بهم ونأخذ بآثارهم[(١)]، ونتعلم منهم، هذا هو الذي علينا، إذا كانوا أولياء حقيقة.

فإذا قال الخصم: أنت الآن اعترفت بالأولياء، فهل تعترف بكراماتهم أنهم يطيرون في الهواء، ويمشون على البحر، ويأتون بالعجائب، أتنكر هذا؟!

---

(١) أي: نقتفي آثارهم ونسير على طريقتهم الصالحة. -قال ابنه الشيخ صالح-.

نقول: لا، لا ننكر، لكن لا نعترف بأن كل من أتى بهذه الأشياء بأن طار في الجو أو مشى على البحر؛ أنه ولي؛ فإنه يحتمل أن يكون وليا، ويحتمل أن يكون ذلك بإعانة الشياطين، أما كرامات الأولياء فلا أنكرها، وعندي ميزان أزن به الولي وغيره، فأعرف به الكرامة وأعرف به المخرقة الشيطانية.

فإذا قال: ما هو الميزان؟

نقول: هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فإذا جاءنا رجل مؤتمر بأوامر القرآن، منته عن نواهيه، عامل بالسنة، أدى الواجبات، وابتعد عن المحرمات، وحافظ على المأمورات، ورأيناه وهو يمشي على البحر فهذه كرامة، -وليس معنى ذلك أنه أفضل من غيره-.

أما لو رأيناه تاركا للواجبات، فاعلا للمحرمات، فنقول: هذه بإعانة الشياطين، هذا الميزان عندنا، فتكون مخرقة وسحرا لا نقبلها مهما فعل، ومهما جاءنا مثل هذا، وفي هذا قال بعضهم:

وبين السماء والأرض لو طار عابد، وسار على ظهر المياه الدوافق

فزنه بميزان المطهر شرعه ❁ فإن وافق الشرع الشريف فوافق[1]

فإذا رأيته يسير على المياه الدوافق، أو رأيته يطير فلا تعترف له بالولاية إلا إذا وزنته بهذا الميزان وهو ميزان الشريعة، إن كان مؤتمرا بأوامرها، منتهيا عن نواهيها، نقول: هذه كرامة – ولا يلزم من وجود الكرامة لهذا الولي أنه أفضل

(١) البيتان من قصيدة للشيخ راشد بن خنين الحنفي ت ١٢٠٦هـ رحمه الله.

وأكمل من غيره ممن لم تقع له كرامة-، إنما هذا شيء أجراه الله -سبحانه وبحمده-، والله قادر على كل شيء.

كما في قصة العلاء بن الحضرمي الذي سير خيله على البحر ومشت على البحر كما هو معلوم في السير والتواريخ[١]، هذا لا مانع منه، ولكن لا يلزم منه أن ندعوهم ونجعلهم وسائط بيننا وبين الله، فالله أبطل هذا كله، وأمرنا ألا ندعو ولا نسأل إلا إياه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولم يقل: «وإذا سألك عبادي عني فإني جعلت بيني وبينهم وسائط»، وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]: أما تتذكرون تذكرا قليلا ترجعون به إلى ربكم؟!

وبعضهم يقول: تقصر الصلاة إذا سافر الإنسان لزيارة المشاهد والقبور! لو سافرت إلى قبر أحمد البدوي فإنك تقصر الصلاة!

والرسول ﷺ يقول: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ»[٢].

وأما زيارة قبر الرسول ﷺ فالمعتمد فيها هو: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ،

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٣٦٣)، الاستيعاب (٣/ ١٠٨٧) لابن عبد البر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١١٨٨- ١١٩٧)، ومسلم في صحيحه (ح:٨٢٧- ١٣٩٧) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

وما درج عليه سلف هذه الأمة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...»[1].

قال الحنابلة وغيرهم: تستحب زيارة قبر النبي ﷺ.

يعني: أنك تشد الرحل لزيارة قبر الرسول ﷺ، وهذه المسألة الخلاف فيها طويل، والجماهير يرون شد الرحل لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويستدلون بأحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، مثل حديث: «من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»، وهذا لا يصح، ومثل حديث: «من حج ولم يزرني فقد جفاني»، نقول: هذا غير صحيح، لا من جهة السند، ولا من جهة المعنى، فجفاء الرسول ﷺ كفر، فمعناه: إذا حججت ولم تزر قبر النبي ﷺ صرت كافرا.

كثير من العلماء تمسكوا بمثل هذه الأحاديث الضعيفة التي لا أصل لها، أما المحققون من أهل العلم: كابن عقيل والقاضي عياض وابن بطة وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الهادي وابن رجب فهم لا يرون شد الرحل لقبر الرسول ﷺ أبدا، ويستدلون بحديث: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»[2]، فدل هذا الحديث على تحريم شد الرحل لغير هذه المساجد الثلاثة، لكن لو شد الرحل لزيارة المسجد النبوي فلا بأس أن يسلم على الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٦٥١- ٢٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٥٣٣- ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد تقول: الجمهور ماذا يجيبون عن هذا الحديث؟ فالحديث صريح.

نقول: يجيبون عن هذا الحديث بقولهم: في الحديث حذف، وهذا الحذف يدل عليه المستثنى، وتقدير الحديث عندهم: «لا تشد الرحال لمسجد إلا إلى ثلاثة مساجد»، فالمستثنى يدل على أن جنسه هو المقصود بعدم شد الرحل، هذا قول الجمهور، فعندهم: لو شددت الرحل إلى مسجد الأزهر أو المسجد الأموي في دمشق - مثلا- فلا يجوز ذلك.

ماذا يقول المانعون؟

يقولون: أخطأتم في هذا التقدير، بل المستثنى منه أعم مما خصصتم، فتقدير الحديث: «لا تشد الرحال لموضع يتقرب فيه إلى الله إلا إلى ثلاثة مساجد»، هذا تقديره.

فقال الجمهور: على تقديركم هذا تمنعون شد الرحل لعرفة ونحوها؛ لأن هذه المواضع يتقرب فيها إلى الله.

يقول المحققون: هذا جاءت النصوص بتخصيصه، ولهذا لا نجد أحدا من الصحابة مع شدة حرصهم على الخير شد الرحل لقبر ولا لمشهد ولا غيره، فقد تفرق الصحابة في سائر الأمصار، وما نقل أنهم شدوا الرحل لقبر الرسول ﷺ، وإنما كان يأتون إلى المسجد في المدينة، مما يدل على أن شد الرحل لغير المساجد الثلاثة لا أصل له، ثم هو وسيلة لشد الرحل لغيره من قبور الأولياء، أو قبور الأنبياء[1].

---

(١) سيأتي بيان المسألة مفصلة وتخريج الأحاديث الواردة فيها، وذلك في باب قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعلى رأي الجمهور الذين يقولون: تستحب زيارة قبر النبي ﷺ؛ لا تستحب زيارة قبور الأنبياء الآخرين -عندهم-.

وما قيل: أن قبر هود في اليمن، وقبر زكريا في الشام، كله غير صحيح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا يعرف قبر نبي من الأنبياء ما عدا قبرين: قبر إبراهيم -وهو معروف-، وثابت أن قبره موجود في فلسطين، وقبر النبي ﷺ، أما غيرهم من الأنبياء فقد خفيت قبورهم، ولم يوقف لها على خبر، ولم تعلم عينها، وإنما هذه دعاوى من الدجالين»[(1)].

ثم هنا مسألة أخرى يتعين التنبيه عليها تتعلق بحديث: «لا تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد...»، وهي أنك قد تقول: نسمع في خطب المتعلمين والإذاعات والصحف عندما يذكرون المسجد الأقصى في القدس، يقولون: «ثالث الحرمين، أنقذوا ثالث الحرمين...» وما أشبه ذلك، فهل نوافقهم على هذا؟ هل هو ثالث الحرمين؟

نقول: قولهم هذا باطل، ليس ثالث الحرمين باتفاق المسلمين، فالمسجد الأقصى ليس بحرم، بل قل: «ثالث المسجدين»، هذا صحيح، والصلاة فيه بخمس مئة صلاة، هذا صحيح، ومسجد الخليل -أيضًا- يسمونه «الحرم الإبراهيمي»، كل هذا خطأ، إنما الحرم: حرم مكة، وحرم المدينة.

لأن معنى (الحرم): هو الذي لا يعضد شوكه، ولا يختلى خلاه، ولا ينفر

(١) ينظر: الاقتضاء (٢/ ١٦٦)، الرد على الإخنائي (ص١٣٢)، الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٥).



صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف، هذه الأحكام لا يوجد شيء منها بالأقصى.

ومع الأسف دار على الألسن في المؤتمرات وفي الخطب والصحف والإذاعات وعلى ألسنة الأساتذة قولهم: «ثالث الحرمين»[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآيتين [يونس: ١٠٦- ١٠٧].

هذا نهي من الله -سبحانه- لنبيه ﷺ، والمراد به جميع الأمة، فلا يجوز لأحد أن يدعو غير الله، فلا يملك كشف الضر ولا جلب النفع إلا الله، فكيف تدعو أحمد البدوي؟! وكيف تدعو أشرف الخلق محمدًا ﷺ؟! تأتي إلى قبره فتقول: «المدد المدد يا رسول الله، اشفع لي يا رسول الله»؟!

اسأل الله، لا تسأل الرسول ﷺ؛ فإن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]: (نفس): نكرة، (لنفس): نكرة، (شيئا): نكرة، والآية في سياق النفي فتعم.

لا يملك أحد لأحد ضرا ولا نفعا أبدا، بل الملك لله، فإذا كان ذلك كذلك فكيف تدعو مع الله غيره؟! وكيف تطلب الشفاعة من غيره؟! لا تسأل إلا الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: دل على أن كل من لا يضر ولا ينفع لا يصلح أن يكون مدعوا.

---

(١) ينظر: الاقتضاء (٢/ ٣٤٦).

﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾؛ أي: دعوت غير الله، ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من المشركين، فالله نهانا أن ندعو الرسول ﷺ، أو أحدا من الصحابة، أو ندعو عبد القادر أو فلانا...، إنما ندعو من يملك الضر والنفع، والذي بيده أزمة الأمور يتصرف بما تقتضيه حكمته وإرادته.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾: فإذا كان الله هو الذي يكشف الضر إذا وقع بك، فكيف تدعو غيره؟!

﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]: لو اجتمعت الأمة على إيصال نفع لك والله لم يقدره فإنه لا يصل إليك، أو أرادوا أن يضروك فلا يقدرون إلا إذا كتب الله هذا، فبهذا يتجه القلب للخالق وينقطع عن الخلائق، ويعرف أن الله هو الذي بيده الضر والنفع، لكن يا للأسف كثير من البلاد المنتسبة للإسلام ابتلوا بعبادة القبور والتعلق بغير الله ويقولون: هؤلاء صلحاء، يشفعون لنا عند الله، يرفعون حوائجنا إلى الله، وألفوا في ذلك المؤلفات الساقطة السخيفة التي قراءتها يندى لها الجبين، كما في كتاب: «طبقات الأولياء»، وغيره.

وقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾: فعل أمر. ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾: متعلق بقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾ فتقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، فدل على أن الله هو الذي يملك الرزق، فلا ينبغي أن تدعو غير الله ولا أن تطلب غير الله.

لو أن شخصا طلب من السلطان أو من غني مبلغا من المال، فهل في هذا منافاة لقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾؟

نقول: أولا السؤال من حيث هو ذمه النبي ﷺ، ونهى عنه، وقال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[1]، والأحاديث في هذا كثيرة، والصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يسألون أحدا، بل يتجرون ويعملون الأسباب في تحصيل الرزق لأجل القيام بعوائلهم ومن تحت أيديهم.

فإن أبا بكر كان بزازًا؛ أي: يبيع البز، وعمر بزازا، وعمرو بن العاص جزارا، والزبير كان جزارا، وعتبة بن أبي وقاص كان نجارا، وعثمان بن طلحة كان خياطا، هكذا شأن الصحابة، وهكذا شأن الأنبياء قبلهم، إبراهيم كان فلاحا، وكذا ابن أخيه لوط، وآدم كان حراثا، ونوح كان نجارا، وزكريا كان نجارا، وموسى والنبي ﷺ كانا يرعيان الغنم، كل هذا لأجل ألا يسألوا أحدا، ولأجل أن يعرفوا أممهم كيف يطلبون الرزق، وأن يغتنوا بأعمال أيديهم عن مذلة السؤال.

وكان بعض الصالحين يقول: «ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوم بقوتك، ولكن أحرز رغيفك ثم تعبد».

بقي السؤال عن معارضة الطلب من الخلق قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾
نقول: لا مانع، ولا يعارض الآية، إلا أنه مكروه، كما أن الاستغاثة بغير الله قلنا: إنها شرك إذا كانت بغير قادر، كالاستغاثة بالأموات والغائبين، أما لو استغثت بحي حاضر يقدر أن ينقذك من هذا السبع -مثلا- فلا مانع؛ لأن الله يقول في حق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٤٧١) من حديث الزبير رضي الله عنه.

موسى عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وإنما الممنوع الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه ألا الله، فكذلك السؤال فلا يجوز أن يسأل المرء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما لو سأل شخصا وهو يقدر على أن يعطيه فلا مانع، إلا أن السؤال من حيث هو مذموم، عليه أن يتطلب الرزق، إلا أن يكون به حاجة ضرورية، فهذا شيء آخر، كما في حديث قبيصة أن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»(١).

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الأحقاف: ٥].

لا أحد أضل من هذا، فإن الضلال أنواع، ولكن أعظم الضلال وأشده وأكبره هو ما دلت عليه الآية، يأتي للقبر فيقول: «أغثني»، «اكشف الشدة عني»،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:١٠٤٤) من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه.
قال النووي رحمه الله (٧/ ١٣٤): «هكذا هو في جميع النسخ: (سحتا)، ورواية غير مسلم: (سحتٌ) وهذا واضح، ورواية مسلم صحيحه، وفي إضمار؛ أي: اعتقده سحتا، أو: يؤكل سحتا».

«أنا في حسبك»، «أنا في جوارك» وما أشبه ذلك، ميت رميم، هو محتاج إليك أن تدعو له، عكست القضية فجعلت تدعوه وتسأله!

وهذه الآية هي نظيرة الآية الأخرى في الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]، والتي في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فآية الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أبطلت ما يتعلق به عباد القبور من أربعة أوجه:

الأول: أن هذا الميت لا يستجيب دعاء من دعاه، فإذا كان لا يستطيع أن يجيبه؛ فكيف تدعوه وتجعله شريكا لله وتصرف له ما هو حق الله وحده؟!

الثاني: قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، فهو غافل عنك، لا يعلم بدعائك، بل هو رميم لا يدري عنك، ووقوفك عند قبره وطلبك المدد منه لا يعلم به.

الوجه الثالث: قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الأحقاف: ٦]، فهذا الذي تدعوه يتبرأ منك يوم القيامة، هو عدوك؛ لأنك جعلته شريكا لله فيتبرأ منك.

الوجه الرابع: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، فهو يكفر بعبادتك ويقول يوم القيامة: «ربنا ما شهدنا بعبادتهم إيانا».

فأصحاب القبور المتعلقون بالأوهام، كما في مصر واليمن والعراق وغيرها في بلاد كثيرة منتسبة للإسلام، افتتنوا بالقبور، ينذرون لها ويطوفون بها ويستغيثون، كالنجف يزعمون أن فيه قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والعجيب أنهم بنوا عليه قبة من ذهب ويهدون إليه هدايا، وقالوا: «عرفنا أنه قبر علي؛ لأن الرشيد خرج للقنص ووجد ظبيا فأراد صيده، ولكن الظبي ذهب إلى هذه الربوة، فجعل يتمرغ فيها»، فعرفوا أن هذا قبر علي رضي الله عنه، فعند ذلك بنوا عليه القبة؛ لأن الظبي استجارت بالقبر، هذا دليلهم على أن هذا هو قبر علي!

فهم يتعلقون بمثل هذه الأوهام، فمن وفقه الله للعمل بالقرآن والسنة واتباع منهج سلف هذه الأمة وأنه لا يعبد إلا الله، ولا يتعلق إلا بالله -سبحانه-؛ عرف أن هذه الأشياء ترهات لا أصل لها، والقرآن يبطلها، والسنة تردها، والعقول السليمة تأنف منها.

وقد ذكر صاحب كتاب: «حاضر العالم الإسلامي»[(١)] في مؤلفه الذي ترجمه شكيب أرسلان من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ما معناه: «إن المعابد الإسلامية الكبار ألف وثلاث مئة معبد، ما بين قبر وغيره، يذبحون لها وينذرون -هذا غير المعابد الصغيرة-، ثم قال: ومن أراد الدين الحقيقي المحمدي الذي يمت إلى السماء والخالي من الخرافات فعليه بهضبات نجد وتلالها»[(٢)].

---

(١) (١/ ٢٥٩) وما بعدها.

(٢) مراده بعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ نظرا لشدة إنكارها التعلق بالقبور والافتتان بها، وليس المراد خصوصية المكان. -الشيخ صالح-.

والحق ما شهدت به الأعداء، وإن كنا في غنية عنه وعن شهادته؛ لأن الناس على بينة ونور، لكن كما قيل:

وشمائل شهد العدو بفضلها ❁ والحق ما شهدت به الأعداء[1]

وقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ الآية [النمل: ٦٢].

القلوب مفطورة على التوجه إلى خالقها وباريها لاسيما عند الشدائد، فإن الإنسان إذا اضطر ووقع في ملمة اتجه قلبه إلى خالقه وباريه، فالرب يحتج عليهم: «إنكم تسألونني عند الحاجة والاضطرار، ومع ذلك تكفرون بي في حالة الرخاء؟!».

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: يفعل ذلك؟! ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أما تتذكرون ولو تذكرا قليلا ترجعون به إلى ربكم، فالمشركون إنما يكفرون ويشركون في الرخاء، أما في حال الشدائد فيخلصون لله، كما في قوله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢]، فيخبر الرب بأن المشركين يخلصون لله الدين عند الشدائد، أما في الرخاء فإنهم يشركون، فيحتج عليهم الرب بأن الذين تدعونهم حال الرخاء هل تلتفتون إليهم حال الشدة؟! أم أنكم تنسونهم وتقبلون على الله؟!

هذا كله يدل على بطلان عبادة القبور، إذا كان هذا حال مشركي العرب

---

(١) ينظر: ديوان المعاني (١/ ٧٢).

فما ظنك بمشركي اليوم؟! فإنهم يدعون قبورهم في حال الرخاء والشدة! فصاروا أعظم شركا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في حال الرخاء، ويخلصون في الشدائد، أما هؤلاء فشركهم دائم في الرخاء والشدة.

والآية تدل على أنه لا يجوز التوجه إلا لله ولا يسأل إلا الله، كما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة.

والمشركون يعرفون أن معبوداتهم لا تنفع ولا تضر، إلا أنهم ورثوا هذا عن آبائهم.

أما المشركون في زماننا فيتعلقون بالأوهام وبالمنامات التي لا أصل لها؛ مثل قولهم: إن الرسول ﷺ أخرج يده لأحمد الرفاعي وأنه قبلها، ولذا اعتمدوا على أحمد الرفاعي وأنه واسطة بينهم وبين الله، فوقع الشرك من رؤيا منام.

ومثل ما في مصر من زعمهم أن قبر الحسين بن علي فيها، ويعظمونه ويزورونه ويطوفون حوله، وبنوا عليه قبة، وبنوا عليه مسجدا سموه: «مسجد الحسين»، وما هو إلا كذب في كذب، فقد ذكر ابن القسطلاني: أن قبر الحسين المشهور في مصر هو قبر رجل نصراني، بنوا عليه قبة وقالوا: «هذا قبر الحسين»[(١)].

وألف ابن تيمية رسالة سماها: «رأس الحسين»، والحسين رضي الله عنه لم يأت مصر، ومع هذا جعلوا يطوفون بالقبر، وبنوا قبة عليه، زخرفوها بالذهب وصرفوا أموالا عظيمة، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء.

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ٤٩٣).

وهذا الجبرتي مؤرخ مصر كان ثقة سلفي العقيدة، ذكر في تاريخه من خزعبلاتهم أن سيد الخدم اسمه (عبد اللطيف)، في سنة ألف ومئة وثلاثة وسبعين جاء ومعه عنز ويقول: إن السيدة نفيسة أوصتني بالمحافظة على هذه العنز، والإحسان إليها لما فيها من الخير والبركة، فجعل الناس يهدون لها قصب السكر واللوز والورد حتى امتلأ بيته من الخيرات!

يعتقدون أن هذه العنز أوصت بها السيدة زينب، فعلم والي مصر فبعث إلى عبد اللطيف فقال: ما هذه العنز؟

قال: هذه أوصتني السيدة زينب بالمحافظة عليها.

فأكرمه الوالي وصنع له غداء، فلما قدم الغداء وأكل، قال عبد اللطيف: «هذا لحم طيب، لم أذق مثله».

فقال: «هذا لحم عنزك»، وأخذ الجلد وجعله على رأسه، وأمر من يطوف به، ويقول: «هذا دجال»[(١)]، جزاه الله خيرا.

وقع الشرك بالأموات والغائبين من هذا القبيل، لم يستندوا إلى شيء، لكن قد يتعلقون بأوهام؛ مثل قصة الأعمى[(٢)]، أو بقصة: «أسألك بحق السائلين عليك»[(٣)]، وما أشبه ذلك.

---

(١) ينظر: عجائب الآثار (١/ ٤٠١).

(٢) سبق تخريجها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١١١٥٦)، وابن ماجه في سننه (ح:٧٧٨)، والطبراني في الدعاء (٤٢١)، والبيهقي في الدعوات (٦٥) من طرق عن فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد، به مرفوعا. =

وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق.

فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّما يُسْتَغَاثُ بالله عَزَّ وَجَلَّ»(١).

الاستغاثة بالرسول ﷺ جائزة في مثل هذا؛ ما دام أنه حي حاضر قادر، كما لو قال لك شخص: «أغثني من هذا الظالم»، وأنت تستطيع أن تمنع الظالم، كما في قوله تعالى في قصة موسى مع القبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: الإسرائيلي، ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: القبطي، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ١٥]

= ولا يصح؛ لضعف عطية وفضيل.
وقد أخرجه من هذا الطريق ابن أبي شيبة (١٥/ ١٠٦) (٢٩٨١٢) إلا أنه موقوف، قال أبو حاتم: «الموقوف أشبه». ينظر: العلل لابن أبي حاتم (٥/ ٣٦٦).
وله شاهد عند الطبراني (٨٠٢٧) من حديث فضال بن جبير، عن أبي أمامة، به مرفوعا.
وهو خبر منكر، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٧): «فيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمع على ضعفه».
وله شاهد من حديث بلال رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٨٤)، ولا يصح؛ فيه الوازع بن نافع العقيلي، قال البخاري: «منكر الحديث». ينظر: لسان الميزان (٦/ ٢٢٩)، (٨/ ٣٦٧).

(١) هو من الجزء المفقود من معجم الطبراني، لكن كفانا المؤونة الحافظ ابن كثير رحمه الله في جامع المسانيد والسنن (٤/ ٥٦٨)؛ فإنه ساق إسناد الطبراني بتمامه، وهو من طريق ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عبادة، به.
ولا يصح؛ لضعف ابن لهيعة، وقد رواه أحمد (٣٧/ ٣٨٠) (٢٢٧٠٦) من طريق ابن لهيعة، وفيه: عن علي بن رباح عن رجل، عن عبادة.
وقد ضعف الخبر ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٣٣) وغيره.

فهذا يدل على جواز الاستغاثة بالحي الحاضر القادر، والرسول ﷺ قادر على ذلك، لكن مع هذا حمى التوحيد، وحمى حمى التوحيد، فقال لهم: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّما يُسْتَغَاثُ بالله»؛ ليعلمهم أنه لا ينبغي أن يستغيث أحد بغير الله، فهذا من الأدب مع الله، أما إذا استغاث المرء بمخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك، أو استغاث بغائب كأن يقول: «أغثني يا عبد القادر»، فهذا شرك أكبر مناف للتوحيد بالكلية، والذي في الحديث جائز، إلا أن الرسول ﷺ منع منه؛ حماية للتوحيد، وحماية لحمى التوحيد، مما يدل على أن الرسول ﷺ حمى التوحيد، وحمى جانب التوحيد، بل وحمى حمى التوحيد، وبين للأمة الشرك المنافي للتوحيد، وبين لهم الذرائع الموصلة للشرك، وبين لهم البدع القادحة في التوحيد، وبين لهم المعاصي المنقصة لثواب التوحيد، فالشرك مناف للتوحيد بالكلية، والبدع تقدح في التوحيد، والمعاصي تنقص ثواب التوحيد.

لكن عباد القبور يستدلون على ما ذهبوا إليه من دعاء غير الله بقصة الأعمى؛ فإنه جاء أعمى للنبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، ادع الله أن يعافيني».

فقال ﷺ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَاكَ فَهُوَ خَيْرٌ»، فأبى إلا أن يدعو له، فقال: اذهب فتوضأ وقل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ...».

أولا: الحديث ضعيف[1].

---

(١) سبق تخريجه.

ثانيا: على فرض صحته- نقول: الأعمى طلب من الرسول ﷺ أن يشفع له بدعائه، فأمره أن يذهب ويتوضأ ويتقرب إلى الله من أجل أن يجيب الله دعاء النبي ﷺ فيه، مثل ما في «صحيح مسلم» في قصة ربيعة بن كعب الأسلمي حينما كان يخدم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «سَلْ».

قال: أسألك مرافقتك في الجنة.

قال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟».

قال: هو ذاك.

قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

يعني: تقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وأنا أدعو لك، وكما فعل عمر والصحابة في توسلهم بالعباس في الاستسقاء، قال عمر: «قم يا عباس فادع الله»، فسر بهذه الجملة التوسل الذي ذكره بقوله: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ أي: تقربوا إلى الله بالوسائل، والوسائل جمع وسيلة، وهي العمل الصالح، فالصلاة وسيلة، والصوم وسيلة، لا أنك تتوسل بذوات المخلوقين والأموات والغائبين، هذا ما عليه المحققون، أما عباد القبور

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٠١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

فإنما تمسكوا بحكايات مكذوبة، أو منامات موهومة لا أصل لها.

وفي الحديث المعروف عندما يخرج الإنسان من بيته قاصدا المسجد يقول: «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا»(١)، فهل هذا يدل على جواز السؤال بالمخلوقين؟

نقول: لا.

وهل للمخلوقين حق على الله؟!

تقدم أنه ليس لك حق على الله، لكن الرب أخبر بأن لك حقا عندما تعمل الأعمال الصالحة ويسلم توحيدك، فهو حق تفضل وامتنان، لا حق وجوب،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح:١١١٥٦)، وابن ماجه في سننه (ح:٧٧٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ح: ٨٥)، والبيهقي في الدعوات (٦٥)، من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، به مرفوعا.
فضيل ضعفه ابن معين، والنسائي، والحاكم، وقال ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٠٩): «كان ممن يخطئ على الثقات، ويروي عن عطية الموضوعات».
وعطية مشهور الضعف.
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٩٢٠٢) من طريق فضيل، به موقوفا على أبي سعيد رضي الله عنه، قال أبو حاتم (العلل لابنه ٥/ ٣٦٦): «الموقوف أشبه».
وله شاهد عند ابن السني (٨٤) من حديث بلال رضي الله عنه، ولا يصح؛ في إسناده: الوازع بن نافع، منكر الحديث، **ينظر**: لسان الميزان (٨/ ٣٦٧).
وقد جاء ذكر حق السائلين في حديث أخرجه الطبراني في الكبير (ح:٨٠٢٧) من طريق فضال بن جبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه، به مرفوعا.
ولا يصح؛ فضال بن جبير ضعيف، **ينظر**: ديوان الضعفاء (ص٣١٨).

كما في حديث معاذ: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا»[١]، حق العباد على الله ليس حقا واجبا وإنما هو تفضل وامتنان، كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ❁ كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ❁ فبفضله وهو الكريم الواسع

ثم إن كثيرا من العصريين من المنتسبين للعلم ممن لا علم لديهم يقولون: سؤال الله بجاه النبي ﷺ مشروع، ويروون في ذلك حديثا: «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم».

نقول: أخطأتم، لا يجوز أن تسأل الله بجاه أحد.

ثانيا: هذا الحديث الذي يوردونه في كتبهم ليس صحيحا، بل ولا حسنا، بل ولا ضعيفا، بل لم يذكروه في كتب الموضوعات، قاله ابن تيمية[٢]، فكيف مثل هذا يعتمد عليه ويقال: هذا يدل على جواز التوسل بجاه النبي ﷺ؟! والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) سبق تخريجه.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩)، والاقتضاء (٢/ ٣١٨).

(١٤) باب قول الله تعالى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾

الآيتين [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وفي «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟!»، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨][1].

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العن فلانا وفلانا» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[2].

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يا معشر قريش – أو كلمة نحوها–

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٥/ ٩٩)، وهو عند مسلم موصولًا (ح:١٧٩١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٠٦٩).

اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا»[١].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٧٥٣)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٠٦).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾

[الأعراف: ١٩١- ١٩٢]

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

قصد بالترجمة: الرد على من تعلق بالأنبياء والملائكة والصالحين أو غيرهم؛ فإن جميع الخلق لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وهم مخلوقون مقهورون مربوبون لله، فكيف يساوون مع الله؟! وكيف يصرف لهم حق الله؟!

هذه الآية أبطلت ما يتعلق به المشركون من أربعة أوجه:

الوجه الأول: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أتجعلون في رتبة الله شخصا لا يستطيع أن يخلق حتى ذبابا؟! تجعلونه مثيلا ونظيرا لمن بيده الأمر كله؟! هذا هو الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، حتى الرسول ﷺ لا يستطيع أن يخلق ولا ذبابا، وهو مخلوق مقهور مربوب، فكيف تصرف له من العبادة ما هو حق الله -تعالى-؟! تطلب منه المدد والغوث والنجاة من النار! هذا هو الضلال بعينه.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ تجعلون المخلوق الموجود من العدم مثيلا للخالق العظيم القائم بأرزاق عباده؟! هذا هو الضلال.

الوجه الثالث: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الرسول ﷺ فمن دونه لا يستطيعون أن ينصروك، ولا يستطيعون أن يجلبوا لك نفعا، ولا يستطيعون أن يدفعوا عنك ضررا، أتجعلهم مثيلا لمن يستطيع أن يضر وينفع وبيده تدبير الدنيا والآخرة؟! هذا هو الضلال.

الوجه الرابع: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ هو عاجز عن أن ينصر غيره، بل هو عاجز عن أن ينصر نفسه أو ينفع نفسه.

وبهذا نعرف: أن العبادة لا تصلح إلا لله، وأنه لا يجوز صرف شيء منها لغيره، كما في آية فاطر: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣- ١٤]، وآية الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وآية الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ [الأحقاف: ٥].

قد يقول قائل: أنا لا أدعوه، ولا أصرف له شيئا من العبادة، وإنما أتوسل به لأجل أن يكون واسطة بيني وبين الله، وإلا فأنا أعرف أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله، لكن لمكانة هذا الولي ومنزلته أجعله واسطة بيني وبين الله.

نقول: غلطت، فربك لم يرض أن يكون بينه وبين خلقه واسطة، بل أمرك

أن تدعوه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والنبي ﷺ يقول: «وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ»[١]، ويقول: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[٢]، فربنا لم يرض أن يكون بينه وبين خلقه واسطة؛ كما في قوله تعالى عائبا على المشركين وذاما لهم ومبكتا لهم في صنيعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وفي «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][٣].

(كيف): كلمة استبعاد، استبعد فلاح وفوز وظفر هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنيع في نبيهم وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، استبعد سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!»، فأنزل الله معاتبا له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، فالأمور بيد الله، المعنى: امض في شأنك ودعوتك.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٢٧٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري معلقا (٥/ ٩٩)، وهو عند مسلم موصولا (ح:١٧٩١).



وقد استفدنا من هذه القصة: أن الرسل تجري عليهم المصائب، فإذا جرى عليك مصيبة أو حل بك مرض أو نكبة تذكر ما حصل للرسول ﷺ، فتخف عليك آلامك، وتتأسى به ﷺ وتقول: بما أن هذا حصل لسيد الخلق فمن أنا؟! ومعلوم ما جرى له ﷺ؛ فإنه لما ذهب للطائف سلطوا عليه صبيانهم وجعلوا يرمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه، فكل داع إلى الله لا بدَّ أن يمتحن، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وكما في قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

وذلك لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يسعى إلى الحيلولة بين العصاة وبين شهواتهم، فإذا حال بينهم وبين شهواهم وما يريدون؛ فلا بد أن يعملوا كل ما من شأنه أن يؤذيه، ولكن عليه الصبر.

وفي القصة أن الأمراض والمصائب تجري على الرسل.

ومنها نعرف أن الرسل لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأن النفع بيد الله وحده، فلا نتعلق بهم ولا نسألهم ولا نرجوهم، إنما نقتدي بهم فيما يبلغوننا عن الله ونتأسى بهم، أما أن نطلب منهم النفع والضر فلا، إذ هم لا ينفعون أنفسهم، بل هم بشر من جملة الخلق الذين خلقهم الله وأوجدهم، إلا أن الله فضلهم وعظمهم -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

والرسول ﷺ نهى أن يسأل من دون الله، أو يرفع إلى رتبة الله، كما في

حديث: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[1]، قارن بين هذا وبين قول البوصيري في «البردة»:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ✲ سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ✲ ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني: الدنيا والآخرة من بعض جودك، ماذا بقي لله؟! هذا هو الشرك بعينه، لم يعرف قول الرسول ﷺ: «لا تطروني»، وقوله ﷺ لابنته فاطمة: «سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[2]، ولكن كما قال الرسول ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[3]، ومن سنن من قبلنا أن قالوا: إن عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فهل وجد في هذه الأمة من قال: إن الرسول ﷺ كذلك؟

نقول: نعم، وجد في تركيا أناس يقولون: «إن الرسول ﷺ نور من الله وجزء من الله، وليس بشرا»، ففي إحدى السنوات الماضية اجتمعنا بمفتي تركيا، وكان معه أخو رئيس الوزراء واسمه: (سليمان)، وكان لا يجيد العربية ومعه مترجم، وسأل عن مسائل في الحج تتعلق بمذهب الحنفية وأجيب عنها، ثم انتقل فسأل عن الرسول ﷺ، فقال: ما رأيك بمحمد؟

فاستغربت هذا السؤال، وقلت: من أي ناحية؟

قال: هل هو بشر؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

قلت: نعم، بشر - بهدوء حتى أعرف ما عنده-، وسقت له الآيات: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] ونحوها.

فقال: هذا تنزل منه وتواضع، وإنما جاء على صورة بشر لأجل أن يكون مشاكلا للمدعوين من البشر؛ فإنه إذا شاكلهم صار ذلك أحرى لقبول دعوته، وإلا فهو ليس ببشر.

قلت: ما يقول المفتي؟

فقال: إنه جزء من الله!

كما قالت النصارى سواء بسواء، لكن مثل هذا لا يحتج عليه بالقرآن والسنة، هذا لا يصلح معه إلا الحجج العقلية.

قلت: (محمد) جزء من الله؟!

فقال: نعم.

قلت: هل محمد ﷺ موجود أو توفي؟

فقال: لا، ليس بموجود، بل مات؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

قلت: إذا كان محمد ﷺ مات وهو جزء من الله فيكون الرب مشلولا حينئذ! لأن جزءا منه مات.

فبقي ساكتا، ثم قال: أوقعتني في حيرة، حسبي الله عليك.

لم يستطع الجواب، هذا شأنهم، وهذا مصداق ما قاله الرسول ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بعدما يقول: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[١].

في هذا فوائد:

الأولى: فيه دليل على جواز القنوت في النوازل، فإذا قنت في الفجر عند نازلة فلا مانع من هذا كما دل هذا الحديث عليه، أما القنوت دائما فمعروف خلاف العلماء فيه، فلقد ذهب إلى مشروعيته الشافعية[٢]، واستدلوا بأن النبي ﷺ ما زال يقنت حتى فارق الدنيا[٣]، وقالوا: هذا صريح في أن الحكم لم ينسخ.

أما مذهبنا ومذهب كثير من أهل الحديث هو: أن القنوت في الفجر ليس بمشروع؛ فإنه جاء من حديث سعد بن طارق الأشجعي أنه قال: سألت أبي رضي الله عنه: أكان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي يقنتون في صلاة الفجر؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٠٦٩).
(٢) ينظر: الأم (٧/ ١٤٨)، والروضة (١/ ١٥٣).
(٣) يأتي تخريجه.

فقال: أي بني! محدث[1].

فدل على أنهم ما كانوا يقنتون، وإنما جاء في الأحاديث أنه كان ﷺ يقنت إذا نزلت به نازلة، كما في غزوة الأحزاب، فإنه جعل يدعو عليهم في صلاته، وعندما تنتهي النازلة فإنه ﷺ لا يقنت، بقي الجواب عما استدل به الشافعية وهو حديث: «ما زال يقنت حتى فارق الدنيا»، نقول لهم: الحديث فيه ضعف[2]، لكن على تقدير صحته فالمراد بالقنوت هنا هو: طول القيام، فالرسول ﷺ كان يطيل صلاة الفجر أكثر من غيرها حتى فارق الدنيا؛ فإن القنوت في لغة العرب يراد به طول القيام، كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، هذا يدل على أن المراد بالقنوت هو طول القيام، وهذه عادته ﷺ في الفجر أنه يطيل، وليس المراد أنه يدعو فيقول: «اللهم اهدنا فيمن هديت...».

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على أن الإمام بعدما يرفع رأسه يجمع بين التسميع والتحميد، يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد».

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٥٨٧٩)، والترمذي في جامعه (ح:٤٠٢)، وابن ماجه في سننه (ح:١٢٤١)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٩٥) (ح:١٢٦٥٧)، والدارقطني في سننه (ح: ١٦٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣١٠٤) وغيرهم من حديث أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أسن، عن أنس.
تفرد به أبو جعفر – وهو ضعيف- ولا يحتمل منه لو لم يخالف، فكيف وقد خالف؟! ينظر: الكامل (٦/ ٤٤٨)، المجروحين (٢/ ١١٨).

ومعنى (سمع الله لمن حمده): استجاب الله لمن حمده، ووجهه: أنك في صلاتك قرأت القرآن بعد تكبيرة الإحرام وبعد الاستفتاح المتضمن لدعاء العبادة وهو قولك: «سبحانك اللهم وبحمدك....» إلى آخره، فناسب أن تقرأ القرآن وأنت على أشرف حالة وأكملها وهي القيام، ولذا جاء في الحديث: «أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا»[1]؛ لأن الركوع والسجود حالة ذلك حالة خضوع وحالة انكسار، فلا ينبغي أن تقرأ كلام الله وأنت على تلك الحالة، وإنما تقرأ كلام الله وأنت على أشرف حالة وأكملها وهي: القيام، ثم بعد هذا تكبر وتركع وفي حال ركوعك تقول: «سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم»، ثم ترفع قائما فتقول: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: قد حمدناك يا ربنا وعظمناك وأثنينا عليك بالقرآن في حالة القيام، ثم عظمناك بقولنا: «سبحان ربي العظيم» فربنا استجب ولك الحمد على ذلك.

وجاءت الأحاديث في: (ربنا ولك الحمد) على أربعة أوجه:

الأول: (ربنا ولك الحمد)، بالواو[2].

الثاني: (اللهم ربنا لك الحمد)[3].

الثالث: (ربنا لك الحمد)، دون (اللهم)، ودون واو[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٨٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٧٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٧٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرابع: (اللهم ربنا ولك الحمد)[1].

قال ابن القيم: «لم يصح الجمع بين (اللهم) والواو»، فلا يقال: «اللهم ربنا ولك الحمد»[2].

ولكن غلط ابن القيم، بل جاء في «صحيح البخاري»[3] الجمع بين (اللهم) والواو.

ثم (الحمد): ما هو؟

الحنابلة عرفوه بقولهم: فعل ينبي عن تعظيم المنعم - وهو الله سبحانه-.

ولكن الصواب خلاف هذا؛ فإن هذا يرد عليه إيرادات؛ منها: أن الحمد قول وليس فعلا، والصواب في تعريف (الحمد) أنه هو: «الثناء على المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله»، وقد فرقنا بينه وبين المدح، فقولنا: «هو الثناء على المحمود» هذا يسمى مدحا، فزدنا: «مع حبه وتعظيمه» فهذا حمد، فالمدح أن تذكر فضائل الممدوح وتثني عليه فإن أحببته وعظمته صار حمدا، وإن أثنيت عليه بذكر محاسنه وفضله -فقط- فيكون مدحا، فكل حمد هو مدح وليس كل مدح حمدا.

قوله: (اللهم العن فلانا وفلانا): قاله الرسول ﷺ بعدما رفع رأسه من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٧٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) **ينظر**: زاد المعاد (١/ ٢١٢).
(٣) سبق تخريجه.

الركعة الأخيرة من صلاة الفجر، بعد قول: (سمع الله من حمده، ربنا ولك الحمد)، و(اللعن) هو: الطرد والإبعاد عن مواقع الرحمة، فهو يدعو عليهم بأن الله يبعدهم ولا يهيئ لهم أسباب الرحمة؛ لأنهم خرجوا يقاتلون الرسول ﷺ والمؤمنين معه في عقر دارهم؛ ولأنهم حينما حصلت الواقعة جعلوا يمثلون بالمسلمين وأخذوا يقطعون أنوفهم ويبقرون بطن حمزة رضي الله عنه إلى غير ذلك؛ ولأنهم لما حصل لهم ما حصل جعلوا يفتخرون بآلهتهم، فجعل أبو سفيان يقول:

«اعل هبل»، فقال الرسول ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ ؟».

قالوا: ما نقول؟

قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال ﷺ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»(١).

لذا لعنهم النبي ﷺ في صلاته من شدة مبالغتهم في الكفر وإيذائهم وغدرهم وتمثيلهم بشهداء المسلمين؛ ولكونهم عظموا آلهتهم؛ وأن النصر حصل بآلهتهم، فغضب الرسول ﷺ لما انتهكوا حرمة التوحيد، وتعرضوا لجانب الربوبية والألوهية، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وهؤلاء في وقتهم هم رؤوس الكفر،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.



وهم من أشد الناس إيذاء للرسول ﷺ، فالرسول ﷺ استبعد فلاحهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ومع هذا هؤلاء الذين لعنهم الرسول ﷺ في صلاته وخلفه سادات المهاجرين والأنصار يؤمنون على دعائه هؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم وصاروا من جملة المؤمنين ومن جملة أصحاب رسول الله ﷺ!

بهذا يتضح أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، وأن الأمور بيد الله، كما قال الله عنه: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢١- ٢٣].

وأبو طالب هو أعلم من مشركي زماننا المعتقدين أن الرسول ﷺ ينفع ويضر، فأبو طالب مؤمن بالرسول ﷺ مصدق له، كما تدل عليه أشعاره، لكن مع هذا الرسول ﷺ لم ينفعه، مع أنه صدقه في قوله وناصره وأيده وصبر معه على حصار الشعب ولكن لم ينفعه، لما صبر أبو طالب على حصار الشعب ثلاث سنين، وقاطعته قريش بسبب الرسول ﷺ قال قصيدته المعروفة يستعطف بها أناسا من قريش؛ لأجل نقض تلك الصحيفة التي تعاهدا فيها على مقاطعة بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يشاربوهم ولا يؤاكلوهم، أنشأ قصيدته المعروفة، وأولها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ❁ وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ❁ وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

إلى أن قال:

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ❁ ولما نطاعن حوله ونناضل[1]

أي: (كذبتم) يا قريش، (نبزى محمدا)؛ أي: نسلم محمدا تأخذونه من أيدينا؟! بل سنطاعن ونقاتل دونه.

وقال:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ❁ لدينا ولا يعني بقول الأباطل[2]

وقال في قصيدته النونية:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ❁ حتى أوسد في التراب دفينا

وقال:

ولقد علمت بأن دين محمد ❁ من خير أديان البرية دينا[3]

هذا تصديق منه، ومات على الكفر، وقد حرص الرسول ﷺ على هدايته لما حضرته الوفاة فقال: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[4]، وكان عنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقالا له: أترغب عن ملة

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٤)، والروض الأنف (٣/ ٢٣).

(٣) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٨٨٤) من حديث أبي سعيد بن المسيب رضي الله عنهما.

عبد المطلب؟ -ذكراه الحجة الملعونة، وهي: تعظيم الأسلاف والأكابر-، فقال: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»[1]، أبي أن يقول: «لا إله إلا الله»، تعظيما لأسلافه وأكابره، فأنزل الله تسلية للرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، لو كان الرسول ﷺ بيده النفع والضر لما ترك عمه الذي ناصره وأيده وصبر على الأذى معه يدخل النار، فكيف مع هذا يقال: إن الميت ينفع ويضر، وأنه واسطة بينك وبين الله؟!

بنوا على القبور المشاهد والقباب، وزخرفوها وذبحوا لها ونذروا لها النذور ونسوا الله الذي بيده الملك، وصرفوا محض حقه لغيره، هذا هو الشرك بعينه، ولكن كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ويقاس على وجوب الإنكار على قولهم: «اعل هبل» بعض النعرات مثل قولهم: «العز للعروبة»، هذا خطأ، وهذه ألفاظ خبيثة، لا تجوز بكل حال، لكن هذا مع الأسف كلام جرى على الألسن، تناقلته الصحف، وكتبه الكتاب وبعض المتتسبين للعلم، وإلا فالشريعة الإسلامية لا تعتبر العرب شيئا، إنما تعتبر الإسلام.

نعم؛ العرب لهم حق، ولهم فضل وشرف بنسبهم[2]، لكن إذا تخلفوا عن دينهم فلا خير فيهم، ولا في نسبهم، ولهذا قولهم: «القومية العربية»، «الجامعة

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الاقتضاء (١/ ٤١٩): «الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم...».

العربية»، كله خطأ، فانتسابهم للإسلام هو المتعين، والدليل على ذلك أن القرآن والسنة لا نجد فيهما أن العرب لهم فخر بسبب عروبتهم إنما بسبب إسلامهم، وأما قبل الإسلام فهم أكفر الخلق، قال الله -سبحانه-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولم يقل: «إنما العرب إخوة»، فلا فرق بين العربي والهندي والجاوي وغيرهم إلا بالتقوى، وقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١)، ولم يقل: «مثل العرب في توادهم...»، وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ»(٢)، ولم يقل: «العربي للعربي كالبنيان».

فالرابطة الحقيقة هي الإخوة الإسلامية الإيمانية، فإذا كنت عربيا ولكن أبوك لم يكن على دين الإسلام فهو العدو اللدود، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، إذا لم يكن على الدين القويم فأبعده الله، ولا يشرف لكونه عربيا.

وأصل القومية العربية -وهذا الذي نسمعه- إنما جاء في سنة ١٩١٠م، يعني: منذ سبعين سنة تقريبا، وأسبابه بمقتضى ما قرأناه: هو أنه لما حصلت الحركة في تركيا فكر ساسة الفرنسيين والإنجليز وعقدوا مؤتمرا في باريس،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٦٠١١)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح:٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٨١)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وقالوا: الأتراك ينتمون للإسلام، والعرب كذلك ينتمون للإسلام، فإذا اجتمعوا كونوا جبهة عظيمة، فلابد من التفرقة وإنزال العصبية العرقية منزلة الأخوة الإيمانية، فنفصلهم بقولنا هؤلاء: (عرب)، وهؤلاء: (أتراك)، فلا يربط بينهم دين، فأشاعوا هذا، وألفوا فيه مؤلفات، وهذا من أبطل الباطل، وفي الصحيح أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فتنادوا: «يا للمهاجرين»، والأنصاري يقول: «يا للأنصار»، -مع أنها صفة مدح وخير- غضب الرسول ﷺ، وقال: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ»[1]، هذا يقول: «يا للأنصار»، وهذا يقول: «يا للمهاجرين». فكيف بالعروبة؟! وهذا البحث شرحناه مستوفا في رسالة: «شرح صفة حجة الوداع»[2].

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[3].

حين أنزل على الرسول ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد الصفا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٥١٨)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) (الإبداع في شرح خطبة حجة الوداع)، وهي رسالة مطبوعة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٧٥٣)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٠٦).

فقال: «يا معشر قريش، يا بني فهر، يا بني كنانة -فاجتمعت عنده أشراف قريش-، كلمة إذا قلتموها ملكتم العرب، وأدت لكم العجم».

قالوا: لك ولأبيك عشرة.

قال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فقال أبو لهب الشقي: تبا لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ السورة[1].

فنذارة النبي ﷺ قسمان: نذارة عامة، ونذارة خاصة.

أما النذارة العامة: فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالله بعث محمدا ﷺ لينذر الناس كافة، ويرشدهم إلى ما فيه هدايتهم، وعزهم، وقال الله له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وكان ﷺ يأتي القبائل في منى في منازلهم فيقول: «من يجيرني حتى أبلغ رسالات ربي»[2]، فهو يطلب من يمنعه ومن يأويه حتى يبلغ ما أمر به، وهذا التبليغ هو: النذارة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٣٩٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٤٤٥٦)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦٢٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٦٥٥٦،١٧٧٣٥).

أما النذارة الخاصة: فهي كما جاء في هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] لأنهم أحق بنصحه ونذارته، قال الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]؛ يعني: اجعلوا وقاية تقيكم من النار، ووقاية تقي أهليكم من النار، والوقاية هي طاعة الله ورسوله ﷺ، فالإنسان متى امتثل أمر الله وانتهى عن نواهيه فقد جعل له وقاية تقيه من النار.

أما وقاية الأهل وهم: الأولاد والأقارب، فهي: نصيحتهم وإرشادهم والجد في إبعادهم عن كل ما يرديهم، لاسيما الأولاد فهم صفوة الأهل؛ فإن الإنسان إذا ترك أهله وشأنهم -لاسيما الأولاد- خابت الآمال، وانعكست القضية، فربما يتمنى وفاتهم ويقول: إن وفاتهم خير من حياتهم، متى اقترنوا بقرناء السوء، وانتهكوا حرمات الله، وانحرفوا عن الجادة فموتهم خير من حياتهم.

وكان سلفنا الصالح يهتمون بنصيحة أولادهم وأقاربهم، كما في قصة إبراهيم النخعي قال: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»[١]، هذا من باب النذارة الخاصة.

وكذلك لا تعتبر بالولد وإن أخذ شهادة الماجستير أو الدكتوراه أو غير ذلك من الألفاظ الأجنبية التي لا نعرفها، إذا ساءت أخلاقهم، وفسدت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٢٦٥٢).

أحوالهم، وقوي عامل الشر في نفوسهم؛ فالجهل خير لهم من هذا العلم السيئ الذي أرداهم[1].

إذا قوي عامل الشر فيه فما ينفعه أن يقول: «أخذت شهادة كذا من أمريكا»، أو حصلت على الدكتوراه، أو أن يكون أستاذ كرسي إلى غير ذلك من الألفاظ التي لا حقيقة لها؟!

وقد ذكر أحد الفرنسين أن الواجب على الغرب إلقاء الشبه على الأولاد الصغار في المدارس، أما المسنون فلا طاقة له بهم.

ويقول شاتليه صاحب كتاب «الغارة على العالم الإسلامي»: على المبشر إذا أراد أن يلقي محاضرة وفي الحضور أحد علماء المسلمين ألا يتعرض لدينهم لئلا يرد عليه، ولكن تكون المحاضرة في التاريخ وأخبار الأمم وما أشبه ذلك.

فإذا لم يكن في الحضور عالم فليبدأ المبشر بالثناء على الإسلام ليكون كالناصح المحب ويقول -مثلا-: ما أحسن الإسلام؛ حيث أن من شرائعه أن الضرورات تبيح المحظورات، وما أعظم الإسلام؛ حيث فيه أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، يا له من دين عظيم، وما أحسن الإسلام؛ حيث فيه أن المشقة تجلب التيسير، إلا أن الإسلام أخطأ حيث جعل حظ الذكر في

(١) ليس مراد الشيخ رحمه الله الحط من التعليم النظامي، والشهادات العليا، فالشيخ رحمه الله هو الذي أسس معهد الحرم المكي، وهو يمنح الشهادات النظامية، إنما مراده أن هذه الشهادات الجهل خير منها؛ إذا كان حاملها فاسدا، سيئ الخلق، رقيق الديانة؛ لأنها تكون حجة عليه -والعياذ بالله-.

الميراث مثل حظ الأنثيين، مع أنهم يمتون للميت بصلة واحدة، هذا ابنه وهذه بنته!

وأخطأ الإسلام في أن للرجل أن يطلق زوجته بغير اختيارها مع أنهم دخلوا هذا العقد بالتراضي فلا ينبغي أن يخرجوا منه إلا بالتراضي.

والجواب عن هذه المسائل واضح والحمد لله، لكن هؤلاء يريدون القضاء على الإسلام.

وقد اجتمع زويمر كبير المنصرين بجماعة من أتباعه المنصرين فقال: ماذا صنعتم؟

قال أحدهم: أخرجت رجلا من الإسلام إلى النصرانية.

وقال الآخر: نصرت اثنين.

فقال الخبيث: «بارك فيكم المسيح، لكن نحن لا نريد أن يدخل المسلمون النصرانية فهذا بعيد، ولا يتنصر إلا صغير ليس له أبوان يعلمانه الإسلام، أو مستهتر لا يهمه إلا لقمة العيش فإذا حصلها عاد إلى دينه، وإنما غرضنا أن تبعثوا الحيرة والشك في نفوس أولاد المسلمين».

فإذا كانت الحالة هذه: فما ظنك بمن يبتعثون أبناءهم وهم صغار إلى الجهات المختلفة من بلاد الكفر، لم يعرف العقيدة، ولم يعرف الإسلام، ولم يعرف إلا ما برق أمام عينيه، يا للأسف ويا للمصيبة، أين قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]!

ثم قال النبي ﷺ: «يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا»؛ يعني: اشتر نفسك بالإيمان بالله، والعمل الصالح؛ فإني لا أغني عنك من الله شيئا، ولو أنك عمي، فهذا لا ينفعك شيئا، وإنما ينفعك الإيمان والعمل الصالح، فمجرد القرابة لا تؤثر، ولهذا قال النبي ﷺ: «سَلْمانُ منَّا أهْلَ البَيْت»[(١)]، وهو عبد فارسي، لكن أسلم وصدق النبي ﷺ وآمن بما جاء به حقا، بخلاف عمه أبي لهب! كما قال الشاعر[(٢)] في هذا المعنى:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس ❁ كما وضع الشرك الشقي أبا لهب

ثم خص بالنذارة عمته أخت أبيه فقال: «يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا»؛ أي: اشتري نفسك بالإيمان بالله والعمل الصالح فلا أغني عنك من الله شيئا.

ثم خص بالنذارة ابنته التي هي بضعة منه فقال لها: «يا فاطمة بنت محمد

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٢)، وابن جرير في جامع البيان (١٩/ ٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٦٠٤٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١) (ح: ٦٥٤١) من طريق ابن أبي فديك، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا.
وهو خبر منكر، كثير واه، وأبوه فيه ضعف. ينظر: الجرح والتعديل (٧/ ١٥٤)، الكامل (٧/ ١٨٧).
وقد ضعفه الذهبي في تعليقه على المستدرك (مختصر تلخيص الذهبي ٥/ ٢٣١٣).
وله شاهد من حديث أنس، رواه البزار (٥٦٣٤)، وأبو يعلى (٦٧٧٢) بسياق طويل، وأمارة الوضع عليه بادية؛ في إسناده النضر بن حميد، وسعد الإسكاف؛ وهما متروكان. ينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ١٢٢ - ٤/ ٢٥٦)، لسان الميزان (٨/ ٢٧٢).

(٢) لم أقف عليه.



سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا»؛ أي: لا أملك إلا مالي الذي بيدي، فإذا قال هذا لابنته التي هي بضعة منه، وأنه لا ينفعها سوى الإيمان والعمل الصالح فما ظنك بمن قال: إن من دون النبي ﷺ كأحمد البدوي يكشف الضر ويجلب النفع ويستنصر به على الأعداء ويغيث المكروب ويفرج الكروب؟! سبحان الله! أين هذا من قول الرسول ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، فإني لا أغني عنك من الله شيئا»؟!

قال المصنف: «فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم؛ تبين له التوحيد وغربة الدين».

انظر إلى ما وقع في قلوب كثير من المؤلفين المنتسبين إلى العلم والذين ألفوا في طبقات الأولياء والصالحين يستغيثون بهم من دون الله، ويطلبون منهم المدد، وكشف الضر، ويقولون: إنهم ينفعون ويضرون، وأن قبر فلان ترياق مجرب، هذا هو الضلال بعينه، ألم يقل الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣]، وقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، أي دلالة أبلغ من هذه الآيات لمن كان له قلب؟!

فالرسول ﷺ في دعوته عم وخص، عم الناس كلهم، وأمرهم ونهاهم، وكتب إلى ملوك الأطراف، وبعث الدعاة، وخص بالنذارة أقاربه وأهل بلده الأدنين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم ينبغي أن يعلم ما عليه بعض الناس الآن من الانحراف الإلحادي، والميول عن الشريعة الإسلامية إلى ما يقوله الغرب، وتأثر كثير من الشبيبة بالكتب العصرية، التي لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا أقول كلها باطلة، بل فيها: حق وباطل، والحق فيها قليل، تقرأ صفحات كثيرة وتخرج دون نتيجة، الأسلوب قد يكون شيقا، لكن دون ثمرة، أما الكتب القديمة فجعلوا يسمونها: «الكتب الصفراء»، و«كتب القرون البالية»، عبارات توحي بالزيغ والإلحاد، وربما قصدوا بهذا كتب الحديث، فإن قصدوا بها هذا فهذا أشر وأكبر وأطم.

وقد كان أحد العلماء له ولد، وكان ينصحه، وأكثر النصيحة له، وحرص على هدايته وإصلاحه ونفعه، ولكن لم يفلح فتأسف وأنشأ يقول:

كم حسرة لي في الحشا ❁ من ولدي حين نشا
كنا نشا صلاحه ❁ فما نشا كما نشا[1]

(١) ينظر: البداية والنهاية (١٦/ ٣٧٨)، وطبقات الشافعية (٧/ ١٦٤).

(١٥) باب قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك.

حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟

قالوا: الحق، وهو العلي الكبير.

فيسمعها مسترق السمع -ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[١].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله -تعالى- أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة -أو قال: رعدة- شديدة خوفا من الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٤٧٠١).

فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟

فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير.

يقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»[(١)].



(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦) (٢١٦)، والطبري في جامع البيان (١٩/ ٢٧٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والطبراني -كما في جامع المسانيد (٨/ ٣٣٥)-، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ١١٥).

شرح باب قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

[سبأ: ٢٣]

أول الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣].

هذه الآية هي التي قال فيها بعض سلف الأمة: إن هذه الآية تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

وقطعه شجرة الشرك من القلب هو من أربعة أوجه:

الوجه الأول: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كانوا لا يملكون حتى مثقال ذرة فكيف يساوون بمن بيده الأمر كله والحكم والقضاء والتصرف؟!

قد يقول قائل: نفى الله أن يكون للمدعوين ملك ذرة، لكن يحتمل أن يكون لهم شرك في ملك ذرة.

نقول: نفى الرب هذا فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، وهذا هو الوجه

الثاني، نفى سبحانه أن تكون لهم شركة في ملك ذرة في السماوات والأرض، فكيف يساوون بالله -سبحانه-؟! يطلب منهم المدد ويسألون تفريج الكربات وإزالة الغم والهم، وهذا حالهم، لا يملكون مثقال ذرة بل وليس لهم شركة في مثقال ذرة!

الوجه الثالث: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ يعني: أن هؤلاء المدعوين من أنبياء أو ملائكة وغيرهم ليس منهم أحد هو معين لله ولا مشير، بل الرب هو الذي يتصرف بهذا العالم بما تقتضيه حكمته وإرادته من غير أن يحتاج إلى معين أو مشير، بل الأمر بيده.

الوجه الرابع: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، لا أحد يشفع، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا بعد أن يأذن الله له، والله لا يأذن إلا لأهل التوحيد، كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فالله لا يرضى إلا التوحيد، فالشفاعة هي ملك لله -سبحانه-.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: زال عنهم الغشي، وهم الملائكة، ومعلوم أنهم من أقوى خلق الله، وإذا كان الله نفى أن يكونوا معبودين معه، بل أخبر بما يحصل لهم من الخوف والرعدة والهيبة عندما يسمعون كلامه، فكيف يسألون من دون الله ويرجون من دون الله؟! ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وفي الآية الإيمان بالملائكة، وهو أمر لابد منه، كما في حديث جبريل الذي عليه تدور عقائد المسلمين، حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فمن

جملة ما جاء في الحديث قال: «مَا الْإِيمَانُ؟، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ...»[1]، فإنكار الملائكة كفر.

والإيمان بالملائكة هو أن تعتقد يقينا بأن الملائكة عباد مكرمون، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٧- ٢٨]، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فهذا الذي يجب أن تعتقده في الملائكة، وإن تنوعت عبارات الناس ما بين محق ومبطل.

فالحق أن الملائكة عباد مكرمون، وأن الله أوجدهم وخلقهم لعبادته، وهم لا يعصون الله ما أمرهم.

والآيات في إثبات وجود الملائكة كثيرة جدا، وقال بعض العلماء: «إنهم أجسام نورانية»، ولكن نحن نقول: الله أعلم بحقيقة ذلك، بل نؤمن بأن الملائكة موجودون.

وفي الآية إثبات أن الله يقول، والمراد أنه سبحانه يتكلم، خلافا للأشاعرة، فالله أخبر أنه يتكلم ويقول حقيقة كما دل عليه القرآن: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٥٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ولا نقول: إن الله يتكلم من جنس كلام المخلوقين، بل نقول: إن الله يتكلم على وجه يليق بجلاله.

فإذا قال الأشعري الذي ينفي عن الله الكلام: لا يجوز لك أن تثبت أن الله يتكلم؛ لأن من لازم الكلام أن يكون له لسان وشفتان ويكون له لثة، والله منزه عن هذا.

قل له: أنا لا أقول بإثبات ما ذكرته، بل أثبت ما أثبته القرآن والسنة، وأنفي ما نفاه القرآن والسنة، وأسكت حيث سكت القرآن والسنة.

فيقول لك: بل يلزمك هذا؛ إذ لا نعرف في كلام العرب (كلاما) دون هذه اللوازم.

فقل له: أجيبك من وجهين:

أولا: هل أنت تثبت أن لله ذاتا؟

يقول لك الجهمي والمعتزلي والأشعري: نعم، نحن نثبت أن لله ذاتا يقينا.

قل له: هل هي مشابهة لذوات المخلوقين؟! أنا لي ذات، فهل ذات الله مثل ذاتي؟!

يقول لك: لا، بل أثبت لله ذاتا حقيقة ليست بعدم، لكن لا تشبه ذوات المخلوقين.

قل: وأنا أثبت لله كلاما حقيقة، لا يشبه كلام المخلوقين.

فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فلا يستطيع أن يرد عليك حينئذ؛ لأنك تلزمه بإثبات نظير ما أثبته، فلا محيد له حينئذ، فكيف تثبت أن لله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين، وتنفي عنه الصفات خشية المشابهة؟![1].

ثم نقول للأشعري -على سبيل التنزل معه-: لا يلزم من إثبات الكلام أن يكون المتكلم له لسان وشفة، إنما هذا في الآدمي، فقد جاء في القرآن والسنة بأن هناك من يتكلم دون أن يكون له شيء من ذلك، كما في «صحيح مسلم» في قصة الحجر الذي كان يسلم على النبي ﷺ وهو في مكة، فإنه قال: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ»[2]، فهل له لسان وشفتان؟!

وكذا أخبر الرب بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والتسبيح قول، فهل لهذه المخلوقات لسان وشفتان، فيبطل حينئذ استدلاله وتشبيهه.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيه إثبات صفة العلو لله -سبحانه-، فنقول: له علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

---

(١) وفي هذا المعنى قال العلامة محمد سالم بن عبد الودود في منظومته (جملة العقائد):
فإن يقل جهميهم: كيف استوى؟،،، كيف يجيء؟ فقل له: كيف هو؟!

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

له علو الذات، وهو مستو على عرشه، بائن من خلقه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾؛ أي: على السماء ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الملك: ١٦- ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال الله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، والجهمية والمعطلة يقولون: (استوى) بمعنى: (استولى)، ويستدلون ببيت مولد:

قد استوى بشر على العراق ✵ من غير سيف ولا دم مهراق(١)

المعنى: استولى بشر على العراق، فقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، إلى غير ذلك من الآيات، المعنى عندهم: (استولى)، فقل له: لا داعي إلى أن أذكر الأدلة على الاستواء فهي واضحة، لكن أريد أن أخاصمك فيما تقوله أنت: أتقول استوى بمعنى استولى؟!

أنت عربي، و(استولى) كلمة عربية، ومعنى: (استولى)، أن هناك من ينازع الله على العرش ويقاتله، ثم إن الله استولى عليه؛ هذا ما تفيده مادة (استولى)؛ كما يقال: «فلان استولى على البلد»؛ أي: بعد مغالبة ومقاهرة بينه وبين شخص آخر، ثم تغلب عليه فإذا فسرتم الاستواء بالاستيلاء؛ فكأن هناك

(١) لم أقف على البيت في ديوان الأخطل المطبوع، وقد نسبه إليه جماعة من أهل العلم.

من يغالب الرب وينازعه على العرش ثم استولى الرب عليه[١]، فيبطل قولكم.

فأنت تحتج عليه وتبطل كلامه من تفسيره هو، سواء بسواء، دون أن تحتاج إلى أدلة أخرى، مع أن سلفنا الصالح كلهم قالوا في تفسير (الاستواء): نثبته كما أثبته القرآن، استواء يليق بجلال الله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ولا نقول: استوى كاستوائي على الأرض، أو كاستواء فلان على الكرسي، ولكن نقول: «آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»، ونستريح من هذه الشقشقة وهذه الإلزامات وهذا الكلام الفاسد الذي يتكلمون به ويؤيدون به أباطيلهم دون أن يقيموا عليه دليلا من كتاب ولا سنة ولا عقل سليم.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك.

حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟

قالوا: الحق وهو العلي الكبير.

فيسمعها مسترق السمع -ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن،

(١) ينظر: التمهيد (٧/ ١٣١)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٦١).

فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[١].

قوله ﷺ: «إذا قضى الله الأمر في السماء»؛ أي: إذا تكلم الله بالوحي بأن أراد أمرا أو نهيا أو إخبارا بشيء عند ذلك تسمع الملائكة كلام الرب من جنس السلسلة التي تجر على صفوان؛ أي: على حصاة ملساء يسمع لها طنين، ولكن لا يدرى ما ذلك، هذه صفته؛ يعني: يسمعون الكلام وصفته من جنس السلسلة على الصفاة الملساء، فإذا سمع أهل السماء ذلك خروا سجدا لله -تعالى- وأصابهم من الفزع والغشي إعظاما لله، وأصابهم من الرعدة والخوف هيبة لله، ففي هذه الجملة دليل على إثبات أن الله يتكلم خلافا للأشاعرة كما مر بيانه، وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحاب الرسول ﷺ ومما لا خلاف فيه بين التابعين، وإنما وقع الخلاف فيما بعد، حينما ظهر أناس يزعمون أن الله إذا وصف بالكلام أنه يكون مشابها لخلقه، وقد مر بيان فساد هذا القول، وأن مذهب المسلمين من سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين خلاف ذلك، وهو إثبات أن الله يتكلم حقيقة.

(خضعانا)؛ أي: خضوعا وهيبة وخوفا من الله، عندما يسمعون ذلك.

(كأنهم سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك)؛ أي: يصل إلى قلوب الملائكة فيخرون سجدا لله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه؛ باختلاف يسير (ح: ٤٧٠١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: زال عنها الغشي وذهبت الرعدة سأل بعضهم بعضا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾؛ أي: قال الله الحق، فإنه هو الحق، ولا يقول إلا الحق، وهو العلي الكبير الذي لا أكبر منه، له علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، كما مر بيانه في الآية.

«فيسمعه مسترق السمع»؛ يعني: أن الشياطين يركب بعضهم بعضا حتى يصلوا إلى عنان السماء فيختطفوا تلك الكلمة فيلقيها إلى الشيطان الذي يليه ثم الشيطان إلى من تحته، وقد وصف سفيان بن عيينة ما كانت تفعله الشياطين باستراق السمع أن حرف يده وبدد بين أصابعه، فجعل يده على حرف؛ أي: على الجانب الذي يلي الإبهام أو الخنصر، هذا هو الحرف.

«وبدد بين أصابعه» يبين صفة ركوب الشياطين عندما يريدون أن يسترقوا السمع من أجل أن يلقوا ما يسمعونه إلى الكاهن أو الساحر الذي يتقرب إليهم، ومعلوم أن الشيطان لا يخدم الإنسي أبدا إلا بصرف شيء من العبادة له، أو بترك شيء من الواجبات، أو بفعل شيء من المحرمات كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «النبوات»[1].

واستنبط العلماء من هذا الحديث: عظم طلب العلم! وأن الإنسان مهما فعل في طلب العلم فلا يعتبر كثيرا، فإن الشياطين حرصت على العلم حتى أن الواحد منهم يركب الآخر من أجل أن يسمعوا كلمة يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، هذا يدل على أن المسلم مهما بذل في تحصيل العلم فلا يعد كثيرا.

---

(١) ينظر: النبوات (٢/ ١٠٠).

هذه الشياطين الذين هم أعداء الله والذين حذرت منهم الكتب السماوية، وجميع الرسالات، ومع هذا يحرصون على إغواء بني آدم بما يفعلونه من ركوب بعضهم بعضا من أجل أن يتحصلوا على كلمة يروجون بها أكاذيبهم، فكيف بالمسلم؟! كيف لا يحرص ويعمل من أجل أن يرد تلك الكلمة وأشباهها من الإلحاد الذي يراد إيراده على الشريعة الإسلامية؟!

«حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه»؛ أي: أن السحرة والكهان يتقربون للشياطين، ثم إن الشياطين يأتون إليهم بتلك الكلمة التي سمعوها من السماء ثم إن الكاهن يزيد عليها ما يزيد، فيروج باطله وأكاذيبه بسبب تلك الكلمة.

وقد يضيفون هذه المعلومات إلى النجوم كما عليه جاهلية العرب، يزعمون أن النجوم هي المدبرة، وأنها هي التي تتصرف، وهذا كفر بالربوبية.

والتنجيم هو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهم يستدلون على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية بهذه النجوم، فيقولون: يولد عظيم، أو يموت عظيم، أو يحصل كذا، أو تأتي أمطار، أو تأتي رياح، أو تحصل هزيمة أو يحصل انتصار وما أشبه ذلك، وهذا كله من الأباطيل، كما يأتي في بيان شيء من أنواع السحر.

فإن النبي ﷺ قال: «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[1].

---

(١) يأتي تخريجه في موضعه من المتن.

وكان الخليفة المنصور مولعا بعلم النجوم، فكان يتعاطى التنجيم ويقرب المنجمين، ويسألهم عن المغيبات، وهذه طبيعة البشر؛ فإن الإنسان مولع بالتطلع إلى مستقبله، فأبو جعفر سافر من بغداد يريد الحج، فلما لم يكن بينه وبين مكة إلا أربعة أيام أمر بضرب خيامه عند طلوع الشمس، وأن يبقوا ذلك اليوم في ذلك المكان، وقال لحاجبه الربيع: هل لك أن نتمشى حتى تنصب الخيام؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، وبينما هم يمشون في البرية إذ أبصر أبو جعفر أبياتا أمامه فقرأها فتغير وجهه، فقال لحاجبه الربيع: هل أبصرت ما أبصرت؟

قال: لا يا أمير المؤمنين لم أر شيئا.

قال: اقرأ ما كتب على هذا الجبل.

قال: لا أرى شيئا.

فعرف أنه أمر خاص به، قال: ماذا ترى يا أمير المؤمنين؟!

قال: أرى مكتوبا على رأس هذا الجبل:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ❁ سنوك وأمر الله لابد واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم ❁ لك اليوم من ريب المنية مانع

فما مكث بعدها إلا ثلاثة أيام وتوفي[(١)].

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ١٠٧)، والبداية والنهاية (١٣/ ٤٧١).

فالحاصل: أن التنجيم هباء، لا أصل له، فالأمور بيد الله.

ولهذا بعض أئمة الدعوة[1] كره أن يقال: «هذا هبوب الثريا» عندما تهب الرياح في الصيف، كانت العامة تقول: «هذا هبوب الثريا»، «هذا هبوب الجوزاء»، وبعض أئمة الدعوة كره هذا قال: وإن كان الإنسان لا يعتقد أن الثريا هي التي أوجدت الهبوب بل هي بيد الله، لكن لا ينبغي إضافته إلى الثريا ولا إلى الجوزاء بأن يقال: «هبت هبوب الثريا» أو الجوزاء أو ما أشبه ذلك.

(حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟!)؛ أي: أن الناس يقولون: فلان الكاهن صدق، ألم يقل لنا يوم كذا: (ينزل مطر)، ونزل، إذًا قوله: (يولد عظيم) صحيح، و(الزروع تموت) صحيح؛ لأنه سبق أن أخبرنا أنه ينزل مطر ونزل، وقد أخبرنا بأن الأودية تجري من السيول وقد وقع، تقع كلمة الحق لكن يزيد معها مئة كذبة فتروج ويصدقون تلك المئة بسبب الواحدة التي استرقها أولياؤه من السماء، والله يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

أما معرفة الكسوف والخسوف فقد قرره العلماء وقالوا: يمكن معرفته

(١) كالشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله، ينظر: مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٢١٠).

والوصول إليه بالحساب، لكن لا ينبغي أن يصدق ولا يكذب، هذا رأي ابن تيمية وغيره[1]، وإلا فمعرفته ممكنة، مثل ما أننا الآن نعرف متى ينتهي طول الليل، إذا جاء برج الجدي نعرف أنه هو نهاية طول الليل ونهاية قصر النهار، وإذا جاء برج الحمل تساوي الليل والنهار، وإذا جاء برج السرطان بلغ الليل نهاية القصر والنهار نهاية الطول، ثم يأخذ الليل بالزيادة حتى يأتي برج الميزان فيتساويا ويعتدلا، ثم يأخذ الليل بالنقص والنهار بالزيادة، ثم يأتي برج الحوت، فيطول الليل ويقصر النهار، ثم إذا جاء الدلو تساويا.

والصحف والمجلات التي فيها البروج ما تنبغي قراءتها، هذا ليس بشيء، هذا من العناء، ولا ينبغي أن يقرأ الإنسان ما يؤثر على عقيدته، مع أنها كلها حدس وظن وتخمينات مثل ما في كتب الطب ككتاب «تسهيل نيل المنافع»، ومثل كلام داود الأنطاكي في «تذكرته»، كتب عليها بعضهم: «اقرأ تفرح، جرب تحزن»، إذا قرأته قلت ما هذا؟! أتى لك بالدنيا كلها، لكن لو جربت ما وجدت شيئا أبدا، والمجلات التي يكتبون عليها: «جرب حظك»، «اعرف حظك»، «كيف تعرف حظك؟» كلها باطلة لا أصل لها، وهي من الخزعبلات.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً، -أَوْ قَالَ رِعْدَةً شَدِيدَةً-، خَوْفًا مِنَ اللهِ عز وجل.

---

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٢٦).

فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟

فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ قَالَ: فَيَقُولُونَ: كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

الإرادة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية قدرية.

والقسم الثاني: إرادة شرعية دينية.

فالكونية القدرية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، هذه هي الإرادة الكونية القدرية.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦) (٢١٦)، والطبري في جامع البيان (١٩/ ٢٧٨)، وابن خزيمة، واللفظ له في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والطبراني - كما في جامع المسانيد (٨/ ٣٣٥)-، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ١١٥) وغيرهم، من طرق عن نعيم بن حماد - وهو الخزاعي-، ثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان، به مرفوعا.

نعيم فيه ضعف، وله مناكير، قال الذهبي (السير ١٠/ ٦٠٩): «لا يجوز لأحد أن يحتج به»، والوليد مشهور التدليس، وفي سماع رجاء بن حيوة من النواس نظر، ينظر: تاريخ دمشق (١٨/ ٩٦)، وقد قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم الملقب بدحيم في هذا الحديث، «لا أصل له»، ينظر: تاريخ أبي زرعة (ص٦٢١).

والإرادة الدينية الشرعية هي المذكورة في أول الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، إلى غير ذلك مما دل عليه القرآن العزيز.

فالإرادة الكونية القدرية عامة في حق الكافر وغير الكافر، وأما الإرادة الدينية الشرعية فهي خاصة بأهل الإيمان.

فإن قلت: هل في هذا عذر للجهمية ونحوهم، الذين يقولون: إن العبد مجبور على أفعاله، وأنه كالشجرة تقلبها الرياح يمنة ويسرة؟!

فيكون ما ارتكبه المرء من جرائم هو معذور فيها؛ لأن هذا شيء مقدر عليه، وما قدر الله لا يمكن أن يتخلص الإنسان منه؛ لأن قدرة الله أعم وأشمل وأقوى من إرادة الإنسان؟!

نقول: لا، هذا وإن قاله الجهمية لكن لو قيل بهذا القول لبطلت التكاليف الشرعية ولم يبق في الشريعة أي تكليف، لكن نقول: الله -سبحانه- خلقك وجعل لك عقلا تميز به بين الأشياء، وجعلك تختار به ما هو الأصلح لك في دينك ودنياك، وما هو الأوفق لك في شؤونك ومعادك ومعاشك، حتى في أمور دنياك، ولم يخلقك بدون عقل، ولكن أنت الذي ارتكبت هذه الجريمة برغبة منك واختيار؛ لأن الله خلقك وخلق لك عقلا وبين لك الضلال والطريق السوي، فأنت الذي اخترت هذا الطريق الضال المنحرف، والله لم يجبرك عليه، إنما أخبرك وأمرك ونهاك وأرسل إليك الرسل وأنزل لك الكتب ولكن أنت

الذي فعلت هذا، فأنت المسؤول؛ لأن هذا صدر منك برغبة واختيار دون إكراه، ومما يبين هذا -أيضًا- ويوضحه ما جرى في قصة عمر رضي الله عنه، فإنه رفع إليه سارق سرق، فأمر عمر رضي الله عنه بقطع يده، فقال السارق: «يا أمير المؤمنين، لم تقطع يدي؟!».

قال: «لأنك سرقت».

قال السارق: «يا أمير المؤمنين سرقت بقضاء الله وقدره، فالله قدر علي هذا قبل أن يخلقني».

قال عمر: «ونحن نقطع يدك بقضاء الله وقدره»[(١)].

فاحتج بالقدر واحتج عليه لإقامة الحد بالقدر - أيضا -، نظير ما احتج به سواء بسواء، مما يدلك على أن احتجاجه ليس بشيء.

فإذا قال قائل: هذا الأمر قدر علي.

نقول له: إذن ينبغي أن تصعد هذا الجبل وتلقي بنفسك، وتقول: قدر علي.

يقول: لا؛ لأن في هذا تلفي.

نقول: -أيضًا- ذاك فيه تلف دينك، وعصيان ربك.

---

(١) لم أقف على هذه الحكاية مسندة، وإنما ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في المنهاج (٣/ ٢٣٤) فقال: «ويذكر أن رجلا.....».

وأما قولهم: هل الإنسان مخير أم مسير؟

نقول: الإنسان مخير ومسير، مخير من جهة فعله، ومسير من جهة أمر الله، لكن هو الذي فعل هذا باختياره، فسلك هذا الطريق مع قدرته أن يسلك الطريق الآخر.

(إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي)؛ أي: تكلم سبحانه في السماء؛ فإن الله يتكلم حقيقة كما يليق بجلاله، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، كما نقول نظير هذا في سائر الصفات التي أثبتها لنفسه، مع نفي المشابهة لخلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(أخذت السماوات منه رجفة): (السماوات) مفعول، و(رجفة) فاعل، هذا يدل على أن لها إحساسا وشعورا، لكن قد نصل إليه وقد لا نصل، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وفي آية الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، كل هذا يدل على أن لها إحساسا، وأنها تعرف خالقها وبارئها، حتى الحيوانات تعرف ذلك، ألا ترى أنه في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما خرج يستسقي؛ كما في الحديث، قال: «فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك!

قال سليمان: ارجعوا فقد كفيتم بدعوة غيركم!»[1].

فإن البهائم لها إحساس، تعرف أن لها خالقا وموجدا أوجدها، ألا ترى البهيمة إذا أخذتها الولادة أو حزبها شيء رفعت بصرها إلى السماء؛ لعلمها أن خالقها وفاطرها ومفرج كربتها في السماء، هذا أمر معلوم معروف.

وفي الحديث فوائد:

الأولى: إثبات الإرادة لله، كما سبق ذكره.

الثانية: إثبات الكلام لله.

الثالثة: إثبات الصوت لله، لكن ليس كصوت المخلوقين.

الرابعة: فيه فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو السفير بين الله ورسله، وهو شديد القوى، وقد أثنى الله عليه في القرآن فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢١].

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (ح: ١٧٩٧)، والحاكم في مستدركه (ح: ١٢٧٥) وغيرهما من حديث محمد بن عوف مولى أم يحيى بنت الحكم، عن أبيه، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رفعه: «خرج نبي من الأنبياء....» فذكره.
محمد وأبوه ثقتان. ينظر: سؤالات البرقاني (ص٥٤- ٦١)، إلا أن عونا لم يسمع من الزهري، ينظر: التاريخ الكبير (٧/ ١٦).
ورواه أحمد في (الزهد ص٧٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٢٥٣) (ح: ٢٩٤٨٧)، والطبراني في الدعاء (٩٦٨) من حديث زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي، به.
زيد ضعيف، وأبو الصديق تابعي ثقة، تكلم فيه بعضهم، وقال الإمام أحمدت وشيخه وكيع: «زيد العمي عن أبي الصديق ليس بشيء». ينظر: العلل (٣/ ٤٦٤) (٥٩٨٣)، الطبقات لابن سعد (٧/ ٢٢٦)، الضعفاء للعقيلي (٢/ ٧٤)، الميزان (٢/ ١٠٢).

واسم جبريل: (عبد الله)، وقالوا: كل اسم ختم بإيل فهو عبد الله؛ لأن (إيل)؛ يعني: الله.

وهنا نكتة في استفتاح النبي ﷺ في صلاة الليل فإنه يستفتح بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

معلوم أن الله رب كل شيء ومليكه، فلم خص الرسول ﷺ بالذكر جبرائيل وميكائيل وإسرافيل دون بقية الملائكة؟ ودون بقية المخلوقين؟

نقول: في هذا نكتة، وذلك أنك إذا كنت تصلي فأنت تطلب حياة قلبك؛ فإن الصلاة تغذي القلب وتنيره بالإيمان باللجوء إلى الله، والالتفات إلى خالقك وبارئك؛ فذكر جبريل؛ لأنه أمين الوحي، والوحي فيه حياة القلوب، وحياة الأرواح، فهو الذي جاء بالنور المحيي للقلوب: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهو: الوحي.

وذكر ميكائيل؛ لأنه موكل بالأمطار وإنبات النباتات التي فيها حياة الأبدان، فالأبدان محتاجة للأكل والشرب.

وذكر إسرافيل؛ لأنه موكل بالنفخ في الصور، وفيه حياة الأجسام بعد وفاتها، فالثلاثة كلهم خصوا بنوع من الحياة، هذا بحياة القلوب، وهذا بحياة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأبدان في الدنيا، وهذا بحياة الأجسام في الآخرة، عندما ينفخ في الصور فيقوم الناس من قبورهم حفاة عراة غرلا.



(١٦) باب الشفاعة

وقول الله – تعالى-: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] الآيتين.

قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولا، ثم يقال له: (ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع)».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟

قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه»[1]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله -سبحانه- هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص». انتهى كلامه.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٩٩).

شرح: باب الشفاعة

الشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

أما المنفية: فهي التي نفاها القرآن ونهى عنها الرب، وأخبر أن فيها شركا.

والمثبتة: هي التي أثبتها الله بإذنه، فالأنبياء والصالحون يشفعون ولكن بعد إذن الله لهم.

والشفاعة المنفية: جاءت في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

أما الشفاعة المثبتة: فهي التي أثبتها القرآن تكرمة للشافع بأن يشفع للعصاة أن يدخلوا الجنة، أو لمن دخل الجنة أن يزاد له في الثواب، ورفع الدرجات، وهي إحسان للمشفوع له.

والشفاعة الشركية: هي ما يفعله عباد القبور، حيث يقولون: «إنا نطلب الشفاعة من فلان الولي، أو من فلان النبي، أو من الملك»، وهذا هو الشرك بعينه؛ لأن طلب الشفاعة في الحقيقة هو دعاء، فلا يجوز صرفه إلا لله، ثم في هذا تنقص لجناب الربوبية، وهم يقولون: «هذا تعظيم للإله؛ لأننا لا نصل إليه لكمال عظمته، ولكثرة ذنوبنا ومعاصينا التي أبعدتنا عنه، فنحن محتاجون إلى من يشفع عنده ويرفع حوائجنا إليه».

نقول لهم: أخطأتم، هذا عين التنقص لله، فالمشفوع عنده من الملوك ونحوهم يقبل شفاعة الشفيع لأمور:

إما أن يكون محتاجا إليه، كالملك يقبل شفاعة الوزير أو شفاعة من عز عليه، وذلك لحاجته إليه، فلو رد شفاعته لربما تنكر عليه هذا الوزير، أو تنكر عليه هذا الرئيس، فلا يخلص له، ولا يوليه الاهتمام، والرب منزه عن هذا، فهو الغني بذاته عن الوزير، وعن كل خلقه، أما الملك فهو فقير محتاج لأعوانه ووزرائه، فربما قبل شفاعتهم على كره ومضض، لا يستطيع أن يخالفهم لحاجته إليهم، فهل مثل هذا يكون في حق الله، كيف يساوى الله بالمخلوقين؟!

أو أن يريد الملك بقبول شفاعة الشافع التقرب إلى هذا الشافع، والرب منزه عن هذا، ولهذا قياس شفاعة الأنبياء والأولياء والصالحين عند الله على شفاعة الوزراء عند الملوك قياس باطل، مع الفارق الواضح البين، أيجعل رب العالمين الذي بيده النفع والضر وبيده الرزق والخلق والتدبير نظير هذا الضعيف المسكين الفقير المحتاج لجنده والمحتاج إلى وزرائه؟! هذا هو الضلال بعينه.

لهذا لا يجوز أن نطلب الشفاعة من غير الله، وإنما نقول: «اللهم شفع فينا نبيك، اللهم لا تحرمنا شفاعته».

ألا ترى أن المسلمين عندما يقومون يصلون على الطفل الصغير يقولون في دعائهم: «اللهم اجعله ذخرا لوالديه وفرطا وأجرأ وشفيعا مجابا»[1]، تسأل

---

(١) سبق تخريجه.

الله بأن يجعل هذا شفيعا لوالديه، ولا تطلب من الفرط أن يكون شفيعا لوالديه، إنما تطلب من الله.

ثم نحن نشفع للميت حينما نصلي عليه ولو كان وليا أو صالحا كما أخبرنا النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[1]، فدل على أن الأحياء هم الذين يشفعون للميت، ونقول: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه»، لكنهم عكسوا القضية، فطلبوا من هذا الميت أن يشفع لنا، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا.

والشفاعة أقسام منها: شفاعة النبي ﷺ، وهي الشفاعة الكبرى.

وكذلك شفاعة الرسول ﷺ والأنبياء والصالحين لأصحاب الكبائر الذين استحقوا أن يدخلوا النار بجرائمهم وذنوبهم ألا يدخلوها.

وشفاعتهم لمن دخل النار وعذب فيها أن يخرج منها ويدخل الجنة، خلافا للمعتزلة والخوارج، الذين ينكرون أن أصحاب الكبائر تنالهم شفاعة النبي ﷺ، وشفاعة الصالحين؛ لأنهم يرون: أنهم خالدون في النار.

وكذلك نقر بأن أهل الجنة يشفع لهم بزيادة درجاتهم، ورفع منازلهم، كما يأتي بيانه.

---

(١) سبق تخريجه.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿وَأَنذِرْ﴾؛ أي: أعلم، ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهم: المؤمنون، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، لا ولاية لهم تجيرهم من عذاب الله، ولا شفاعة تمنعهم من عقاب الله، فالشفاعة هنا منفية، فما ينفعهم إلا الإيمان بالله والعمل الصالح، شفاعة فلان وفلان لا تنفعهم، لا ننكر الشفاعة، إلا أن الشافع لا يشفع إلا بعد إذن الرب أن يشفع، ثم إن الرب لا يأذن لأحد إلا لمن رضي قوله وعمله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا يرضى الله إلا التوحيد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم ينيبون ويرجعون إلى ربهم بالإيمان والعمل الصالح، قال الفضيل: «ليس كل خلقه عاتب، وإنما عاتب الذين يتقون ويفقهون»(١).

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أي: لا أحد يشفع لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بعد إذن الله له، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم(٢) في قصة مجيء الناس للنبي ﷺ يطلبون منه أن يشفع لهم حتى يحاسبهم الرب فيستريحوا من كرب ذلك الموقف،

---

(١) **ينظر**: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٤٧٦)، ومسلم في صحيحه (ح:١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

والحديث معروف: «يأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، وأنت الذي خلقك الله بيده، وأنت الذي أسجد لك ملائكته، وأنت الذي نفخ فيك من روحه، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من كرب هذا الموقف، فيعتذر آدم عليه السلام، ويذكر أكله من الشجرة، وقد نهي عن الأكل منها.

ثم يأتون نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى حتى ينتهوا للنبي ﷺ، فيقول: أنا لها، أنا لها، فيخر ساجدا بين يدي الله تحت العرش، فيفتح عليه بمحامد لا يحسنها الآن، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»، لاحظ قول الله له: «واشفع تشفع»، دل على أنه لا يشفع حتى يأذن الله له، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فالشافع لا يملك الشفاعة، ولا يجوز لك أن تأتيه، وتقول: «يا رسول الله اشفع لي»، وإنما تطلبها من الله؛ لأنه لا يتمكن أن يشفع لك ولا لغيرك إلا بعد أن يأذن الله له في ذلك، فإذا أذن له في ذلك شفع، وبهذا يتضح أن طلب الشفاعة من غير الله شرك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤]، يدل على أنهم اتخذوا أولياء من دون الله يرجون شفاعتهم؛ هذا شرك المشركين بعينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

كل هذا يدل على أن الإنسان يقطع العلائق عن جميع الخلائق ويتصل بالله -سبحانه- في طلب المدد، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، أما أن تطلب ذلك من المخلوق فهذا لا يجوز؛ بدليل هذه الآيات.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

(كم) هذه خبرية، والخبرية تجر الاسم الذي بعدها، بخلاف (كم) الاستفهامية؛ فإنها تنصب ما بعدها على التمييز.

والمعنى: أن الملائكة كثيرون، ومع هذا لا يشفعون لأحد إلا بعد إذن الله لهم، وهم لا يملكون لأحد نفعا ولا ضرا، إلا بإذن الله، ثم إن الله لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله كما في الآية.

ومثال (كم) الخبرية: (كم عبد ملكت)، بمعنى: أن العبيد الذين ملكتهم كثير.

و(كم) الخبرية هي التي جيء بها لغرض التكثير والتعظيم، وهي تجر الاسم الذي بعدها، قال الحريري:

واجرر بكم ما كنت عنه مخبرا ❁ معظما لقدره مكثرا[1]

ومثال (كم) الاستفهامية: (كم درهما عندك؟)، ولا تقول: (كم درهم

(١) ينظر: ملحة الإعراب (ص٢٥) للحريري.

عندك)؛ لأن (كم) هنا استفهامية، يسألك عن عدد الدراهم التي عندك، فـ(درهما): تمييز؛ لوقوعه بعد (كم) الاستفهامية.

وقد دلت الآية على أن الشفاعة لا تحصل إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: أن يرضى الله قول المشفوع له وعمله.

فهي تكريم للشافع، وتنويه بمنزلته عند الله، وتنويه برضاه عن المشفوع له.

والمشركون -في الجملة- لا يعتقدون في معبوديهم أنهم يملكون النفع والضر، وإنما يعتقدون أنهم وسطاء، وأنهم شفعاء لهم عند الله، هذا هو اعتقادهم، وإن كان يوجد بعض أصناف العرب يعتقدون أن آلهتهم تنفع وتضر، لكن هذا كله باطل، لا أصل له؛ كما دل عليه القرآن العزيز، وكما دلت عليه السنة النبوية، وكما عليه عقيدة المسلمين من لدن الصحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا، فما نقل عن الصحابة البتة أنه يأتي أحدهم إلى قبر الرسول وسيد الخلق ﷺ ويقول: «يا رسول الله اشفع لي، يا رسول الله ارفع حاجتي إلى الله، أنت الواسطة بيني وبين الله!».

ولو بقيت عمر نوح تفتش: هل كان أحد من الصحابة إذا وقع في محنة أو ألمت به ملمة أو كان في كربة يصنع هذا؟ فلن تجد هذا أبدا، لا في خبر صحيح ولا ضعيف، بل ولا موضوع؛ فإنهم يروون أحاديث كلها ضعيفة أو موضوعة

وعلى تقدير صحتها لا تدل على أن الرسول ﷺ تطلب منه الشفاعة ويطلب منه المدد ويطلب منه أن يكون واسطة بين العبد وبين الله.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [سبأ: ٢٢].

قال أبو العباس[١]: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولا، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟

قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[٢]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله -سبحانه- هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

---

(١) يقصد به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٩٩).

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص». انتهى كلامه[1].

كلام شيخ الإسلام ابن تيمية الذي نقله المصنف هو على آية سبأ، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ما دام أنه لا يملك حتى ولا ذرة فكيف تطلب منه الشفاعة؟! وكيف يدعى ويرجى ويستغاث به ويطلب منه المدد ويجعل مساويا لله سبحانه وتعالى؟!

فنقول لمن كان يعبد عبد القادر أو الدسوقي أو أحمد البدوي أو ما أشبههم: إنهم قوم لا ينفعون ولا يضرون.

لو قال: أنا أدعوهم وأسألهم وأستغيث بهم لمكانتهم عند الله.

نقول له: هل يملكون مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض؟!

يقول: لا.

نقول: إذا كانوا عاجزين عن ملك مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض فكيف تسألهم، وتستغيث بهم، وتطلب منهم المدد؟! تساويهم بمن بيده الخلق والرزق والتدبير؟! هذا هو الكفر بعينه.

(١) ينظر: الاقتضاء (٢/ ٣٥٩)، والفتاوى الكبرى (٣/ ٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٢٤).

ثم نقول له: هل لهم شرك في مثال ذرة؟!

يقول: لا.

نقول له: هل هم مشيرون لله معاونون له، كما أن الملك يستشير وزراءه ويطلب الإعانة منهم في تدبير الأمور؟!

يقول: لا، الرب غني عنهم.

نقول: كيف تجعلهم في رتبة الله؟!

يقول: أنا أطلبهم ليشفعوا لي، وإلا فأنا أعرف أنهم لا يملكون في السماوات ولا في الأرض مثقال ذرة، ولا أعتقد أن لهم شركا ولا في مثقال ذرة، ولا أنهم معينون لله ومستشارون له، إلا أني أطلب منهم الشفاعة.

نقول له: هل يشفعون بغير إذن الله أو لابد من إذن الله؟

فإن قال: يشفعون من غير أن يأذن الله لهم.

نقول له: هذا عين شرك المشركين الأولين، سواء بسواء.

وإن قال: لابد من إذن الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

نقول له: إذن اطلب الشفاعة من الله، لا منهم، بما أنهم لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بعد إذن الله لهم، فاطلبها من الله وحده.

ثم نقول: وهل يأذن الله للشافع أن يشفع لغير أهل التوحيد؟ أنت لست بموحد.

فإن قال: أنا موحد.

نقول له: ما هو التوحيد؟ أليس التوحيد: إفراد الله بالتعلق؟ فإن تعلقت بأحمد البدوي لم تكن موحدا؛ لأن التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة، فأنت أفرد الله بالعبادة، ثم اطلب منه أن يشفع فيك نبيه أو يشفع فيك هذا الرجل الصالح؛ لأن الله يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٣]، ويقول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، فإذا أذن الله له ورضي قوله شفع؛ كما في الآية، والله لا يرضى إلا التوحيد، فعند ذلك يبطل قوله ويسلم؛ لأنه رد عليه بالحجج والأدلة الشرعية والعقلية.

والشفاعة التي جاءت بها الأحاديث الثابتة ست شفاعات:

الشفاعة الأولى: هي الشفاعة الكبرى، لا تكون إلا له ﷺ؛ وذلك أن الناس إذا قاموا من قبورهم حفاة عراة غرلا كيوم ولدتهم أمهاتهم، دنت منهم الشمس وألجمهم العرق فيجتمعون في صعيد، ينتظرون الرب لفصل القضاء، فيطول بهم المقام، فيأتون آدم ويقولون له: «أنت أبو البشر، وأنت الذي خلقك الله بيده، وأنت الذي أسجد لك ملائكته، وأنت الذي نفخ فيك من روحه، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من كرب هذا الموقف.

فيذكر أكله من الشجرة، ويعتذر.

ثم يأتون نوح ويقولون: أنت عبد غفر الله لك، وسماك عبدا شكورا، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من كرب هذا الموقف، فيعتذر ويذكر خيطئته.

وكذلك إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيأتون إلى عيسى عليه السلام، فيعتذر إلا أنه لم يذكر خطيئة، ويقول: ائتوا محمدا ﷺ، قال الرسول ﷺ: فيأتون إلي فأقول: أنا لها أنا لها، فأخر ساجدا بين يدي الله تحت العرش، ويفتح علي بمحامد لا أحسنها الآن، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»[1]، هذه الشفاعة خاصة به ﷺ.

الشفاعة الثانية: هو أنه ﷺ يشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فأول من يستفتح باب الجنة هو محمد ﷺ، وذلك بعد تجاوزهم الصراط.

الشفاعة الثالثة: يشفع ﷺ لأناس لهم جرائم ومعاصي أن يدخلوا الجنة، فيقبل الرب شفاعته، فيدخلهم الجنة دون عذاب.

الشفاعة الرابعة: يشفع ﷺ لقوم من عصاة هذه الأمة دخلوا النار وصاروا من أهلها أن يخرجوا منها.

الشفاعة الخامسة: هو أنه ﷺ يشفع لمن دخل الجنة أن يزاد في درجته، وأن ترفع منزلته.

الشفاعة السادسة: شفاعته ﷺ لأناس استحقوا النار أن يخفف عنهم،

---

(١) سبق تخريجه.

لكن هذه خاصة بعمه أبي طالب؛ فإنه كان في الدرك الأسفل من النار لكن بشفاعته ﷺ أخرج إلى ضحضاح من النار، يلبس نعلين من نار يغلي منهما دماغه[(١)]، هذه هي الشفاعات الثابتة للنبي ﷺ.

وأصل الشفاعة ليس للرسول ﷺ خاصة، بل هي للرسل والصالحين، فالله يقبل شفاعة المسلمين للرجل العاصي فيدخله الجنة، ألا ترى أننا إذا قمنا نصلي على الميت نقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله - يعني: ضيافته-[(٢)]....» إلى آخر الدعاء المعروف، فهذه شفاعة منا عند الله بدعائنا، كما قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[(٣)].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٣٨٨٥)، ومسلم في صحيحه (ح:٢١٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٦٣) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(١٧) باب قول الله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية [القصص: ٥٦]

وفي «الصحيح» عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قاله: «هو على ملة عبد المطلب» وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله».

فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦][١].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١٣٦٠)، ومسلم في صحيحه (ح:٢٤).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦]

قصد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من قال: إن الرسول ﷺ ينفع ويضر، قاله الشارح[1]، ولكن الذي يظهر خلاف هذا، وأن المصنف ذكر هذه الترجمة عقب الترجمة التي قبلها قصدًا؛ لأن الترجمة التي قبلها: (باب الشفاعة)، وقد سبق أن الشفاعة حق، فالأنبياء يشفعون، والصالحون يشفعون، والأفراط يشفعون، فنبه بهذه الترجمة أن الرسول ﷺ حرص على الشفاعة لعمه بعد أن يقول: «لا إله إلا الله»، وحرص على هدايته، ولكن لم يستطع أن يشفع له؛ لأن الله لم يأذن له في ذلك، ولأن أبا طالب لم يكن ممن رضي الله قوله وعمله، بل هو من جملة المشركين، هذا وجه ذكر هذه الترجمة عقب الترجمة السابقة.

والهداية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هداية بيان وإرشاد، وهذه لا إشكال فيها، فهي ثابتة للنبي ﷺ ولغيره من الدعاة، فأنت إذا دعوت المسلم وغيره وأرشدته إلى ما خلق له، فقد أبنت له الطريق، وأرشدته إلى ما فيه صلاح دينه ودنياه، فتكون قد هديته بمعنى: أرشدته ودللته على الطريق، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: أنك ترشد وتبين وتوضح الطريق المستقيم.

القسم الثاني: هداية توفيق وإلهام، وهي لله وحده وهي التي نفاها الله تعالى

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٦١٥).

عن الرسول ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وفي الصحيح عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قال: (هو على ملة عبد المطلب) وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله».

فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

(لما حضرت أبا طالب الوفاة)؛ يعني: علامات الوفاة ومقدماتها.

جاءه الرسول ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «يا عم -كلمة استعطاف-، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقالا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟!): ذكراه الحجة الملعونة، وهي: تعظيم الأسلاف والأكابر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح:١٣٦٠)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح:٢٤).

(فقال: هو على ملة عبد المطلب): هو قال: (أنا على ملة عبد المطلب)، لكن الراوي غيرها؛ لأنه لفظ شنيع، فقال: (هو على ملة عبد المطلب)، وأبى أن يقول: (لا إله إلا الله)، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك».

ففي هذا: مضرة أصحاب السوء على الإنسان، فإذا كان من يجالسك ومن يخالطك فيه دين وخير، فإنك تنتفع بمجالسته، وإذا كان من يجالسك ويخالطك لا خير فيه فلابد أن جربه ينتقل إليك، كما قيل:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ❁ ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه ❁ فكل قرين بالمقارن يقتدي[1]

يُعرف صلاحك وفسادك بمن تجالس وتخالل وتخالط وتذهب وتجيء معه، فإن كنت تذهب وتجيء مع شخص فيه خير فإنا نعرف فضلك وخيرك ممن تخالطه وتجالسه، والعكس بالعكس، يقول أبو تمام:

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ❁ صار الخراب لها أعدى من الجرب[2]

لما صار في أختها شيء من الخراب انتقل الخراب إليها، والخراب أعدى من الجرب، فالإبل الصحيحة السليمة إذا خالطتها واحدة جرباء، فإن الجرب ينتقل منها إلى الإبل الصحيحة، وكذلك مخالطة من لا خير فيه، فهذا أبو طالب تضرر بمخالطته لأبي جهل -فرعون هذه الأمة-، وعبد الله ابن أبي أمية، في

---

(١) ينظر: العقد الفريد (٢/ ١٧٩).

(٢) ينظر: أخبار أبي تمام (ص١٠) للصولي.

حين أن النبي ﷺ حرص على هدايته، ولكن هؤلاء بمجالستهم له ذكراه تعظيم الأسلاف والأكابر.

ومعلوم أن أبا طالب كان يحب النبي ﷺ، بل أيده، وناصره، وصبر على حصار الشعب من أجله.

وعندما نقرأ في سيرة الرسول ﷺ نجد أن قومه كانوا أشد الناس عداوة له، كأبي جهل، وعبد الله بن أبي أمية، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبي لهب، وكثير من بني هاشم، هم أشد الناس عداوة لدينه، وعداوة لدعوته، حرصوا على تنفير الناس منه، في حين أن طبيعة البشر إذا خرج في القبيلة رجل فاضل فرحوا به واتبعوه؛ لأنهم يشرفون بشرفه، سواء كان شاعرا أو شجاعا أو سخيا كريما، فإن قبيلته تلتف حوله، وتؤيده، وتناصره، وتفتخر به، وتشرف بشرفه، هذا هو المعهود في قبائل العرب كافة، بخلاف حال قريش مع الرسول ﷺ، فما الحكمة في ذلك؟

قال بعض العلماء: الحكمة أن قريشا لو اتبعته ﷺ، وقبلت ما جاء به، لقالت العرب: «رجل شرف به قومه، فيريدون الشرف به وبتعظيمه»، لكن صار قومه من أشد الناس عداوة له حتى تتساءل العرب من كل مكان: ما هذا الرجل الذي رمته عشيرته بقوس العداوة؟! ماذا يدعو الناس إليه؟!.

من أجل هذا قبائل العرب بعثت وفودا إلى مكة للتعرف على حال هذا الرجل الذي طردته عشيرته وأبغضته وعادته، جاءت تلك الوفود فسمعوا

القرآن، وسمعوا ما كان الرسول ﷺ يدعو الناس إليه، فأعجبوا به، وحملوا هذا إلى قبائلهم، فصار ذلك أدعى لانتشار دعوته ﷺ، هذا هو السر في ذلك.

ثم إن النبي ﷺ قال: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]»، وهذا مثل ما جرى لإبراهيم عليه السلام؛ فإن إبراهيم استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

وهذا يدل على أن أبا طالب مات على الكفر، خلافا لمن قال: «إن أبا طالب مات على الإسلام، وأنه حين قال له الرسول ﷺ قل: (لا إله إلا الله) أنه قالها ولكن بصوت خفي»، هذا لا يثبت.

والرافضة تعظم أبا طالب، ويدَّعون أنه مسلم، ويزورون قبره في مكة، وربما طلبوا منه الشفاعة، وتوسلوا به إلى الله -قبحهم الله-، وقد قال لنا بعض علماء مكة: «إن الرافضة اتصلوا بأحمد زيني دحلان - وهو يعرف أن أبا طالب مات على الكفر-، فبذلوا له مبلغا كبيرا من المال ليصنف لهم كتابا في إسلام أبي طالب، فصنف كتابا لهم سماه: «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»[1]

---

(١) وهي رسالة مطبوعة، قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله في مقدمته لكتاب (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان): «قال صاحب كتاب (البراهين القاطعة على ظلام الأنوار الساطعة) -المطبوع بالهند-: إن شيخ علماء مكة في زماننا -قريب من سنة ١٣٠٣هـ- قد حكم -أي: أفتى- بإيمان أبي طالب، وخالف الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أخذ الرشوة الربابي القليلة من الرافضي البغدادي. اهـ. =

وأخذ مالا مقابل تصنيفه هذا الكتاب»، في حين أنه يعرف أن أبا طالب مات على الكفر!

وقد أنزل الله تسلية للرسول ﷺ في عدم إسلام عمه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:٥٦].



= وشيخ مكة في ذلك العهد هو: الشيخ أحمد دحلان، الذي توفي سنة ١٣٠٤هـ، وصاحب الكتاب المذكور هو: العلامة الشيخ رشيد أحمد الكتكوتي، مؤلف (كتاب بذل المجهود شرح سنن أبي داود)، والخبر مذكور فيه...».

(١٨) باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله -تعالى-: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[نوح:٢٣] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت»(١).

وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»(٢).

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» أخرجاه(٣).

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٩٢٠).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٨٤) لابن القيم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٤٤٥) ولم أقف عليه في صحيح مسلم.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ١٣٩٠٩)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٣٢٤٨).

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثا[1].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٧٠).

شرح: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

(الغلو): مشتق من الغليان، يقال: «غلا القدر» إذا طاش، والمراد: مجاوزة الحد، فكل إنسان يتجاوز الحد فيما أمر به فقد غلا، وطغا، و(الطغيان): مجاوزة الحد -أيضا-، قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود:١١٢]؛ أي: لا تتجاوزوا الحد ولا تزيدوا، فالشريعة عبادة باقتصاد، والغلو نهى الله عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، وسبب الكفر هو: الغلو في الدين، فأصل وقوع الشرك في بني آدم سببه الغلو في الصالحين؛ كما في قصة قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وجه مطابقة الآية للترجمة: أصل النهي عن الغلو، لكن قد يقال: الترجمة في أن سبب كفر بني آدم هو الغلو في الصالحين، والآية ليست: «لا تغلو في الصالحين»، بل: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: لا تزيدوا في الصلاة، لا تزيدوا في الحج، لا تزيدوا في الصوم، بل اقتصروا على ما جاءت به الشريعة، وإياكم والغلو.

الجواب: أن محبة الصالحين دين، نتقرب بمحبتهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لما اتصفوا به من الخير والائتمار بما أمر الله، ولما اتصفوا به من الابتعاد عما نهى

الله عنه، ولما قاموا به من الدعوة إلى الله، فمحبتهم دين، ولما كانت محبتهم دينا فلا ينبغي أن نغلو في هذا الدين، الذي هو: محبة الصالحين، بأن نعظمهم، ونصرف لهم ما هو حق لله -تعالى-، فيكون ذلك من باب الغلو في الصالحين.

فإذا وقع منك شيء من ذلك فقد غلوت حينئذ، وخالفت مقتضى الآية، وتشبهت باليهود والنصارى الذين غلوا في دينهم، فاليهود غلوا في محبة عزير -وهو نبي- حتى جعلوه ابنا لله، والنصارى مأمورون باتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد غلوا في محبته، أمروا بمحبته والانقياد لما جاء به، ولكن لم يقفوا عند هذا، بل جعلوه هو الله أو ابن الله، تعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علوا كبيرا، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:٣٠].

وفي «الصحيح» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[نوح:٢٣] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت»[1].

(في الصحيح)؛ أي: في صحيح البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٤٩٢٠).

ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، هذه أسماء رجال صالحين، كان قومهم يتأسون بهم؛ لكن لما هلكوا واحدا بعد واحد أسفوا عليهم، وحزنوا على فراقهم، فصاروا يترددون إلى قبورهم؛ لأجل أن يتذكروا ما كانوا عليه من الخير، فجاءهم إبليس فقال: «إن التردد للقبور فيه مشقة، وفيه تعب، فلو صورتم صورهم، فنصبتموها في مجالسكم لكان أولى لكم؛ من أجل أن تتذكروا ما هم عليه من الخير»، عند ذلك صوروا صورهم، ونصبوها في مجالسهم، ومضى جيل هؤلاء الذين صوروا هذه الصور، فخلفهم جيل آخر، وجاءهم إبليس وقال: «إن أوليكم لم يصوروا هذه الصور إلا أنهم يستمطرون بأصحابها، ويستنصرون بهم على الأعداء، ويطلبون منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات»، فعند ذلك وقع الشرك، فجعلوا يطلبون منهم الأمطار، ويطلبون منهم المدد، ويطلبون منهم شفاء المرض، وكشف الضر، وهذا أول شرك يقع في الأرض، كما قال ابن عباس: «بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام»[1].

لما حصل هذا بعث الله نوحا عَلَيْهِ السَّلَامُ يأمرهم بعبادة الله وحده، فأخبرهم أن دعاءهم وعكوفهم عند قبور هؤلاء الصلحاء الخمسة شرك، وأن هذا هو محض حق الله، وأن هذه الأمور لا تطلب إلا من الله، فلم يستجيبوا لما جاء به نبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل مضوا على شركهم، وعلى ما قرره رئيسهم إبليس، فلما مكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم وينذرهم ويحذرهم ويرغبهم، ويقول:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٣/ ٦٢١)، والحاكم في مستدركه (٣٦٥٤).

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فأبغضهم وأبغضوه وملهم وملوه، قالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، عند ذلك أمره الله بصنع السفينة، فصنعها، وتم بناؤها؛ فركبها ومن آمن معه، وأمر الله الأمطار والأرض فأخرجت الماء، فعند ذلك أغرق الله الأرض بالماء، ولم يبق إلا من كان مع نوح في السفينة، فغرق أهل الأرض كلهم، ولم تبق نفس إلا من كان مع نوح في السفينة.

والعصريون يقولون: «الطوفان لم يصل للصين، وإن الصينيين موجودون من عهد آدم».

وقد رد عليهم المحققون، فقالوا: الطوفان عم الأرض كلها، وأهلك بني آدم كلهم، إلا من كان مع نوح في السفينة، فلم يبق على وجه الأرض إلا من كان من ذرية نوح، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، فدل على أن الصين وغير الصين قد عمهم الطوفان وهلكوا، هذا قول أهل السنة والجماعة، وذكره جمع من المحققين.

ولما عم الطوفان الأرض نقل هذه الأصنام وهي صور هؤلاء الصلحاء الخمسة حتى ألقاها في ساحل جدة، وغطتها الرمال واختفت، حتى جاء إبراهيم ﷺ فأمر الناس بعبادة الله، فكانوا على دين مستقيم، ثم بعد إبراهيم جاء عمرو بن لحي الخزاعي – وهو سيد خزاعة، وعنده مال كثير، ومن كثرة ماله أن الإبل التي خدش عينها نحو ألف بعير، وكانت عادة العرب إذا بلغ عند الرجل ألف بعير فإنه يخدش عين واحد من الذكور، كل ألف يقابلها واحد تخدش عينه؛ لأجل ألا تصاب الإبل

بشيء - جاء الشيطان إلى عمرو فقال له: «اذهب إلى جدة، تجد فيها أصناما معدة، فخذها ولا تخف، وادع إليها العرب تجب»[(١)].

فذهب إلى ساحل جدة فاستخرجها، ثم فرقها في قبائل العرب، فوقع الشرك بالله عز وجل، قال النبي ﷺ: « رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ -يعني: أمعاءه- فِي النَّارِ؛ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»[(٢)].

الحاصل: أن أول شرك وقع في الأرض هو بسبب محبة الصالحين والغلو فيهم؛ فإن الشيطان يتدرج بهم شيئا فشيئا.

وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»[(٣)].

المعنى: أن الشيطان يتدرج بالناس، وينقلهم درجة درجة؛ حتى يوقعهم في الشرك بالله، وحتى يوقعهم في الاستهزاء بمن أنكر الشرك، فيقولون: «هؤلاء يتنقصون الصالحين، ويتنقصون أنبياء الله عز وجل».

فالشيطان لا يتمكن من الدعوة إلى الكفر ابتداء، بل يأمرهم بالبدعة ويحسنها إليهم، حتى تتمكن من قلوبهم، ثم ينقلهم من تلك البدعة إلى ما فوقها، حتى تتمكن من قلوبهم، وهكذا حتى يقعوا في الكفر.

---

(١) ينظر: الأصنام (ص٥٤) للكلبي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح: ٤٦٢٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

وهكذا شأن الشيطان مع أهل وقتنا؛ فإنه يذكرهم محاسن هذا الرجل الصالح، ثم يأمرهم بالبناء على قبره تعظيما له، وهم لا يعبدون هذا القبر، ولا يذبحون له، بل يحسن لهم بدعة البناء.

ثم إذا تمكن ذلك من قلوبهم دعاهم إلى التردد إلى تلك البقعة، ثم دعاهم إلى عبادتها بالطواف عليها، والذبح والنذر لها، ثم إذا وقعوا في الكفر بالله دعاهم وحسن لهم أن كل من أنكر عليهم إنما يتنقص الصالحين، وينزلهم عن مراتبهم العالية، كالأنبياء والملائكة والصالحين، فيعادونه وينابذونه، هكذا شأن الشيطان.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» أخرجاه[1].

هذا الحديث اشتمل على فائدتين:

الأولى: أن النبي ﷺ نهانا أن نرفعه فوق مرتبته، وأن نصنع مثل صنيع النصارى مع عيسى ابن مريم، فقد قالوا: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة مع روح القدس، فنهانا النبي ﷺ عن أن نصرف شيئا من حقوق الله له؛ لأننا إذا صرفنا له شيئا من ذلك جعلناه في رتبة الله، والله يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فالأمور بيد الله، والله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٤٤٥) ولم أقف عليه في صحيح مسلم، ولم يعزه المزي إليه، ولعل الشيخ محمدا قد تابع في عزوه للصحيحين شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فقد عزاه إليهما في الجواب الصحيح (٣/ ١٥٨- ٣٨٥).

يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وعباد القبور يقولون: «هذا ليس صحيحا، بل تعلم الغيب، وأنت تملك النفع والضر لنا، فضلا عن أن لا تملكه لنفسك!»، فناقضوا القرآن والسنة.

نقول: لو كان الرسول ﷺ يملك شيئا من ذلك لانتصر يوم أحد، ولما قتل أصحابه، ولما كسرت رباعيته، ولما شج رأسه ودمي وجهه، ولما جعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»(١).

الفائدة الثانية: بيان مرتبته ﷺ ومكانته، وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس في رتبة الله، وأن من صرف له شيئا من حق الله فقد ضاهى النصارى؛ فقال ﷺ: «إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، هذا أشرف مقاماته.

فإذا قرأت القرآن وجدت أن الله نوه بالرسول ﷺ بذكر عبوديته في مقام إنزال القرآن عليه، ومقام إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وفي كل موضع فيه فضل للنبي ﷺ وتنويه بشرفه، قال الله -تعالى-: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الحديد: ٩]، وقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩] فدل هذا على أن أشرف مقامات الرسول ﷺ هي العبودية، خلافا للذين يستغيثون به ويقولون: «الغوث الغوث يا رسول الله».

وقد ألف ابن تيمية كتابا مستقلا سماه: «الاستغاثة في الرد على البكري»؛ لأن البكري يرى جواز الاستغاثة بالرسول ﷺ، فرد عليه ابن تيمية، في كتاب مطبوع معروف، والنبهاني له كتاب سماه: «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»، خلط فيه، وذكرت فيه الترهات والأكاذيب، ولفق فيه ما لفق مما يستحي العاقل من ذكره، فمن ذلك أنه ذكر: أن بقرة حليبها كثير ماتت فبنوا على قبرها، وتبركوا بها، واستغاثوا بها! انظر على فساد العقول، كيف لا يستحي من ذكر هذا؟! بقرة تبنى على قبرها قبة، ويتبرك بها؟!

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ١٣٩٠٩)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٣٢٤٨) - ومن طريقه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٣٧)، والنسائي في سننه (ح: ٣٠٥٧)، وابن ماجه في سننه (ح: ٣٠٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (ح: ١٩٨)، وابن خزيمة في صحيحه (ح: ٢٨٦٧)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٣٨٧١)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٧٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ٩٥٣٤) من طرق عن عوف - وهو: ابن أبي جميلة الأعرابي-، عن زياد ابن الحصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس، به مرفوعا.
إسناده جيد، صححه ابن تيمية في (الاقتضاء ١/ ٣٢٨)، وعبارة الإمام -إن صحت النسخة- ربما توهم أن الحديث من مسند الفاروق رضي الله عنه، وليس كذلك.

هذا الحديث رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، وقد أخرجه أحمد وابن ماجه، قال الشارح: «بإسناد صحيح، ولكن في سنده من تكلم فيه، ولا ينافي ذلك كونه صحيحا لوجود شواهد تؤيده، ولأن معناه صحيح، فإن معنى الحديث تعضده الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ.

(إياكم): أداة تحذير، المعنى: «احذروا الغلو»، وسبب هذا أن النبي ﷺ في حجة الوداع لما وصل إلى منى قال لابن عباس: «الْقُطْ لِي حَصًى»، فجاءه بحصى مثل حصى الخذف، فقال ﷺ: «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

قد يقول قائل: إن الحصى الكبار أبلغ في النكاية وأعظم من الصغار، فأخبر النبي ﷺ بقوله: (إياكم والغلو) أن هذا ممنوع، فهو مجاوزة الحد، وشريعتنا شريعة اقتصاد، فلابد أن يكون الإنسان موحدا، وتوحيده هذا عن قصد؛ أي: على وفق الشريعة لا إفراط ولا تفريط، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

ومن أمثلة الغلو: من قال: «أنا أطوف وأزيد عشرا؛ لأن فيه خيرا وبركة».

نقول: اتبع ولا تبتدع، فقد كفيت.

كذلك تبيت في الحج، تقول: «أنام في منى خمسة أيام، كلها خير وبركة؛ لأنها مشعر، ولأن جنسه مشروع».

نقول: أخطات، هذا غلو، اتبع ولا تبتدع.

تقول: «أريد أن أقف بعرفة قبل الوقوف بيوم، وأضيف إليه يوم عرفة؛ لأنه طاعة وقربة».

نقول: لا، هذا غلو.

تقول: «أصلي بدلا من خمس صلوات ستة، أزيد فريضة الضحى».

نقول: لا، هذا غلو، عليك أن تقتصر على وفق ما جاء به النبي ﷺ.

تقول: أنا أقول في الأذان: «الحمد لله رب العالمين، الله أكبر».

نقول: أخطأت، هذا غلو، فهل بلغك أن الرسول ﷺ أمر بهذا، أو أقرَّهُ؟! اتبع ولا تبتدع، هذا معنى: (إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو).

ومحبة الرسول ﷺ متعينة، بل قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[١].

لو قال قائل: «من محبته ﷺ أن أذبح له».

نقول: لا، هذا لا يصلح إلا لله، هذا غلو.

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قالها ثلاثا[٢].

(المتنطعون)؛ أي: المتفيهقون، المتشدقون في الكلام، الذي يتكلم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٧٠).

ويخرج كلامه من قعر حلقه؛ هذا داخل في الغلو، وبهذا تعرف أن الغلو ليس خاصا بالأفعال، بل هو داخل حتى في الأقوال؛ لقول الرسول ﷺ: «هلك المتنطعون».

ومن أمثلة التنطع ما ذكره بعض العلماء وهو: أن رجلا كان راكبا على حمار فسقط، فضحك الناس عليه لما سقط عن حماره، فقال: «ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة -يعني: على مجنون-، افرنقعوا عني».

أما الكلمات اللغوية التي قد تكون بالنسبة إلينا غير معروفة -وإن كنا من العرب- فهل هي من التنطع؟

الجواب: لا، ومثاله: ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه للكاتب لما أراد أن يكتب كتابا: «ألصق روانفك بالجبوب، وخذ المزبر بشنارتك، واجعل حندرتيك إلى قيهلي، حتى لا أنغي نغية إلا أودعتها بحماطة جلجلانك»[1].

هذا لا يعد من التنطع؛ وهو من اللغة التي ينبغي للإنسان معرفتها.

(ألصق روانفك بالجبوب)؛ أي: اجلس على الأرض لتستعد للكتابة.

(وخذ المزبر)؛ أي: القلم.

(بشناترك): بأطراف أصابعك.

(واجعل حندرتيك): عينيك.

---

(١) ينظر: تاج العروس (١/ ٤٥) للزبيدي.

(إلى قيهلي)؛ أي: إلى وجهي.

(حتى لا أنغي نغية)؛ أي: حتى لا أتكلم كلمة.

(إلا أودعتها بحماطة جلجلانك)؛ أي: في حبة قلبك.



(١٩) باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!

في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما بنوا فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[(١)].

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال -وهو كذلك-: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا. أخرجاه[(٢)].

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٣٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٢٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٣٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٣١).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٥٣٢).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن – وهو في السياق – من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجدا»؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»[1].

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» رواه أبو حاتم في صحيحه[2].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٣٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ١١٨١٦)، وأحمد في مسنده (ح: ٣٨٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (ح: ٧٨٩).

شرح: باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!

تقدم أن جعل واسطة بين العبد وبين الله شرك، كشرك المشركين الأولين، سواء بسواء.

ولو قال قائل: «أنا لست من هذا في شيء، وأنا أسأل الله وأدعوه وحده لا شريك له، وإنما اشترطت هذا المكان بعينه؛ لأنه دفن فيه رجل صالح؛ رجاء بركة المكان فقط»، عقد المصنف هذا الباب جوابا لهذا.

(باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح)؛ أي: أن هذا من البدع الموصلة للشرك - وإن قصد بعبادته وجه الله-، لكنه يرى أن هذا المكان له مزية فضل، وأن الدعاء يستجاب فيه، بسبب هذا الرجل الصالح، فنقول: هذا من ذرائع الشرك ومن وسائله، وقد لعن رسول الله ﷺ من اتخذ القبور مساجد[1] - ولو لم يعبد القبور-، بل جعلها مساجد لله، مع هذا استحق اللعن.

ولو قال قائل: أنا لا أعتقد أن لهذا المكان مزية فضل، وأنا أعرف أن صاحب القبر لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، وأعرف أن هذا المكان لا مزيد فضل فيه ولا شرف له، وأنا أعبد الله وحده لا شريك له في هذا المكان، ولا أعتقد في القبر شيئا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٣٣٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نقول: أخطأت -أيضًا-، فبما أن فيه قبرا فلا تصل فيه، ولو كنت تعتقد أن المكان لا مزية له، وتقصد بصلاتك ودعائك وجه الله، هذا من البدع؛ لأنك شابهت المشركين، فالمشركون بنوا القباب على قبور أنبيائهم وصالحيهم، ووضعوا عليها المساجد، فأنت مشابه لهم في الظاهر، -وهو أخف من الأول-.

فإذا قال: ما الدليل على المنع من ذلك مع أن قصدي لله، ولا أعتقد أن للمكان مزيد فضل؟

نقول: الدليل أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها[(١)]؛ لأن المشركين يسجدون لها.

مع أنك تصلي في هذا الوقت لله، لا للشمس ولا لشيء آخر، لكن منعت من الصلاة في هذا الوقت؛ لما في ذلك من مشابهة الكفار -وإن اختلفت المقاصد-، فقصدهم الشمس وقصدك لله، لكن لما تشاكل الفعل وتشابه في الظاهر منع النبي ﷺ من ذلك.

المسألة الثالثة: لو وجدنا مسجدا بني على قبر - وسبق أن الصلاة لا تصح في هذا المسجد-، فهل نهدم المسجد أو ننبش القبر؟ أيهما أولى بالحرمة، المسجد أم المدفون؟

نقول: هذه المسألة تكلم عليها المحقق ابن القيم وقال: «الحكم للأسبق، إن كان المسجد هو الأول ثم جيء بهذا الميت ودفن في المسجد فإنا نحمل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٨٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٨٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الميت وندفنه مع المسلمين في المقبرة، ونستعمل المسجد، وإن كان القبر هو الأول ثم بني عليه مسجد فنهدم المسجد»، فالعبرة بالأسبق[1].

ووجه ذلك: أن الأسبق هو الأحق، فالميت كأنه يقول: «أنا أحق بقبري»، وكما في الحديث: «ومن سبق إلى ماء لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به»[2].

ونظير هذا ما وقع للمنصور العباسي أيام أبي حنيفة، وذلك أن المطاف ضاق على الناس، فأراد المنصور توسعة المطاف، فكانت دور أهل مكة منتشرة على حدود المطاف، فلا يمكن توسعة المطاف إلا بنزع ملكية هذه الدور، فدعا أبو جعفر أهلَ الدور فقال: «بيعوني دوركم»، فأبوا، أعطاهم أضعاف قيمتها فأبوا، وهولا يريد أن يغتصبها منهم؛ لأنها ستكون مطافا، ولا يريد أن يطوف المسلمون في أمكنة مغصوبة، فتحير، بعد أن بذل وسعه في إرضائهم لكن لم يقبلوا، واستشار الإمام أبا حنيفة فقال له: «قد علمت أن المطاف قد ضاق بالناس، وطلبت من أهل الدور أن يبيعوها بقيمتها أو بأضعاف قيمتها فأبوا فما ترى؟».

قال أبو حنيفة: «قل لهم: هل نزلتم على الكعبة فأنتم أحق، أم الكعبة نزلت عليكم؟! أيكم أسبق؟!».

فدعاهم المنصور وقال: «هل الكعبة نزلت عليكم؟».

قالوا: «لا، هي سبقتنا، نحن الذين نزلنا عليها».

---

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠١) لابن القيم.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٣٠٧١)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٨١٤) من حديث أسمر بن مضرس رضي الله عنه، وإسناده مسلسل بالمجاهيل.

قال: «إذن: الكعبة تقول: «أنا أحق بفنائي»، فعند ذلك هدم دورهم وأعطاهم قيمتها»[١]، فأبو حنيفة راعى الأسبق.

في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[٢].

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

(في الصحيح)؛ أي: في الصحيحين.

(كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور): وذلك أن الحبشة نصارى وعندهم كنائس.

قال شيخ الإسلام: «هؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل»[٣]، يعني: أنهم يعتقدون في القبور أنها ترفع حوائجهم إلى الله، أو أن المكان له فضل، وفتنة الصور التي نهى عنها النبي ﷺ، وكل هذا من المحادة لله ولرسوله ﷺ، ومن ذلك مسجد الحسين في القاهرة، يزعمون أن الحسين دفن في ذاك الموضع، يطوفون به، وهذا هو الشرك بعينه، وليس دفن الحسين رضي الله عنه في ذاك الموضع يجعله أفضل من غيره.

---

(١) أخرجه الأزرقي (٢/ ٦٨) نحوه عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح: ٤٣٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٢٨).
(٣) ينظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

ثم -أيضًا- الحسين لم يدفن هناك، بل هذا من الكذب، وإنما قتل رضي الله عنه في العراق، وقيل: إن رأسه حمل ليزيد في الشام، وقيل: للمدينة، وقيل: لعسقلان، أما القاهرة فلم يأتها أبدا؛ وإنما هذا من كذب الوضاعين القبوريين، ولشيخ الإسلام رسالة سماها (رأس الحسين).

ولو دفن رضي الله عنه في ذاك الموضع لم يكن لذاك الموضع فضل أو مزية، نعم هو رضي الله عنه سيد شباب أهل الجنة، وابن فاطمة، ومتعين علينا حبه.

ولا يمكن إثبات أن هذا القبر قبر نبي، إلا قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقبر إبراهيم عليه السلام، والباقي كلها ترهات، فليست هناك قبور للأنبياء معروفة مضبوطة إلا هذين القبرين فقط، وهذا قبر علي الآن في كربلاء، نقرأ في كتب الرافضة أن قبر علي جهل لما قتل رضي الله عنه في الكوفة، ولم يعلم مكان قبره، ولطول المدة ضاع، إلا أنه عرف بواسطة غزال، وذلك أن هارون الرشيد خرج من بغداد للقنص، ووجد غزالا أمامه، فلحقه يريد صيده، فذهب إلى ربوة هناك، وجعل يتمرغ بالربوة، فاستدلوا بهذا على أن هذا قبر علي، الدليل على أن هذا قبر علي: أن الغزال ذهبت تتمرغ به! هذه خرافات.

ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال - وهو كذلك-: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا. أخرجاه[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٣٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٣١).

(لعنة الله على اليهود والنصارى): قاله ﷺ وهو في سكرات الموت، في آخر لحظة من لحظات الدنيا وهو مقبل على الآخرة، لم ينس التذكير بهذا، ولم يشغله الموت ومعالجة إخراج روحه عن نصح أمته ودعوتهم إلى التوحيد؛ لعلمه ﷺ أنه سيفارق الدنيا ويقبل على الآخرة، فخشي أن يتخذ قبره مسجدا، فنهاهم أشد النهي وحذرهم أشد التحذير؛ بقوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، ولم يقل: «لا تتخذوا قبري مسجدا»، ولم يقل: «لا تصلوا إلى قبري»، بل نهاهم بهذا اللعن أشد النهي وأبلغه.

وقد فهمت عائشة هذا التحذير قائلة: (يحذر ما صنعوا)؛ أي: يحذرنا أن نصنع مثل صنيع اليهود والنصارى، بأن نبني على قبره مسجدا، وينهى أمته بهذا اللعن عن أن تصنع مثل اليهود والنصارى؛ إذ بنوا على قبور أنبيائهم كنائس، وجعلوها موضع عبادة.

(ولولا ذلك)؛ يعني: ولولا خشية أن يبنى عليه مسجد (لأبرز قبره)، ولدفن مع أصحابه.

(غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا): بضم الخاء، فيكون الذي خشي ذلك: عائشة رضي الله عنها ومن معها من الصحابة، وروي: (خشي) بالفتح، فيكون الذي خشي هو: النبي ﷺ، وقد دفن حيث مات في حجرته ﷺ.

قوله: (أخرجاه)، تكرار لقوله في أوله: (ولهما)؛ إذ أحدهما يغني عن الثاني، ولكن قال الشارح: «هكذا وجد بخط المصنف»[1].

---

(١) **ينظر**: تيسير العزيز الحميد (١/ ٦٥٩).

وبهذا يتضح أن بناء المساجد على القبور لم يكن من شريعة الرسول ﷺ، ولم يكن من الإسلام في شيء، بل حسم المادة وقطع الذرائع، فلا يجوز أن يدفن الميت في مسجد ولو كان المسجد وقفا من الميت، حتى ولو أوصى الميت وقال: «ادفنوني في مسجدي الذي بنيته» فإن وصيته باطلة، بل يدفن مع المسلمين، كل ذلك حسما لمواد الشرك وقطعا لذرائعه، خشية تدرج الشيطان بهم إلى الشرك بالله.

ثم تأمل هذا الحديث وهو قوله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ولم يقل: «لا تتخذوا قبري مسجدا»، ولم يقل: «لا تصلوا إلى قبري»، بل نهاهم بهذا اللعن أشد النهي وأبلغه.

ثم تأمل هذا الحديث وهو قوله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذا قبور أنبيائهم مساجد»، وقوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[(١)]، وحديث جندب أنه قال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ! إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[(٢)]، مع قوله: «اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(٣)]، وقوله: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) يأتي تخريجه قريبا في موضعه من المتن.
(٣) يأتي تخريجه قريبا في موضعه من المتن.
(٤) سبق تخريجه.

حذر وأنذر، وبالغ في النهي، ولعن من فعله، ومع هذا وجد من هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، ويتعبدون فيها مضاهاة لليهود والنصارى، مصداقا لقوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»، بنيت المساجد على القبور، وأوقفت الأوقاف الكثيرة على تلك المساجد، وعلى تلك القباب التي تبنى على القبور.

بل ألفت المؤلفات في جواز بناء المساجد والقباب على القبور، فقد ألف بعضهم كتابا أسماه: «تحفة الأحباب في مشروعية البناء على القبور من القباب»، بل ألفوا في مشروعية الحج إليها، والطواف حولها، وسؤال الله عندها، بل سؤال الميت نفسه؛ فقد اطلعنا على كتاب ألفه: عبد الحليم محمود – شيخ الأزهر المتوفى في هذه السنة[1]–، في دعاء (أحمد البدوي)، والاستشفاع والتوسل به، وقال: «إني لم أؤلفه حتى ذهبت إليه واستأذنته في تأليفيَ الكتاب فأذن لي»!

انظر إلى هذا الكلام الساقط، وإلى الترهات، كيف لعب الشيطان بهؤلاء، مع أنه يعد من أهل العلم؛ فهو شيخ الأزهر، ومؤلفه موجود مطبوع، ويقال: إنه أنفق مالا كثيرا في بناء قبة على بعض النساك، وأوصى أن يبنى على قبره قبة!

هو قريب، نعرفه، ومع الأسف لم تؤثر فيه هذه النصوص البليغة: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، لكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهُمَّ

(١) ١٣٩٧هـ.

مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

دعوا الناس إلى هذا الباطل على الرغم من هذه الأحاديث الثابتة التي لا تقبل الجدل، ولا مطعن فيها ولا تأويل، بل هي قطعية الدلالة، لكن كما أخبر النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة».

فما وجد بالأمم قبلنا لابد أن يوجد في هذه الأمة سواء بسواء، ما عدا هذه البلاد وقاها الله وصانها عن الشرك وذرائعه ووسائله والبدع القادحة في التوحيد، إلا أنها وللأسف عدلت عن كثير عن أوامر النبي ﷺ، فدخلها ما دخلها من الشكوك والإلحاد، ودخلها من التمييع والتبديل عند بعض الناس، بعض الناس يدعو إلى المعاصي، ويهون من شأن الشريعة، ويقول: «هؤلاء متشددون، وإلا فالدين يسر»، فجعل التمسك بالشريعة تشددا، وجعل يستدل بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، إلى غير ذلك، جعلوا يستدلون بهذه الآيات على غير ما دلت عليه، قائلين: «لا ينبغي التنفير ولا الشدة، ولا... ولا...»، فإذا أمرتهم ونهيتهم أخرجوا ألسنتهم استهزاء، وجعلوا يغمزون بعيونهم، ويقولون: «هؤلاء عاشوا في القرون الوسطى، لم يعرفوا الوضع، ولم يجاروا العصر الحديث، ولم يسايروا الركب، والله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]».

نعم؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ولا جعل علينا آصارا وأغلالا،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

بل بين لنا اليسر والعسر، وأوضح لنا الطريق، فهل تريد أن الطريق المنهي طريق الشيطان هو: اليسر، وهو الذي لا حرج فيه، وأنه من الدين؟!

نقول: لا، فالله أوجب الواجبات وليس فيها بحمد الله من حرج، ونهانا عن كل ما من شأنه أن يضر بديننا وبدنيانا، وهذا هو عين المصلحة، والذي قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»(١)، وقال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»(٢)، وقال: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»(٣)، هو الذي قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٢٢٢٩١)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٧٨٦٨) من حديث علي بن يزيد، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن أبي أمامة، به.

علي بن يزيد هو: الألهاني، قال البخاري: «منكر الحديث»، وقال النسائي والدارقطني: «متروك»، وقد نقل الاتفاق على ضعفه، كما أن القاسم بن عبد الرحمن أبا عبد الرحمن الشامي متكلم فيه، ينظر: العلل الكبير (ص١٨٩)، الضعفاء للعقيلي (٣/ ٢٥٤)، الميزان (٣/ ١٦١).

وهذه نسخة مشهورة، رويت بها أحاديث كثيرة، قال ابن معين: «أحاديث علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة هي ضعاف كلها». ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ١٧٩). وأخرجه الطبراني (ح: ٧٧١٥) من مسند أبي أمامة من وجه آخر لا يزيد الوجه الأول إلا ضعفا، وهو من طريق عفير بن معدان، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة.

عفير واه، مجمع على ضعفه، قال أبو حاتم (العلل لابنه ٥/ ٣١٨): «لا يشتغل بروايته وبحديثه، منكر الحديث، يحدث عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، منها ما لا أصل لها...». ينظر: الكامل (٧/ ٩٧)، ديوان الضعفاء (ص٢٧٧).

وللحديث شاهد من مسند عائشة، رواه الإمام أحمد (ح: ٢٤٨٥٥) من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة مرفوعا بلفظ: «إني أرسلت بحنيفية سمحة»، وعبد الرحمن فيه ضعف. ينظر: الجرح والتعديل (٥/ ٢٥٢).

الْإِيمَانِ»[1]، وليس هذا من التنفير، بل هذا من التيسير، ومن باب دفع المعاصي وإزالتها عن مجتمعات المسلمين، وإن لم تزل بالكلية فإنها تقل، فالآمر بالمعروف يحرص على إزالتها أو -على الأقل- تقليلها وتضييق نطاقها؛ كما دلت عليه الشريعة، بل ما سمت هذه الأمة ولا ارتفع أمرها وعظم شأنها ومدحها الله بما مدحها به إلا باتصافها بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذه الآية نزلت على من نزلت عليه آية: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، أيريدون أن يضربوا القرآن بعضه ببعض؟! بل الأمر واضح.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَى- قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا! أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ! إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[2].

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجدا»؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، كما قال ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٥٣٢).

«جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[1].

(قبل أن يموت بخمس)؛ أي: بخمس ليال.

(إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل): يتبرأ من وجود خليل له؛ لأن قلبه ممتلئ بحب الله وتعظيمه، فليس في قلبه موضع لأحد يكون خليلا له؛ لامتلاء قلبه بمحبة الله، وكمال معرفته بخالقه، فلم يكن في قلبه أجل ولا أعظم من الله، ولم يبق في قلبه شركة يكون له فيها خليل.

وفيه دليل على فضل الرسول ﷺ، وعلو منزلته، وأن الله قد اتخذه خليلا - والخلة فوق المحبة وأكمل منها- كما اتخذ الله إبراهيم خليلا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه، وأنه أفضل هذه الأمة بعد نبيها.

وفيه إشارة إلى أن أبا بكر هو الخليفة بعد النبي ﷺ، كما أيدت ذلك أحاديث أخر؛ فإنه ﷺ في مرضه الذي مات فيه قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، فقالت له عائشة: إن أبا بكر رجل بكاء إذا قام مقامك لا يملك نفسه من البكاء، فلو أمرت عمر يصلي بالناس.

فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ».

فأعادت عليه، فقال: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٣٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بِالنَّاسِ»[1]، فهذا يدل على الإشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن أمره بالإمامة الصغرى مكان الرسول ﷺ حينما اشتد به المرض مؤذن بإمامته الكبرى، وكذا قوله ﷺ: «لاَ يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»[2].

وفيه الرد على الرافضة السابين لأبي بكر، ويظنون أنه اغتصب الخلافة من علي، وأنه في ذلك مخطئ، بل الرافضة هم المخطئون، وبسببهم وقع الشرك في هذه الأمة، كما يأتي بيانه.

وفيه دليل على أن الله -سبحانه- يحب من شاء من عباده، خلافا للأشاعرة وغيرهم، الذين ينفون عن الله المحبة، ويقولون: المحبة هي: ميل قلب المحب إلى المحبوب، والله منزه عن هذا، والقرآن يرد عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، فدلت الآيات الكثيرة على أن الله يحب، ونحن نثبت له المحبة إثباتا يليق بجلاله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

(ألا فلا تتخذوا القبور مساجد): هذا نهي، والنهي يقتضي التحريم، ولاحظ أن النبي ﷺ لم يكتف بهذا النهي بل أكده بقوله: «فإني أنهاكم عن ذلك»، فنهى وأكد النهي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٦٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٩٠٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(فقد نهى عنه وهو في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله): هذا من كلام ابن تيمية[١].

(والصلاة عندها)؛ أي: عند القبور، (من ذلك)؛ أي: من جعلها مساجد، فإذا صلى في المقبرة وإن لم يحصل بناء فقد اتخذها مسجدا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا، وقال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»[٢]، وأكد ذلك وهو في سياق الموت بقوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، كل هذا يدل على تحريم اتخاذ القبور مساجد، أيبقى بعد هذا قول لقائل؟! أو يبقى شيء من الإشكال في تحريم جعل المقابر مساجد أو بناء المساجد عليها؟! بل الأمر واضح كما دلت عليه السنة.

وليست العلة هي: النجاسة - كما يقوله الحنابلة وغيرهم-، ولا كما في كتب بعض المتأخرين: أن النهي تعبدي، لا يعقل معناه[٣].

وقالوا: لا يضر القبر والقبران، فلو صلى عند قبر أو قبرين فلا باس بذلك؛ لأن الحديث: (لا تتخذوا القبور)، وهذا جمع، وأقله ثلاثة، فالقبر والقبران لا تسمى قبورا، فالصلاة عندها لا بأس بها، هذا قولهم، ولا يخفى فساد هذا القول؛ فإن العلة هي: نجاسة الشرك، فعلم أنه لا فرق بين القبر والقبرين، كيف

(١) ينظر: الاقتضاء (٢/ ١٨٥).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ينظر: شرح منتهى الإرادات (١/ ١٦٥) للبهوتي.

والنبي ﷺ يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وعائشة فهمت أنه يحذرهم أن يتخذ قبره -وهو واحد- مسجدا؟!

وفي الحديث السابق ذكره أن أم حبيبة وأم سلمة أخبرتاه عن الحبشة وما فيها من التصاوير: فقال ﷺ: «أولئك إذا مات الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا..» فهذا قبر واحد، ومع هذا أخبر أنهم شرار الخلق؛ لأنهم بنوا على القبر مسجدا، فلا فرق بين الواحد والاثنين والثلاثة؛ خلافا لما في «الإقناع»[1]، و«المنتهى»[2]، فالصلاة في المقابر لا تصح؛ بدليل هذه الأحاديث، وحديث أبي مرثد الغنوي: نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في القبور، وقال: «لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»[3]، كل هذا يدل على أن الصلاة لا تصح في المقبرة، لكن لو صلى خارج المقبرة وبينه وبين المقبرة جدار، فهل تصح الصلاة حينئذ؟

ذهب بعض العلماء إلى صحة الصلاة في هذه الحالة؛ إذ لم يكن مصليا في المقبرة، لا شرعا ولا عرفا.

وذهب بعض المحققين إلى المنع، وقالوا: هذا الجدار يسمى جدار المقبرة، يضاف إليها وينسب إليها، فلا تصح الصلاة خلف جدار المقبرة.

---

(١) ينظر: الإقناع (١/ ١٤٧) للحجاوي.
(٢) ينظر: منتهى الإرادات (١/ ٣٣١) لابن النجار الفتوحي.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح:٩٧٢).

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**» رواه أبو حاتم في صحيحه[(١)].

هذا يدل على أن شرار الناس هم الذين تقوم عليهم القيامة، وذلك أن الله يبعث ريحا طيبة يموت منها كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى إلا شرار الناس، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: (والذين يتخذون القبور مساجد)؛ أي: من شرار الناس، بل هم أشر الناس، حتى وإن كانت عبادتهم لله لا للقبر.

والبناء على القبور يتعين هدمه بكل حال، وقد عم الشر بالبناء على القبور، وكثر في سائر الأمصار؛ فقد كان في مكة بناء على القبور في أيام الشريف عون، فلما ذهب الشيخ أحمد بن عيسى شارح «النونينة»[(٢)] إلى مكة واتصل بالشريف، وصار من أصدقائه أشار عليه بهدم البناء والقباب التي على القبور في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ١١٨١٦)، وأحمد في مسنده (ح: ٣٨٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (ح: ٧٨٩)، والهيثم بن كليب في مسنده (ح: ٥٢٨)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦٨٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٠٤١٣) من طريق زائدة، عن عاصم - وهو ابن أبي النجود-، عن شقيق، عن عبد الله، به مرفوعا.
عاصم ثبت في القراءة، صدوق في الحديث. **ينظر**: الجرح والتعديل (٦/ ٣٤٠). وقد جود إسناده أبو العباس ابن تيمية في الاقتضاء (٢/ ١٨٦)، وقال الحافظ الذهبي (السير ٩/ ٤٠١): «حديث حسن قوي الإسناد»، وأخرج مسلم (ح: ٢٩٤٩) شطره الأول من طريق أبي الأحوص، عن عبد الله، وأخرجه البخاري (ح: ٩/ ٤٨) معلقا من طريق عاصم، به.
أما شطره الثاني: فله شاهد من حديث عائشة، رواه الشيخان، وصدر به المصنف الباب.

(٢) **ينظر**: علماء نجد (١/ ١٥٦).

مكة، كقبر خديجة، فعند ذلك هدمها الشريف عون بإشارة من الشيخ، فألف شخص[١]، كتابا في هذا الموضوع سماه: «ضجيج الكون فيما أحدثه الشريف عون»؛ فإن الشياطين لهم أعوان، جعلوا يؤلفون المؤلفات، ثم يسمونها بهذه الأسماء الضخمة: «ضجيج الكون»! أي: أن الكون يضج من هدم ما نهى عنه النبي ﷺ، وحث على هدمه، ولكن لكل قوم وارث.

كيف وقد نهى النبي ﷺ عن أن يجصص القبر، أو يبنى عليه، وقال علي رضي الله عنه لأبي الهياج: «ألا أبعثك على ما بعثني به رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته»[٢]، ولهذا ذهب جمع من الشافعية وغيرهم إلى أن القبر ينبغي أن يكون مسطحًا؛ يعني: لاصقا بالأرض، ليس كما نفعله الآن، فإنا نجعله مسنما من أجل أن يعرف أنه قبر، بعض الشافعية يقولون: لا، هذا فيه مشابهة للبناء عليه، بل يكون مسطحا، لاصقا بالأرض، حذرا من أن يكون مشابها للبنيان[٣].

أما مذهبنا ومذهب كثير من أهل العلم: أنه يكون مسنما[٤]؛ كما كان قبر رسول الله ﷺ على هذه الكيفية، وليعلم الناس أن هذا قبر فيجتنبونه ولا يطؤوه، وينتهكوه، فهذا لابد منه.

---

(١) وهو: محمد الباقر بن عبد الرحيم العلوي، كتبها سنة ١٣١٦هـ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٦٩).

(٣) ينظر: تحفة المحتاج (٣/ ١٧٣)، إعانة الطالبين (٢/ ١٣٥).

(٤) ينظر: بدائع الصنائع (١/ ٣٢٠)، والبناية شرح الهداية (٣/ ٢٥٧)، ومواهب الجليل (٢/ ٢٤٢)، الذخيرة (٢/ ٤٧٩)، المبدع (٢/ ٢٧٢)، وشرح المنتهى (١/ ٣٧٥).

وذهب بعض أئمة الحنفية إلى أنه لا ينبغي رشه بالماء؛ لأن رشه بالماء فيه مشابهة للبناء[1].

ومذهبنا ومذهب كثير من أهل العلم: أنه لا بأس بذلك، فنرش الماء على التراب والحصباء ليتماسك، كي لا تأتي الرياح فتثيره، وهذا لا يسمى بناء، والغرض من هذا: هو أن العلماء المحققين بالغوا أشد المبالغة في الاحتراز، حتى وصلوا إلى هذه الدرجة، فحذروا من البناء، وما يقارب البناء، وما يشابه البناء.

وقد افتتن قوم بالقبور، يأتي أحدهم للقبر فيتصور له شيطان فيخاطبه فيظن أنه صاحب القبر، كما يقولون: إن أحمد الرفاعي جاء إلى قبر النبي ﷺ فاستنجد به ودعاه، وأنه ﷺ أخرج يده من القبر فقبلها الرفاعي، فتعلقوا بهذه الترهات والحكايات المضللة.

لا نعرف أن الميت يخرج يده!، ثم على سبيل الفرض لو أخرج يده، فهل هذا مسبب أو باعث إلى أننا ندعوه ونستجير به ونطلب منه المدد؟! لكن الشيطان سول لهم، وأملى لهم، فصارت عقولهم خالية من مشكاة النبوة، ولم يعرفوا ما جاءت به الرسل، فصاروا ألعوبة للشيطان يلعب بهم، هذا شأنهم وحالهم، وإلا فالأحاديث صريحة واضحة، بلغت حد التواتر في تحريم البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها.

---

(١) ينظر: تحفة الفقهاء (١/ ٢٥٦)، وحاشية ابن عابدين (٢/ ٢٣٦).

(٢٠) باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١].

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان يلت لهم السويق، فمات فعكفوا على قبره»[٢].

وكذلك قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: «كان يلت السويق للحاج»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» رواه أهل السنن[٤].



(١) أخرجه مالك في الموطأ (ح: ١٨٣) من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار مرسلا.
(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٢/ ٤٨).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٥٩).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٢٠٣٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٢٣٦)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٢٠).

شرح: باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

تقدم أن (الغلو) هو: مجاوزة الحد، ومحبة الصالحين دين وقربة، فإذا أحببتهم لله فهذا دين تثاب عليه، ولكن إذا تجاوزت في هذه المحبة بأن جعلت تسألهم من دون الله، أو بنيت على قبورهم، فقد بلغت الغلو، والغلو يقع في الأفعال والأقوال، وبسببه تصير قبور الصالحين أوثانا تعبد من دون الله.

والأوثان جمع (وثن)، و(الوثن) هو: ما عبد من دون الله، فهو أعم من الصنم؛ فالصنم هو: ما نحت على صورة، وعبد من دون الله.

أما الوثن فهو: ما عبد من دون الله، سواء نحت على صورة أم لا، فلو عبد شجرة أو قبرا فقد اتخذه (وثنا)، وإذا نحته على صورة رجل صالح فهذا يسمى: (صنما)، هذا هو الفرق بين الأصنام والأوثان.

روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١).

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (ح: ١٨٣) من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار مرسلا.
وخالف مالكا معمر - كما عند عبد الرزاق (ح: ١٥٨٧)-، وابن عجلان - كما عند ابن أبي شيبة (ح: ١١٩٤١)- فروياه عن زيد بن أسلم مرسلا من غير ذكر عطاء.
ورواه البزار (ح: ٤٤٠) من حديث عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، به مرفوعا. =

هذا الحديث دل على ما دلت عليه الأحاديث السابقة من لعن رسول الله ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وما تقدم من الأحاديث مع هذا الحديث كلها تدل على تحريم اتخاذ القبور مساجد، سواء كانت قبور أنبياء أو غيرهم.

(اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)، الرسول ﷺ دعا بأن لا يجعل قبره وثنا، كما قال ابن القيم:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ❁ قد ضمه وثنا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه ❁ وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ❁ في عزة وحماية وصيان[1]

= وعمر بن محمد ظن أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله (الاستذكار ٢/ ٣٦٠، التمهيد ٥/ ٤١) أنه: عمر بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب -وهو ثقة-، إلا أن الحافظ ابن رجب تعقبه ورجح أنه: عمر بن محمد بن صهبان - وهو واه، مجمع على ضعفه-. ينظر: لسان الميزان (٦/ ١٣٦)، وذكر ابن رجب في الفتح (٣/ ٢٤٦) أنه رآه منسوبا في بعض نسخ مسند البزار، واستظهر ذلك الهيثمي -أيضًا- (مجمع الزوائد ٢/ ٢٨)، وقد وقع كذلك في (كشف الأستار). وبكل حال فلو سلم أنه عمر بن محمد -الثقة-، فهل يقبل منه وصل ما أرسله معمر ومالك وابن عجلان؟! وقد أشار إلى إعلاله البزار فقال: «لا نحفظه عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد». وللحديث شاهد من مسند أبي هريرة، أخرجه الحميدي (ح: ١٠٥٥)، والإمام أحمد (ح: ٧٣٥٧) من حديث حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، به مرفوعا.

حمزة بن المغيرة هو: ابن نشيط القرشي الكوفي، ليس له في الستة شيء، قال ابن معين: «ليس به بأس». ينظر: تاريخ ابن معين -رواية الدارمي- (ص٩٨)، التاريخ الكبير (٢/ ٤٧).

(١) ينظر: الكافية الشافية (ص٢١٥).

قد يقول قائل: نرى بعض الناس يصلون خلف قبره ﷺ، فهل صار القبر وثنا بهذه الصلاة؟

نقول: إذا قصدوا بصلاتهم الرسول ﷺ فلاشك أنهم اتخذوا قبره وثنا، وإذا كان قصدهم لله فهذا لا يخلو من حالين:

الأولى: إن أرادوا أن لهذا المكان مزيد فضل؛ لأن القبر أمامهم وقصدوا الصلاة لله ولم يقصدوها للرسول ﷺ ولا لغيره، فهذه بدعة من البدع الموصلة إلى الشرك، ولكن لا تسمى شركا، ولا يكون القبر بها وثنا.

الحالة الثانية: إن حصل ذلك من غير قصد، ولم يخطر القبر بباله، فهذا لا مؤاخذة فيه، ولكن بكل حال الأولى الابتعاد عن القبر.

أما اتخاذ القبر وثنا يسجد له، ويذبح وينذر له، كما ينذر لله وكما يسجد لله، فهذا لم يقع في قبر النبي ﷺ، وإن حصل عنده شيء من البدع والأمور المنكرة.

بقيت مسألة وهو ما يفعله بعض الحجاج الجهلة، الذين يأتون ويقولون: «المدد المدد يا رسول الله، أغثني يا رسول الله» لاشك أن هذا من الشرك الأكبر، فهل مثل هذا يكون القبر به وثنا؟

هذا موضع بحث، يأتي الإنسان فيقف أمام قبر الرسول ﷺ فيسلم عليه، ثم يقول: «أغثني يا رسول الله، اكشف عني الشدة يا رسول الله، لن يضيق بي أمر وأنت الملاذ يا رسول الله».

هذا هو الشرك بعينه، فقد صرف للرسول ﷺ حق الله ﷻ، والظاهر أن القبر لا يكون بذلك وثنا؛ لأنهم يقولون هذا القول وهم عند القبر، أو في بلادهم، أو في أي مكان، يطلبون من الرسول ﷺ المدد دون اختصاص ذلك بكونه عند القبر.

وقوله: (اشتد غضب الله)، فيه مسألة أخرى: وهي إثبات الغضب لله، وأنه يغضب ويسخط ويمقت، كما دل عليه القرآن والسنة، فنحن نثبت هذه الصفات لله كما أثبتها لنفسه، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وسبق بيان أن الله بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل.

وهنا قاعدة لابد من التنبيه عليها في (باب الأسماء والصفات)، وهي: أن ما جرى مجرى الخبر فلا يشتق لله منه اسم ولا صفة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]، أخبر أنه سيفتنهم مقابل صنيعهم، فلا نشتق لله اسما منه فنقول: «إن الله هو الفاتن»، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦] هذا خبر، وكقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[1].

والبناء على القبور فيه إضاعة للمال دون فائدة، والحق أنك إذا زرتها تدعو لهم وتتذكر الآخرة؛ فإنا لم نؤمر بإضاءة القبور، ولا باتخاذها مساجد، ولا بجعل شيء من المال فيها، وإنما صيانتها عن ألا تمتهن -فقط-، وكان علي رضي الله عنه إذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٨٦١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أراد زيارة المقبرة جعل يقول: «يا أهل القبور نكحت أزواجكم، وقسمت أموالكم، وسكنت بيوتكم، واستخدمت صبيانكم، هذا خبر ما عندنا فيا ليت شعري ما خبر ما عندكم؟! ثم يقول: والله لو تكلمتم لقلتم: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»(١).

هذا هو قول علي رضي الله عنه إذا زار المقبرة يعظ نفسه بما صار إليه هؤلاء، من أن نساءهم نكحن، وأن أموالهم قسمت، وأن بيوتهم سكنت، وأن صبيانهم الصغار استخدمهم أزواج أمهاتهم، يوبخ نفسه أنه سيحصل له نظير ما حصل لهؤلاء.

وبناء المساجد على القبور وإضاءتها بالكهرباء وبناء القباب عليها وزخرفتها ووضع الأصباغ والكتابات عليها لم يكن من سنة الرسول ﷺ ولم يكن من عادة سلفنا الصالح، ولكن المفتونين بالقبور عظموها وبنوا عليها القباب وذبحوا لها ونذروا لها النذور وصرفوا لها محض حق الله -تعالى-؛ فوقعوا في الشرك الأكبر الذي ينافي التوحيد بالكلية، وينافي ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم.

وقوله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا»(٢)، نهى الرسول ﷺ الرجال عن زيارة القبور؛ لأن القوم كانوا قريبي عهد بكفر، وقلوبهم متعلقة بالقبور، ولما استقر التوحيد في قلوبهم وانقلعت جذور الشرك من نفوسهم رخص لهم النبي ﷺ في زيارة القبور، وعلمهم ما يقولون إذا زاروا المقابر.

---

(١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٢/ ١٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٣٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره»[١].

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: «كان يلت السويق للحاج»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» رواه أهل السنن[٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٥٩).

(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (ح: ٢٨٥٦)، وابن الجعد في مسنده (ح: ١٥٠٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٧٥٤٩)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٢٠٣٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٢٣٦)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٢٠)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٣١٧٩)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٢٧٢٥)، والحاكم في المستدرك (ح: ١٤٠٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (ح: ٧٢٨٦) من طرق عن محمد بن جحادة، عن أبي صالح، عن ابن عباس، به مرفوعا.
اختلف في تعيين أبي صالح، فجزم ابن حبان أنه: ميزان البصري، الثقة، وقد وهم رحمه الله؛ وبيان ذلك من وجهين:
الأول: أنه وقع التصريح بأنه باذام مولى أم هانئ في مسند ابن الجعد.
الثاني: أن ابن حبان رحمه الله لم يتابع على ذلك ولم يتابع.
نص على أنه باذام جماعة من النقاد، منهم إمام الشأن أبو عبد الله أحمد بن حنبل (العلل ٣/ ٣٢٢)، ومسلم بن الحجاج كما نقله عنه ابن رجب في الفتح (٣/ ٢٠١)، وأبو عبد الله الحاكم، وعبد الحق في الأحكام الكبرى (١/ ٨٠)، والمزي في التحفة (٤/ ٣٦٨).
وأبو صالح باذام مولى أم هانئ ضعيف الحديث، قال ابن عدي في الكامل (٢/ ٢٥٨): «لا أعلم أحدا من المتقدمين رضيه».
ثم إن أبا صالح لم يسمع من ابن عباس، كما نص عليه الإمام مسلم (فتح الباري لابن رجب ٣/ ٢٠١)، وابن حبان (المجروحين ١/ ١٨٥)، وهاتان علتان تمنعان الاحتجاج بالخبر.

(٢١) باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات[١].

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيدا، ولا بيوتكم قبورا، وصلوا علي؛ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختارة[٢].



(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٨٨٠٤)، وأبو داود في سننه (ح: ٢٠٤٤).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٧٥٤٢)، والضياء في المختارة (ح:٤٢٨).

شرح: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

الرسول ﷺ بين وأوضحه، وبين ما ينافي التوحيد من الشرك الأكبر، وبين ما ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، وبين ما يقدح في التوحيد من البدع، وبين ما ينقص ثواب التوحيد من المعاصي، وكل هذا قد تضمنه «كتاب التوحيد».

ثم -أيضًا- حمى جانب التوحيد، فلم يقتصر ﷺ على حماية التوحيد، بل حمى جانبه، و(جانب الشيء) هو: ما يقاربه ويلاصقه، كما حمى حمى التوحيد، وقد عقد المصنف بابا في آخر هذا الكتاب، قال فيه: (باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد)، وسد ﷺ كل طريق يوصل إلى الشرك، مثل قولهم: «أنت سيدنا وابن سيدنا»، قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا تَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ»[1]، وهو بلا شك سيدنا وسيد الخلق، بل هو ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»[2].

وقول الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

جاءكم رسول بشر مثلكم، تعرفون صدقه وأمانته، وتعرفون مدخله

---

(١) سيأتي تخريجه في باب: (ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومخرجه، وأنه ذو نسب فيكم، فلم يأتكم شخص مجهول.

قرأ بعض القراء: ﴿مِنْ أَنْفَسِكُم﴾؛ يعني: من أشرفكم، وأكرمكم[(١)]، والقراءة المشهورة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[(٢)].

وهو دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: بشرا مثلهم، من نسبهم، ومن صميم العرب، يعرفونه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يشق عليه عنتكم، فكل ما من شأنه أن يحرجكم ويحز في صدوركم ويؤثمكم من الكفر والضلال والامتحان إلى غير ذلك فإنه يشق عليه ويكلفه، بل هو حريص على ما فيه منفعتكم، حريص على هدايتكم وإنقاذكم من النار، حريص على كل ما فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية، هذه من صفاته ﷺ، فلا خير إلا ودل الأمة عليه، ولا شر إلا وحذر أمته منه، والخير الذي دل أمته عليه هو: التوحيد، وجميع ما يحبه ويرضاه، والشر الذي حذر أمته منه هو: الشرك، وجميع ما يكرهه الله ويأباه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فأكمل الله به ﷺ الدين، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده.

---

(١) وهي قراءة شاذة، قرأ بها ابن محيصن وغيره، ينظر: النهاية في القراءات الثلاث الزائدة عن العشرة لابن الجزري (ص١٤٣).

(٢) وهي قراءة السبعة.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فهو رؤوف بالمؤمنين، رحيم بهم، يتفقد أحوالهم، ويصبر على ما يناله من الأذى والامتحان بسبب الحرص على هدايتهم، ألا ترى ما ورد من أنه ﷺ لما ذهب إلى الطائف يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن عبادة ما سواه؛ سلطوا عليه صبيانهم وضربوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، ثم رجع إلى مكة مهموما حزينا، يدعو بالدعاء المعروف[(١)]، حتى إنه ﷺ جاءه ملك الجبال وقال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ؟»، فقال ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[(٢)]، فانظر إلى نصحه ﷺ وكمال شفقته، وصبره على الأذى، رجاء أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله عز وجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات[(٣)].

---

(١) وهو قوله ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي...» الحديث، وقد رواه الطبراني (الدعاء: ١٠٣٦)، وعنه الضياء في المختارة (١/ ١٢٨) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه. رجاله ثقات، وظاهر إسناده الاتصال، وليس فيه تقرير أصل جديد، فهو حديث حسن -إن شاء الله-؛ لحال محمد بن إسحاق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٢٣١)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٨٨٠٤) من طريق سريج، وأبو داود في سننه، واللفظ له (ح: ٢٠٤٢) من طريق أحمد بن صالح، كلاهما -سريج وأحمد- عن عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، به مرفوعا. =

هذا الحديث دل على مسألتين:

الأولى: قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا): معلوم أن البيت الذي لا يصلى فيه ولا يقرأ فيه القرآن ولا يدعى فيه أنه شبيه بالمقبرة، مما يدل على أن المقبرة لا تنبغي قراءة القرآن فيها، ولا ينبغي الدعاء فيها، ما عدا ما شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور من قول الزائر: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ»(١)، أما ما زاد على هذا فكما ترجم المصنف فيما تقدم: (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!).

وقد قال النبي ﷺ: «أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ»(٢)، فأفضل ما تتعبد به من الصلاة هو ما كان في بيتك، عدا المكتوبة؛ فإنها تصلى في المساجد مع المسلمين؛ كما دل عليه هذا الحديث، وورد في حديث آخر: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ

= وإسناده حسن من أجل عبد الله بن نافع، وهو الصائغ المدني، في حفظه لين، وإذا حدث من كتابه قبل.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الاقتضاء (٢/ ١٧٠): «وهذا إسناد حسن؛ فإن رواته كلهم ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصائغ، الفقيه المدني، صاحب مالك فيه لين لا يقدح في حديثه... ثم إن هذا الحديث مما يعرف من حفظه ليس مما ينكر؛ لأنه سنة مدنية، وهو محتاج إليها في فقهه، ومثل هذا يضبطه الفقيه، وللحديث شواهد من غير طريقه...».
وصححه النووي في الأذكار (ص١١٥)، وابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٨)، وحسنه ابن عبد الهادي في الصارم (ص٤١٤)، وذكر أنه بشواهده يرتقي إلى درجة الصحة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٧٣١) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ»[١]، هذا كله يدل على أنه لا ينبغي أن تتخذ بيتك مشابها للمقبرة بترك صلاة النفل فيه، وترك قراءة القرآن فيه.

فالبيت الذي يصلى فيه ويقرأ فيه القرآن بيت خير، ولا مأوى للشياطين فيه؛ كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وأما المقبرة فلا ينبغي أن تقرأ فيها القرآن، وإن قال بعض أصحابنا الحنابلة: «لا تكره القراءة على القبر»، وزعموا أن الميت يستأنس بقراءة القرآن على قبره، وذكروا في ذلك أثرا عن ابن عمر: أنه أوصى أن يقرأ عند قبره بفواتح سورة البقرة وخواتيمها[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) هذا الخبر رواه عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج فاضطرب فيه، فمرة جعله عن أبيه، عن ابن عمر موقوفا كما عند ابن معين (التاريخ برواية الدوري ٤/ ٤٤٩) - ومن طريقه اللالكائي (ح: ٢١٧٤).

ومرة جعله عن أبيه، عن جده مرفوعا - من غير ذكر ابن عمر - كما عند الطبراني (ح: ٤٩١).

وبكل حال فالخبر ضعيف، لا يجوز الاحتجاج به؛ فإن عبد الرحمن مجهول، لم يرو عنه غير مبشر بن إسماعيل، وله في الستة حديث يتيم، ولذا قال الحافظ في التقريب (ص٥٩٤): «مقبول»؛ أي: إن توبع، ولم يتابع هنا، فقول الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٤): «رواه الطبراني، ورجاله موثقون» فيه نظر؛ فإن عبد الرحمن لم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان (الثقات ٧/ ٩٠).

وللخبر طريق آخر أخرجه الطبراني (ح: ١٣٦١٣)، والخلال في الأمر بالمعروف (ص٨٨) من حديث يحيى بن عبد الله بن الضحاك البابلتي، عن أيوب بن نهيك الحلبي، سمعت عطاء بن أبي رباح المكي يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مات أحدكم فلا تجلسوا، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمتها في قبره».

وهذا خبر واهن يحيى ضعيف الحديث، ذكر ابن عدي (الكامل ٩/ ١٢٠) أنه ينفرد عن المشهورين، ويروي عن المجاهيل، وأن الضعف على حديثه بين. =

ولكن الصحيح أن هذا لا يصح عن ابن عمر، ولا يثبت عنه رضي الله عنه، ولو كان مشهورا لبادر إليه الصحابة رضي الله عنهم، ولما قال الرسول ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا»، مما يدل على أن المقبرة لا يقرأ فيها القرآن، وإنما الذي يشرع

= وقال ابن حبان المجروحين ٣/ ١٢٧): «يأتي عن الثقات بالمعضلات». ينظر: سنن النسائي الكبرى (٤/ ٢٩٥).

وأيوب «منكر الحديث»، قاله أبو حاتم (الجرح والعديل ٢/ ٢٥٩) ينظر: لسان الميزان (٢/ ٢٥٦)، ديوان الضعفاء (ص٤٣٩).

وله علة ثالثة وهي: أن عطاء لم يسمع من ابن عمر، قاله: يحيى القطان، وعلي ابن المديني، والإمام أحمد، وابن معين. ينظر: تاريخ ابن معين للدوري (٤/ ٩٧- ١١٥- ١٨٧)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٥٤- ١٥٥)، فما وقع في هذا الإسناد الضعيف من التصريح بالسماع لا يغني ولا يسمن من جوع.

تنبيه: الذي في مراسيل ابن أبي حاتم أن ابن المديني قال: «لم يسمع من ابن عمرو إنما رآه»، وهو تصحيف صوابه: (ابن عمر)؛ فإنه كذلك في (تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٣) و(جامع التحصيل ص٢٣٧) و(تحفة التحصيل ص٢٢٨). ينظر: حاشية تهذيب الكمال (٢٠/ ٧١).

وبهذا يعلم: أن الذي في الفروع (٣/ ٤٢٠) وغيره من مدونات المذهب من قولهم: «وصح عن ابن عمر...» تصحيح لا يعول عليه، كما أن القول بمشروعية القراءة على القبر لا يصح عن الإمام أحمد رحمه الله.

قال عبد الله (المسائل ص١٤٥): سألت أبي عن الرجل يحمل معه المصحف إلى القبر يقرأ عليه؟ قال: «هذه بدعة».

قلت: وإن كان يحفظ القرآن يقرأ؟

قال: «لا، يجيء ويسلم ويدعو وينصرف».

وقال شيخ الإسلام وعلم الهداة الأعلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٢): «ونقل الجماعة عن أحمد كراهة قراءة القرآن على القبور، وهو قول جهور السلف، وعليه قدماء أصحابه».

أنك إذا دفنت الميت تقف عند قبره وتدعو له وتقول: «اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم ثبته»، كما قال النبي ﷺ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»(١)، هذا هو المشروع، نقف عند قبره، ونسأل الله له التثبيت، ونسأل له الرحمة؛ فإنه الآن يسأل، أما قراءة القرآن أو الأذان والإقامة في القبر، كما يفعله بعض أهل مكة وغيرهم عندما يريدون دفن ميتهم، ينزل واحد فيؤذن ويقيم في القبر ثم يضعونه في قبره، كل هذا من البدع، ولا أصل له في الشرع، ولم ينقل عن صحابي ولا تابعي، حتى علماء مكة أنفسهم أنكروا هذا كما في «فتاوى ابن حجر الهيتمي»(٢)، وهو من علماء مكة.

كما أن تعيين يوم مخصوص لزيارة المقبرة لا أصل له، وقالوا: «من جاء إلى الميت يوم الجمعة قبل طلوع الشمس فإنه يعرفه»، لو سلم أن هذا صحيح، وأنه يعرف زائره كما يقوله بعض الحنابلة، نقول: لا مانع -على فرض صحته-، لكن التزامه كل جمعة ممنوع، لو ذهبت جمعة وتركت جمعة فلا مانع، أما أنك تعين وقتا معينا تلتزمه فقد اتخذته عيدا؛ لأنا قلنا (العيد): اسم لما يعود ويتكرر مجيئه، سواء كان في الشهر أو الأسبوع.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٣٢٢١) - ومن طريقه البيهقي في الدعوات الكبير (ح: ٦٣٦)-، وأخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٥)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة ٥٨٥)، والحاكم في المستدرك (ح: ١٣٧٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح:٧٠٦٤)، من طريق هانئ مولى عثمان، عن عثمان رضي الله عنه، وإسناده حسن.

(٢) ينظر: الفتاوى الفقهية الكبرى (٢/ ١٧).

والسبكي ذكر في كتابه الذي رد فيه على ابن تيمية[١] في معنى قوله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدا» قال: «فيه الحث على زيارة قبر الرسول ﷺ؛ لأن العيد لا يأتي في السنة إلا مرة أو مرتين، فلا تجعلوا قبره كالعيد لا تأتون إلا مرة أو مرتين، بل أكثروا من زيارته وكرروها!»، ابن القيم رد هذا، وذكر أنه تلبيس لم يقل به إلا أهل الضلال[٢]، فهلا قال: «أكثروا من زيارتي»، أو قال: «عينوا يوما لزيارتي»، بل قوله: «لا تتخذوا قبري عيدا» يدل على أنه لا يجوز أن يتخذ يوما معينا لزيارة قبر الرسول ﷺ ولا غيره؛ بدليل قوله: «وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم»، ثم إن أهل البيت كعلي بن الحسين لم يفهموا هذا الذي قاله السبكي وغيره، بل فهموا أنه لا ينبغي أن يجعل قبر النبي ﷺ عيدا، وإنما تأتيه في بعض الأحيان.

أما حديث: «من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»، فهو حديث ضعيف جدا[٣]، وكذلك حديث: «من حج ولم يزرني فقد جفاني» يستدلون به،

---

(١) وهو: «شفاء السقام في زيارة خير الأنام».

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان (١/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (ح: ٢٦٩٣) من طريق أبي الربيع الزهراني، عن حفص بن أبي داود، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر، به مرفوعا.
وهو حديث منكر؛ فإن حفص بن أبي داود هو: ابن سليمان لكن أبا الربيع الزهراني يدلس في اسمه لضعفه، نص عليه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٧٠)، وحفص إمام في القراءات، متروك في الحديث، وليث شيخه لين الحديث.
قال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله في الصارم (ص٨٧): «حديث منكر المتن، ساقط الإسناد، لم يصححه أحد من الحفاظ، ولا احتج به أحد من الأئمة، بل ضعفوه وطعنوا فيه، وذكر بعضهم أنه من الأحاديث الموضوعة، والأخبار المكذوبة».

وهو فاسد المعنى والسند[1]، أما فساد المعنى: فمعلوم أن جفاء الرسول ﷺ كفر؛ لأن معنى الجفاء هو: الصد عنه، وعدم المبالاة به.

وهم يتعلقون بهذه الأحاديث، بل قال الرسول ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»[2]، وهذا صريح في أنه لا يجوز شد الرحل لقبره، فكيف يقال أنه ﷺ قال: «من حج ولم يزرني فقد جفاني»؟!

ومعلوم أن الزيارة بعد الحج مستلزمة لشد الرحل؛ لبعد المسافة ما بين مكة والمدينة، مع قوله: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»، فلا يجوز لك شد الرحل إلى قبر الرسول ﷺ، وإن قال كثير من أهل العلم بشد الرحل لقبر الرسول ﷺ، لكن الذي عليه المحققون كالقاضي عياض وابن بطة الحنبلي وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الهادي المنع من ذلك[3].

---

(١) أخرجه ابن عدي (٨/ ٢٤٨) من طريق النعمان بن شبل، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، به مرفوعا.
وهو خبر باطل؛ فإن النعمان متروك، بل اتهمه بعضهم، وقال ابن حبان في ترجمته في المجروحين (٣/ ٧٣): «يأتي عن الثقات بالطامات، وعن الأثبات بالمقلوبات».
وقال ابن عبد الهادي في الصارم (ص١١٧): «حديث منكر جدا، لا أصل له، بل هو من المكذوبات والموضوعات، وهو كذب موضوع على مالك مختلق عليه، لم يحدث به قط، ولم يروه إلا من جمع الغرائب والمناكير، ولقد أصاب الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في ذكره في (الموضوعات). **ينظر**: الموضوعات (٢/ ٢١٧)».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) **ينظر**: الشفا (ص٥٨٥)، الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٨٨)، الكافية (ص٢١٦)، الصارم المنكي (ص٨١- ٣٣٢).

وقد نقل أبو زرعة ولي الدين العراقي عن والده زين الدين عبد الرحيم أنه جرت بينه وبين ابن رجب الحنبلي مناظرة في هذه المسألة، وكانا مترافقين في سفر[(١)].

المجوزون يقولون: لا دلالة في هذا الحديث على المنع؛ لأن المعنى عندهم: لا تشد الرحال لمسجد يتقرب فيه إلى الله إلا إلى ثلاثة مساجد.

وابن تيمية وابن القيم وابن رجب ومن وافقهم يقولون: لا، بل التقدير: لا تشد الرحال لموضع يتقرب فيه إلى الله إلا إلى ثلاثة مساجد، فيشمل المنع شد الرحل للمشاعر، وقبور الأنبياء، وقبور الأولياء والصالحين.

المسألة الثانية التي دل عليها الحديث: قوله ﷺ: «وصلوا علي؛ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم»: هذا دليل على أن من صلى وسلم عليه في أي مكان فإنه يبلغه ذلك.

قالوا: يا رسول الله كيف نسلم عليك وقد أرمت؟ - أي: بليت-.

قال «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»[(٢)]، يعني:

---

(١) ينظر: طرح التثريب (٦/ ٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٨٦٩٧)، والإمام أحمد مسنده (ح: ١٦١٦٢)، والدارمي في سننه (ح: ١٦١٣)، وأبو داود في سننه (ح: ١٠٤٧)، والنسائي في سننه (ح: ١٣٧٤)، وابن ماجه في سننه (ح: ١٠٨٥)، وابن خزيمة في صحيحه (ح: ١٧٣٣)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٩١٠)، والحاكم في المستدرك (ح: ١٠٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ٥٩٩٣) من طريق حسين الجعفي، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي الأشعث شراحيل، عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة علي». =

أنها طرية، فالأرض لا تؤثر فيها.

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**،

= فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ -يعني: بليت-.
فقال: «إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».
اختلف الحفاظ في تعيين عبد الرحمن بن يزيد هذا، فذهب البخاري وأبو حاتم. وغيرهما إلى أنه: ابن تميم الضعيف، ينظر: التاريخ الكبير (٥/ ٣٦٥)، العلل لابن أبي حاتم (٢/ ٥٢٩)، شرح علل الترمذي (٢/ ٨١٨).
وأنكر ذلك الدارقطني والعجلي في آخرين، وذكروا أن حسينا سمع من ابن جابر الثقة، لا من ابن تميم، وأن الذي حصل منه الغلط في الرجلين هو: أبو اسامة حماد بن أسامة لا حسين، ومال إلى هذا القول ابن عبد الهادي والذهبي، ينظر: الضعفاء للدارقطني (٢/ ١٦١)، شرح العلل (٢/ ٨١٩)، الصارم المنكي (ص٢٠٩)، السير (٩/ ٣٩٨)، وعلى هذا فيكون إسناد الحديث قويا.
ومما يقوي ما ذهب إليه أبو الحسن أربعة أمور:
أولها: أن حسينا الجعفي كان من حفاظ أهل الكوفة ومقدميهم، فيبعد أن يهم في هذا، قال ابن هانئ (السؤالات ٢٠٥٦): «سمعت أبا عبد الله يقول: «ما رأيت أحدا كان أجمع من وكيع وحسين الجعفي، كان شيئا عجبا»، وما رأيت أبا عبد الله يقدم عليهما من الكوفيين أحدا».
الثاني: أن المعروف بالرواية عن أبي الأشعث هو: ابن جابر، وليس في شيوخ ابن تميم ذكر لأبي الأشعث، ولا في الرواة عن أبي الأشعث ذكر لابن تميم.
الثالث: أن النسائي -وغيره- لما ذكروا ضعف ابن تميم قالوا: روى عنه أبو أسامة، ولم يذكروا حسينا، ينظر: الضعفاء للنسائي (ص٦٨).
الرابع: أنه وقع التصريح بأنه ابن جابر عند عامة من أخرجه، والله أعلم بالصواب.

وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ» رواه في المختارة[(١)].

هذا الحديث من بيت رسول الله ﷺ، وذلك لشدة اهتمامهم بهذا الباب؛ لما لهم من قرب النسب وقرب الدار من النبي ﷺ، فالحديث دل على ما دل عليه حديث أبي هريرة السابق، إلا أن فيه زيادة وهي: أن الوقوف عند القبر من أجل الدعاء منهي عنه، وقد تقدم أن الإنسان إذا دعا بالمقبرة ظنا أن لها مزية وخاصية، أو دعا عند قبر رجل صالح أو عند قبر رسول الله ﷺ يظن أنه موضع تجاب فيه الدعوة؛ أن هذا من البدع، ومن وسائل الشرك وذرائعه، لا يجوز أن تدعو الله عند قبر وإن كانت نيتك حسنة، وقصدك صالحا، كل هذا سدا لذرائع الشرك، ومنعا لوسائله.

وأما ما روي عن الإمام مالك من أنه قال للخليفة: «لم تصرف وجهك عن وسيلتك ووسيلة أبيك آدم؟!»، فقد جاء عن مالك نفسه ما يكذب هذا، جاء عنه أنه نهى عن الدعاء عند قبر النبي ﷺ، وقال: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»[(٢)]، وهو: القرآن والسنة.

والإمام مالك -إمام دار الهجرة- نهى أن يسلم على النبي ﷺ كل من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٧٥٤٢) - ومن طريقه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٨٦)، والضياء في المختارة (٤٢٨) - من طريق جعفر بن إبراهيم، عن علي بن عمر بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده، به.
وليس إسناده بالقوي، جعفر وعلي لم يوثقهما كبير أحد، والمرفوع منه يغني عنه حديث أبي هريرة السابق.

(٢) ينظر: الشفا (٢/ ٤١ - ٨٨)، ومجموع الفتاوى (١/ ٢٢٨)، والصارم المنكي (ص٤١).

دخل المسجد النبوي لإرادة الصلاة، أمرهم أن يصلوا عليه عند الدخول كما دلت عليه الأحاديث دون أن يأتوا إلى قبره، وما كان أصحاب النبي ﷺ يترددون إلى قبره مع أنهم من أشد الناس محبة له، ومن أشد الناس حرصا على الخير، ومن أشد الناس اتباعا لسنته، ومع هذا لم يتكرر مجيئهم بصورة دائمة إلى قبره لأجل السلام عليه.

نعم؛ كان ابن عمر رضي الله عنهما يأتي فيسلم عليه إذا أراد أن يسافر أو عاد من سفر[1]، وهذا تفرد به ابن عمر رضي الله عنهما، فكان إذا أراد أن يسافر جاء ووقف عند القبر وقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه»، ثم ينصرف.

أما غيره من الصحابة فلم يأتوا للنبي ﷺ لا عند سفرهم ولا عند المجيء من السفر، لكنهم يسلمون عليه في بعض الأحيان دون أن يتخذوا يوما معينا، أو أسبوعا معينا، أو شهرا معينا، أو سنة معينة، هذا مقتضى ما نقله أئمة العلماء عن الصحابة رضي الله عنهم[2].

---

(١) أخرجه محمد بن الحسن في موطئه (ح: ٩٤٨) عن مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، به.

وينظر: التعليق الممجد للكنوي (٤/ ٤٧٤).

وكذا رواه عبد الرزاق في مصنفه (ح: ٦٧٢٤) عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، به.

فهو ثابت عنه رضي الله عنه بطرق قوية.

(٢) **ينظر**: الشفا (ص٥٩١)، مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٤٣).

قوله: (وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني): يدل على أن الصلاة والسلام عليه من أجل الطاعات، ولا فرق بين من صلى وسلم عليه عند القبر أو كان في بلاده، كما في رواية سعيد بن منصور: «ما أنتم ومن في الأندلس إلا سواء»(١)، كل هذا حسما لمواد الشرك من التردد على القبر حتى تنبت عروق الشرك في القلب بهذا التردد، وهذا التعظيم الزائد على التعظيم المشروع، بل يجعله مثل تعظيم الله، مما يؤدي إلى صرف شيء من حقوق الله له ﷺ.

ثم ما الفائدة في صلاتنا وسلامنا عليه ﷺ مع أن الله صلى وسلم عليه قبل دعائنا؟

نقول: نعم صحيح، الله صلى عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، لكن الفائدة من دعائنا هي: التنويه بشرف النبي ﷺ، وبفضله، وعلو منزلته، ولما يحصل للمصلي عليه ﷺ من الأجر بسبب ذلك، فقد ورد في الحديث: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»(٢)، فالمصلحة والمنفعة عائدة إلى المصلي.

وينبغي قرن السلام مع الصلاة، فلو قلت: «اللهم صل على محمد» -فقط- أو: «اللهم سلم عليه» فلا بأس، لكن الأولى أن تجمع بين الصلاة والسلام خروجا من الخلاف؛ فإن طائفة من أهل العلم يكرهون ذلك.

---

(١) نقلها شيخ الإسلام في (الاقتضاء ١/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو (ح: ٣٨٤)، ومن حديث أبي هريرة (ح: ٤٠٨) رضي الله عنه.

والحاصل: أن الحديث يدل على أنه لا ينبغي أن تدعو عند القبر، بل إذا سلمت عليه ﷺ وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما تتجه نحو القبلة وتدعو بما تيسر لك، دون أن تدعو وأنت متجه نحو القبر، حسما لمواد الشرك ولوسائله وذرائعه الموصلة إليه.

وأما شد الرحل لصلة الرحم ولزيارة المرضى، وطلب العلم، ونحو هذا فجائز؛ فهذه ليست مواضع، والكلام في المواضع من الأرض، أما المعاني فالحديث لا يشملها.



(٢٢) باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله -تعالى-: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والله لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

قال: «فمن؟!» أخرجاه[١].

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد؛ وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه (ح: ٧٣٢٠)، ومسلم في صحيحه بنحوه (ح: ٢٦٦٩).



وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا»[(١)].

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله -تبارك وتعالى-»[(٢)].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، باختلاف يسير (ح: ٢٢٣٩٥)، وأبو داود في سننه، باختلاف يسير (ح: ٤٢٥٢) -تاما-، والترمذي في جامعه (ح: ٢١٧٦) -مختصرا-، وابن ماجه في سننه، باختلاف يسير (ح: ٣٩٥٢).

شرح: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

أراد المصنف بهذه الترجمة بيان أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها من يعبد الأوثان، ردا على من قال: «إن هذه الأمة لا يقع فيها شرك»؛ فإن بعض المنتسبين للعلم ألف المؤلفات العديدة في هذا الموضوع، وزعم أن الأمة معصومة عن الشرك، ولا يمكن أن يقع فيها أي شرك، وإنما يقع فيها المعاصي والمخالفات والكبائر، ولكن القرآن والسنة يردان عليه، من أجل هذا عقد المصنف هذه الترجمة.

نعم؛ الحق لا يزال فيها ولا ينقطع، وهذه الترجمة التي ترجم بها المصنف قريبة من ترجمة البخاري في صحيحه حيث يقول: (باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان)، حدثنا أبو اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ»[1].

وهناك أحاديث وآثار أوردها ابن حجر في «شرح البخاري»[2] على هذا المعنى تدل على أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها الشرك.

والقائلون بأن هذه الأمة لا يقع فيها شرك يستدلون بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] قالوا: لما أن الله أكمل لنا الدين، وبين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٧١١٦).
(٢) ينظر: فتح الباري (١٣/ ٧٧).

لنا الرسول ﷺ البلاغ المبين، ورضي لنا الرب الإسلام دينا، ونحن مستمسكون به فلا يقع الشرك فينا.

واستدلوا -أيضًا- بحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[(١)]، قالوا: هذا يدل على أن الأمة لا يقع فيها شرك.

والجواب عن هذا واضح؛ فإن قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: كمل الدين عندما أنزلت هذه الآية، وفهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الشيء إذا كمل لابد وأن يعتريه النقص[(٢)]، فما من شيء كمل إلا ومآله النقص بكل حال[(٣)].

وقال الرسول ﷺ في خطبته: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ...»[(٤)]، وقال: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»[(٥)] إلى غير ذلك، كل هذا يدل على أنه لابد من وجود الشرك في هذه الأمة، ولذا عقد المصنف هذه الترجمة: (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٣٤٤٠٨)، وابن جرير (٨/ ٨١) وفي إسناده انقطاع.

(٣) كما قال أبو بكر الخوارزمي:

إذا تم شيء بدا نقصه،،، ترقب زوالا إذا قيل: تم

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢١- ١٧٤١- ٤٤٠٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٦٥- ٦٦- ١٦٧٩- ٢٩٠٥) من حديث عبد الله بن عمر وأبي بكرة وجرير رضي الله عنهم.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) وأما الجواب عن الاستدلال بحديث «إن الشيطان أيس...» فقد بينه الشارح في أول الكتاب، وخلاصته: أن اليأس وقع من الشيطان حين أصابته الحسرة من انتشار الخير، وليس في الحديث أن يأسه وظنه صحيح.

وقول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

المعنى: أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها نظير ما ود عند اليهود والنصارى، مما تضمنته هذه الآية.

وسبب نزول الآية هو: أن المشركين بعثوا من قبلهم وفدا إلى يهود المدينة وقالوا: جئنا نسألكم عنا وعن محمد؟

قالوا: ما أنتم وما محمد؟ - والقائل حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وهما أعلم علماء اليهود، ولكنهم أشرهم ضلالا-.

قالوا: محمد صنبور -يعني: وحده-، لم يتبعه إلا سراق الحجيج من مزينة وغفار، ونحن نسقي الماء واللبن وننحر الكوماء[1] - يعني: للحجاج-، ونحن سدنة بيت الله الحرام.

فقال الكافران الكاذبان الجاحدان الملعونان: أنتم خير وأهدى سبيل من محمد.

فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ -وهما حيي بن

---

(١) هي: الناقة الضخمة طويلة السنام، فإذا كانت عظيمة السنام فهي: (مقحاد)، ينظر: فقه اللغة للثعالبي (١/ ١٢٢)، ومن الأمثلة النحوية في ذكر (رُبَّ) للتقليل قولهم: «رب ناقة كوماء نحرت».

أخطب وكعب بن أشرف ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ -يعني: من محمد- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥١- ٥٢][(١)].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

اليهود لما حرم عليهم الاصطياد يوم السبت تحيلوا حيلا، فنصبوا الشباك يوم الجمعة، تأتي الحيتان على عادتها فتقع في شباكهم يوم السبت، فإذا انتهى يوم السبت جاءوا وأخذوها، فقالوا: «نحن لم نصطد يوم السبت»!، فلعنهم الله عند ذلك، وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير؛ لأنهم تحيلوا إلى ارتكاب المحرم بما صورته صورة المباح؛ فلهذا لا تجوز الحيل في الشريعة

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (ح: ٦٤٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤)، من طريق عمرو بن دينار.
ورواه عبد الرزاق في التفسير (١/ ١٦٤) من طريق أيوب السختياني.
ورواه الطبري (٧/ ١٤٢) من طريق خالد بن عبد الله الطحان وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن داود -وهو ابن أبي هند-.
جميعهم: عمرو، وأيوب، وداود عن عكرمة مرسلا.
وقد اختلف فيه على داود فرواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٣) والطبري (٧/ ١٤٢) من طريق محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، ورواية الجماعة أصح، وابن أبي عدي قد سلك الجادة.
تنبيه: رواية الإمام أحمد عن ابن أبي عدي نقلها ابن كثير في التفسير (٣/ ١٣٩) وليس موجودة في نسخ المسند التي بين أيدينا.

الإسلامية، وقد ورد في الحديث: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

أي: بنوا مسجدا على أصحاب الكهف، والمعنى: أنه لابد أن يوجد في هذه الأمة من يبني المساجد على قبور الصلحاء والأنبياء نظير ما هو موجود في الأمم السالفة قبلنا سواء بسواء.

والقبوريون يقولون: إن الآية دلت على مدح اتخاذ المساجد على القبور؛ لأنه قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] فالآية خرجت مخرج المدح!

ولا يخفى فساد هذا، بل خرجت مخرج الذم والعيب لهم، سواء كانوا مسلمين أو مشركين، والنبي ﷺ قال: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢)، وهذا يبين أن المقام ليس مقام مدح، وإنما مقام ذم، والمفسرون تكلموا على هذه الآية، وأحسن من تكلم عليها ونقل أقوال العلماء الأربعة في تحريم بناء المساجد على القبور والأدلة في ذلك هو الآلوسي في (تفسيره)؛ فإنه بسط المسألة وأوضحها ونقل أقوال العلماء، ورد زعم من قال:

---

(١) أخرجه ابن بطة في إبطال الحيل (ص٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه ضعف.
(٢) سبق تخريجه.

«إن المراد هو المدح، وأنه يجوز اتخاذ المساجد على القبور»، وبالغ في ذلك -جزاه الله خيرا-[1].

والمعنى: أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها نظير ما وجد في الأمم السالفة، وقال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»[2]؛ لأن اليهود يعرفون الحق ولم يعملوا به، والنصارى يعبدون الله على جهل وضلال، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وهم: اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم: النصارى، فانطبق عليهم قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤].

وهنا دسائس يفعلها المستعمرون اليوم في رحلاتهم واقتراحاتهم السياسية عندما يريدون نشر مبدأ من مبادئهم؛ كالشيوعية أو القاديانية أو اليهودية أو النصرانية، فعندهم خطة، وهي أنهم يرون المسلمين فيهم علماء أفاضل، وفيهم أهل خير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيقولون: ينبغي إيجاد فجوة بين هؤلاء وبين عامة المسلمين، وصورة الفجوة أن يقال: «إنهم قصروا ولم يقوموا بواجبهم، وأن الوظائف أغرقتهم، وأنهم كذا وكذا»، فينبغي نشر هذا بين العامة، حتى إن العامَّة ينفرون من العلماء ولا يقبلون منهم، فإذا جئنا بأي

---

(١) ينظر: روح المعاني للآلوسي (٨/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى (٢/ ١٤٢)، ودرء التعارض (٨/ ٦٩).

مذهب أو بدعة تقبلته العامة؛ لأن العقبة الكأداء في سبيل ما نريده هم: العلماء، فإذا أوجدتم فجوة بينهم وبين العامة صار العامة لا يقبلون منهم، وصاروا مسرحا لقبول أي دعوة تأتيهم من غير المسلمين، هذا من خططهم التي قرأناها عنهم.

وهذا من أهم ما ينبغي التنبه له، وهو أن الدعاة للباطل يوجدون فجوة بين العلماء وبين العامة، حتى إنهم إذا نصحوهم، وبينوا لهم الأدلة، وهدوهم إلى الطريق لم يقبلوا منهم، إذن يقبلون أي دعوة مخالفة لدعوة الإسلام، هذا من خطط المستعمرين.

ثم ذكروا الدعوة للشيوعية، وقالوا: الشيوعية لابد منها، وهي تتركز على أمور، ننبه عليها عامة المسلمين؛ حتى نستطيع أن ندخل عليهم الشيوعية.

فنقول: هذا المال الذي بين المسلمين هو الذي سبب القتال، فما هناك قتال بين الحكومات وبين الأفراد، وبين الأسر، وبين الناس، إلا وسببه المال، فلابد أن تستأصل هذا المال ونأخذه من أيديهم حتى يصيروا إخوانا، ونستريح من القتل والقتال؛ لأن القتال بين الحكومات والدول، والخصومات بين الأقارب والأسر، وبين عامة المسلمين، كله نشأ بسبب طلب المال، والدعوة إلى المال، فإذا سلبنا ما في أيديهم من المال، وجعلناهم سواسية ذهبت الضغائن؛ فالشيوعية لا تميز بين هذا وهذا، هذا من خطط القضاء على الإسلام، ولهم خطط أخرى طويلة عريضة.

والحاصل: أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها نظير ما وجد في الأمم التي قبلها.

عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «والله لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

قال: «فمن؟!» أخرجاه(1).

(اليهود والنصارى): بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

ويجوز النصب: (اليهود والنصارى)، على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: تعني اليهود والنصارى؟

قال: (فمن؟!): فمن المعنيون إلا أولئك.

وهذا الحديث دل على أنه لابد أن يقع في هذه الأمة نظير ما وقع في الأمم الأخرى من الانحراف عن دينها؛ كما دلت عليه الآيات السابقة، هذا وجه مطابقة الحديث للترجمة، وذكره بعد الآيات السابقة.

(لتتبعن): اللام موطئة للقسم؛ أي: ممهدة للقسم، فالمعنى: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، جاءت في جواب قسم محذوف، مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بنحوه (ح: ٧٣٢٠)، ومسلم في صحيحه، بنحوه (ح: ٢٦٦٩).

(حذو القذة بالقذة): لن تخرجوا عن سنن اليهود والنصارى والأمم التي قبلكم، حذو القذة بالقذة؛ أي: كريشة السهم مقابلة للريشة الأخرى، لا تزيد عليها ولا تنقص.

وقد وقع قول النبي ﷺ؛ فإن اليهود قد استحلوا الربا، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦٠- ١٦١]، وقد وجد في هذه الأمة من يستحل الربا الذي هو محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

ووجد في الأمم قبلنا من يبني المساجد على القبور ويعتقد في صلحائهم، ووجد في هذه الأمة نظير ذلك، بنوا القباب على القبور وعبدوها من دون الله، وصرفوا لها محض حق الله -تعالى-.

كذلك وجد في الأمم قبلنا من يستحل المحارم بأدنى الحيل، ووجد في هذه الأمة من يصنع ذلك.

واليهود يعطلون يوم السبت، والنصارى يعطلون يوم الأحد، ويوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع، فصار المسلمون يعطلون الأعمال يوم الجمعة، شابهوا اليهود والنصارى في هذا، وقد تكلم ابن تيمية على هذه المسألة في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم»[1]، وذكر: أنه لا ينبغي للمسلمين أن يعطلوا الأعمال يوم الجمعة، فهو يوم شريف يعملون فيه لآخرتهم، ويعملون

(١) ينظر: الاقتضاء (١/ ٣٩٥).

فيه لدنياهم، ولا يشابهون فيه غيرهم؛ فإن الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يخصصون يوم الجمعة بترك الأعمال، وإنما يخصصونه للتفرغ للعبادة بأن يعطلوا مساجدهم ويجتمعوا في مسجد واحد، ثم كل يذهب إلى عمله، وكذلك قبل الصلاة، كل يكون في عمله، وليس هناك تعطيل بالكلية، ولا يوجد في الشريعة الإسلامية شيء يسمى تعطيلا رسميا، ولكن لابد أن يوجد في هذه الأمة نظير ما وجد بالأمم قبلها، حتى إن خفي على الناس، وظنوا أن هذا عادة، وأن هذا جائز، وأنه لا بأس به؛ لأنهم ألفوه واعتادوه وتناقلوه وفعلوه من غير نكير، فلو قال قائل: «هذا لا ينبغي»؛ لاعتبر سفيها، أو أنه عاش في القرون الوسطى، وأنه لم يعرف شيئا من حضارة الأمم، وما أشبه ذلك.

(لتتبعن سنن من كان قبلكم): في بعض روايات الحديث: «حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»(١)، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢)، وأقل ما يفيده الحديث التحريم، وإلا فظاهره يقتضي الكفر؛ لأنه من تشبه بقوم فهو يكون من أولئك القوم المتشبه بهم، ونحن مأمورون بمخالفتهم ومعاداتهم وبغضهم وعداوتهم، هذه هي ملة

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٦٤١) من طريق عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد -وهو أبو عبد الرحمن الحبلي-، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعا.
أعله الترمذي بعد إخراجه بقوله: «هذا حديث مفسر غريب، لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه».
وعبد الرحمن بن زياد ضعيف الحديث، والخبر خبر منكر.

(٢) سبق تخريجه.

إبراهيم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، وهذه الملة التي أمر نبينا ﷺ باتباعها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا»(١).

هذا الحديث حديث عظيم، فيه دليل على شيء من معجزات رسول الله ﷺ حيث أخبر بالشيء قبل وقوعه، لم يقع ما أخبر به إلا بعد وفاته ﷺ، في أيام عمر وبعده.

(إنَّ الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارق الأرض ومغاربها)؛ أي: ضم لي الأرض، فقرب أبعادها حتى رأى البعيد قريبا، فكأنه يرى جميعها كما يرى الإنسان الخبز في كفه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٨٨٩).

(وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها): وقع الأمر كما أخبر ﷺ، فإن ملك هذه الأمة اتسع شرقا وغربا، ما لم يتسع شمالا وجنوبا، فقد انتهى ملك المسلمين إلى طنجة، دخلوا هذه البلاد، وأخضعوهم إلى أوامر القرآن ونواهيه، هذا من جهة الغرب.

ومن جهة الشرق: إلى سور الصين من وراء خراسان، صارت أمة واحدة، يحملون جوازا واحدا مع اختلاف لغاتهم، وتباعد ديارهم، جوازهم هو: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، بينما كانت أمة ضعيفة مهينة، لكن بتمسكها بما جاء به نبيها ﷺ صارت أرقى الأمم وأعز الشعوب، وأزالوا من الوجود ملك أمتين عظيمتين هما أقوى أمم الأرض وأشدها بأسا: فارس والروم.

فإن المسلمين لما دخلوا بلاد فارس أخضعوهم لأوامر القرآن ونواهيه، وما جرى لهم من الحروب أمر معروف معلوم، وما جرى لملك كسرى من الذل والهوان، فقد بعث إلى ملك (فرغانة)[(١)]، يقول له: «الغوث الغوث قبل أن يصل إليك الخطر، فإن أمة قليلة من بلاد العرب دهمت بلادنا، واستباحت نساءنا وأموالنا، الغوث قبل أن يصل إليك الخطر»، بعث بكتابه هذا رجلا من قبله، لما وصل الرسول إلى ملك فرغانة وقرأ الكتاب خلا بالرسول وقال: «ويحك أخبرني عن هذه الشرذمة القليلة التي دهمت بلاد فارس، وقد مضى عليها في الملك أكثر من أربعة آلاف سنة».

---

(١) بلد من بلدان ما وراء النهر، قريب من تركستان، وكل من ملك فرغانة يلقب بالإخشيد. ينظر: معجم البلدان (٤/ ٢٥٣)، والبداية والنهاية (١٥/ ١٧٤).

قال: «إنهم قوم من العرب دهموا البلاد كما أخبرك الملك في كتابه».

قال: «أسألك وتصدقني؟».

قال: «أفعل».

قال: «ماذا يقولون؟».

قال: يقولون: «اعبدوا الله وحده لا شريك له»، ويأمرون بالعفاف وصلة الأرحام، وينهون عن عبادة الأوثان.

قال: «فما عبادتهم؟».

قال: «خمس صلوات في اليوم والليلة، إذا حضرت قاموا يؤدونها منتظمين صفوفا خلف إمامهم، هي أحب إليهم من أنفسهم ونسائهم وأبنائهم».

قال: «هل يغدرون إذا عاهدوا؟».

قال: «لا».

قال: «هل يفون إذا وعدوا؟».

قال: «نعم».

قال: «فإن أعطيتموهم ما طلبوا؟».

قال: «ذهبوا وتركونا».

قال: «ارجع إلى رستم، وقال له: صالحوا القوم، فوالله لا طاقة لي ولا لكم بهم، والله لو حاربوا الجبال لزحزحوها من أمكنتها ما داموا على هذه الحالة»[1].

فالقوم عرفوا الإسلام وعرفوا ماذا يدعو إليه الإسلام وماذا ينهى عنه.

هذا معنى قول النبي ﷺ: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»، والمسلمون لما حاربوا قيصر ملك الروم، عندها أحس بالضعف وانكسرت جيوشه، وهزموا شر هزيمة، وظهر وعد الله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فحمل أهله وما يستطيع حمله من الشام ذاهبا إلى بلاده وبكى وهو راكب بعيره حتى أخضل لحيته بالبكاء وقال: «السلام عليك يا سوريا، سلام مودع لا لقاء بعده»؛ لعلمه أن هذا دين من تمسك به ساد، ومن ضيعه ضاع، ولم يهزم المسلمون، لكن لما غيروا غير عليهم، وأصبحوا غثاء كغثاء السيل، كما أخبر النبي ﷺ، فهذا ابن الأثير يقول في شأن المسلمين لما أراد ذكر واقعة التتار حين خرجوا يريدون استئصال المسلمين وقتل في يوم واحد سبع مئة ألف من المسلمين، قال ابن الأثير: «كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى، هل أذكر واقعة التتار أم لا؟!

هل أذكر ما حل بالمسلمين؟!

هل أذكر المصائب التي جرت على الإسلام وأهله؟!».

---

(١) ينظر: تجارب الأمم وتعاقب الهمم (١/ ٤٢٢) لابن مسكويه.

ثم قال: «يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني كنت نسيا منسيا!!»، ثم أخذ يبين شيئا من الواقعة[1]، مع أنه توفي قبل أن يكمل واقعة التتار، وإنما ذكر مقدمة خروجهم، وبسطها السبكي[2] وغيره.

قال: (وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض)؛ أي: الذهب والفضة.

(وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة): فالرسول ﷺ سأل ربه ألا يهلك هذه الأمة بالجدب والسنين، كما أهلك آل فرعون بالسنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فالله ضمن لهذه الأمة أنه لا يهلكها بالجدب والسنين المتتابعة والجوع أبدا.

(وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم) وهي: ساحتهم وما يملكونه من البلاد.

(قال الله: إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد)؛ أي: إذا حكمت حكما مبرما فلا قدرة لأحد على رده.

(وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكها بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا): فالله أعطى محمدا ﷺ ما طلب، ما

(١) ينظر: الكامل في التاريخ (١٠/ ٣٣٣).

(٢) ينظر: طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٣٢٩).

عدا تسليط بعضهم على بعض، فإذا اختلفت الأمة سلط عليها الكفار، ودخلوا من هذه الجهة؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، نفي من الله نفيا قاطعا لأي سلطة للكافر على المؤمن، المعنى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سلطانا، لكن قد تقول: نجد الآن السلطة للكفار على المسلمين فأين وعد الله في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وفي قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وفي قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؟! بل نجد الكافرين لهم القوة ولهم السلطة ولهم الهيمنة ولهم التأثير على المسلمين، والمسلمون لا قدرة لهم على مدافعتهم!

نقول لك: هذا وعد الله ولن يخلف الله وعده، لكن هل المسلمون اليوم ينطبق عليهم أنهم مؤمنون حقا؟!

تقول: ما علامة اختلال شيء من الإيمان؟

نقول لك: المؤمنون الذين جاء ذكرهم في الآيات السالفة ووعدهم الله

بالنصر وصفهم الله بخمس صفات، فانظر هل تنطبق على المسلمين اليوم؟! هذه الصفات هي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ تعظيما لله وهيبة من خالقهم وبارئهم هل يوجد شيء من ذلك فينا؟!

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ إذا سمعت القرآن هل يخشع قلبك وتخشع جوارحك وتعمل بما سمعت؟!

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾؛ أي: يعتمدون على الله في جميع أمورهم وملماتهم، وليس في قلوبهم أجل من خالقهم، مع الأمر بتعاطي الأسباب، هل هذا منطبق علينا؟!

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يؤدون الصلاة بواجباتها وشروطها وسننها في أوقاتها، هل هذا منطبق علينا؟!

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ أي: يؤدون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم بنية صادقة وإخلاص لله، هل هذا منطبق علينا؟! ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان، وإنه

سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله -تبارك وتعالى-»[1].

(الأئمة): جمع إمام، والإمام هو من يقتدى به، فكل من يقتدى به فهو إمام، وإذا كان يقتدى به في غير الخير، فهذا من الأئمة المضلين؛ كما في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ وذلك لأنهم قادة في الشر والبلاء، وقادة في مخالفة ما جاء به النبي ﷺ، كما هو واقع فيه كثير من الناس.

وعلماء الضلالة ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: علماء ضلالة، ممن يبيع دينه بدنيا غيره، علماء الفسوق، آلة السياسة، وأعوان الرياسة، هؤلاء من الأئمة المضلين؛ وذلك لأنهم يفتون الرؤساء تزلفا لديهم وتقربا إليهم؛ لطمع في دنياهم.

القسم الثاني: من يدعو إلى بدعته ويأمر الناس باتباعه، ويقول: «قد جئتكم بما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، باختلاف يسير (ح: ٢٢٣٩٥)، وأبو داود في سننه، باختلاف يسير (ح: ٤٢٥٢) -تاما-، والترمذي في جامعه (ح: ٢١٧٦) -مختصرا-، وابن ماجه في سننه، باختلاف يسير (ح: ٣٩٥٢)، من طريق أبي قلابة، عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان، به مرفوعا.
ومن هذا الطريق أخرجه مسلم سواء بسواء، بل شيخ مسلم وشيخ الترمذي واحد! فإعراض مسلم عن هذه الزيادة مع تحصلها له - رواية- مشعر بإعلالها، والله أعلم.

لم يأت به غيري»؛ كأحمد التيجاني له أتباع كثيرون لا يحصون في المغرب، يسمون: (التيجانية)، جاءهم بورد يزعم أن قراءته تفضل على قراءة القرآن بستة آلاف مرة، ويزعم أن أصحابه ومتبعيه أفضل من أصحاب الرسول ﷺ، ويزعم أن روح الرسول ﷺ حلت في جسمه، وأنه يحكي عن الله؛ كما كان الرسول ﷺ يحكي عن الله، هذا لاشك أنه من الأئمة المضلين، وأمثالهم كثير من المبتدعة وأهل الطرق المنحرفة والطوائف التي خرجت عن الطريق المستقيم، وهذا معنى قوله ﷺ: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»؛ لأن هؤلاء أعوان الشيطان، يحسنون للناس الضلال، ويقولون: إن هذا هو الحق، وليس هو بالحق بل هو الضلال البعيد، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ من خوفه على أمته من أمثال هؤلاء.

(وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة): هذا من علامات نبوته ﷺ؛ فإن السيف منذ وقع على رقبة عثمان رضي الله عنه وهو لا يزال باق في هذه الأمة، لا يرتفع إلى يوم القيامة، إلا أنه يقل ويكثر، فربما وقع في جهة، وارتفع عن جهة.

وعثمان رضي الله عنه هو ثالث الخلفاء ومن أجل الصحابة وأفضلهم، وقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، وهو ذو النورين، تزوج بنتين من بنات الرسول ﷺ، وما وقع له في آخر أيامه هو ابتلاء وامتحان، ولما قتل رضي الله عنه أنشد حسان بن ثابت قصيدته المعروفة التي قال فيها:

ضحوا بشمط عنوان السجود به ❁ يقطع الليل تسبيحا وقرآنا[1]

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٤٩)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٥٢).

وما وقع بين الصحابة هو مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ، فقد وقع بسبب قتل عثمان ما وقع كوقعة صفين، ووقعة الجمل، وخروج الخوارج، وما حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ثم فتنة ابن الأشعث، وسليمان بن صرد، إلى غير ذلك من الفتن التي لا تحصى، وهذا معنى قوله ﷺ: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة».

إلا أن أهل السنة والجماعة يمسكون عن الكلام فيما شجر بين الصحابة، ويترضون عنهم، ويقولون: هم في ذلك إما مجتهدون مصيبون، أو مجتهدون مخطئون، وخطؤهم مغفور لهم؛ لأنه نشأ عن حسن نية واجتهاد، ثم هذا الخطأ مغمور في جانب فضلهم، وجانب سابقتهم، وتصديقهم للرسول ﷺ، وإيمانهم به، وجهادهم معه -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وكما قال بعض السلف: «تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فنطهر منها ألسنتنا»(١).

(ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين): (الحي): القبيلة، يلحقون بالمشركين، ويدينون بما عليه المشركون، وهذا وقع كما أخبر به ﷺ؛ فإن من تأمل التاريخ ونظر فيما ورد في الوقائع التي حصلت بعد وفاته ﷺ، وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه، وما حصل من الردة في أيام أبي بكر وما بعده في كل قرن وجيل، عرف مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ من قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين».

(١) ينظر: منهاج السنة (٦/ ٢٥٤)، ومعجم الشيوخ (٢/ ١٨٦).

«وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان»: هذا شاهد الترجمة من أن هذه الأمة لابد أن يوجد فيها من يعبد الأوثان؛ كما وجد في مشركي العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ، وإن سموا عبادتهم للأوثان: (توسلا)، أو (طلبا للشفاعة)، فالحقيقة أنها عبادة، والأسماء لا تُغيِّر الحقائق، ولكن هذا مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ من وقوع الشرك في هذه الأمة، كما هو واقع في وقتنا هذا -وقبل وقتنا بدهر- من افتتانهم بالقبور، وذبحهم لها، وعبادتهم أصحابها من دون الله، وطلب المدد منهم، وسؤالهم تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وصرف محض حق رب العالمين لهم، بالإضافة إلى آخرين يقولون: «إن هؤلاء العلماء يعرفون العلوم الظاهرة، ولكن علم الباطن لا يعرفونه»؛ كابن عربي الطائي؛ فإن عنده من الشقاشق والعبارات الكثيرة المنتنة الكفرية ما يعرفه كل أحد؛ فإنه يقول في حق الله سبحانه وتعالى:

إن شئت من ملك إن شئت من ❁ إن شئت من شجر إن شئت من
إن شئت من جبل إن شئت من ❁ إن شئت من بلد إن شئت من نار

يعني: ما في هذا الوجود إلا الله، فهذا من الأئمة المضلين، وهذا في الحقيقة أكفر من اليهود والنصارى؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)].

«وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»: أخبر في هذا الحديث بأنه سيأتي أناس يدعون أنهم أنبياء،

---

(١) **ينظر**: التدمرية (ص٤٩)، وشرح الأصفهانية (ص١٥٨)، والفتاوى الكبرى (٣/ ٥٠٢).

وأن جبريل عليه السلام يأتيهم بالوحي، وأنهم ثلاثون شخصا، ووقع كما أخبر؛ فإن أناسا ادعوا أنهم رسل، وأنهم أنبياء الله، وهم كذبة فيما ادعوه، منهم: مسيلمة الكذاب، قتله خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر، وكان معه خلق كثير من بني حنيفة، فغزاه المسلمون في عقر داره، وقتلوه، وأبادوا خضراءه، لكن قتل من الصحابة خلق كثير -أيضًا-، واستحر القتل في القراء من الصحابة رضي الله عنهم.

كذلك -أيضًا- الأسود العنسي في اليمن، ولكن تصدى له بعض المسلمين فقتلوه في حياة النبي ﷺ.

وكذلك -أيضًا- طليحة بن خويلد الأسدي في خلافة أبي بكر، كان يلتف في كسائه، ويقول: «هذا جبريل أتاني ليخبرني بما أمر الله به»، فتبعه خلق كثير فقاتله الصحابة، ولكنه أسلم وحسن إسلامه، واستشهد يوم القادسية في العراق في خلافة عمر رضي الله عنه.

وكذلك سجاح، وهي امرأة من بني تميم، ادعت أن الوحي يأتيها، فتبعها من بني تميم نحو مئة ألف مقاتل، فصار معها خلق كثير، واتفقت مع مسيلمة؛ كما هو معلوم في كتب الأخبار، لكن نقل أنها أسلمت، ولهذا قال الشاعر(1):

وأما سجاح يا جهول فأسلمت ❁ وربك تواب على كل تائب

---

(1) هو: شيخ شيوخنا الشيخ الفقيه عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، والبيت من قصيدته في الرد على فتى البطحاء (ص١١٩).

ويقول شاعر بني تميم في شأن سجاح:

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها ❁ وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

يعرض بأن نبيتهم أنثى، وخبرها مع مسيلمة حينما خطبها معلوم في كتب التاريخ، وقد أشار إلى شيء من هذا ابن جرير في «تاريخه»، وابن كثير[1].

وكذا المختار ابن أبي عبيد؛ فإنه تولى العراق وتتبع قتلة الحسين بن علي، ولكن الشيطان زين له، وادعى أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيه، وقال: «هذه الملائكة تقاتل معنا»، حتى إن رجلا قال: «يا نبي الله رأيت الملائكة تقاتل معنا».

فقال: «أخبر الناس»، فأخبر الناس بأن الملائكة تقاتل مع المختار ابن أبي عبيد، فلما أشاع الرجل هذا الخبر، أخذه المختار وضمه إليه، وقتله خشية أن يكذب نفسه، وقتل المختار بعد ذلك، مع أنه صارت له شوكة عظيمة، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد تزوج أخته -وهي: صفية بنت أبي عبيد-.

وكذا الحارث الكذاب أيام عبد الملك بن مروان، ثم ظهر كذابون ادعوا النبوة في خلافة بني العباس، وعد من ادعى النبوة وكانت لهم شوكة وقوة وحصل لهم أتباع فبلغوا هذا العدد، أما الذين ادعوا النبوة ولم يتبعهم أحد بل نشأ ذلك عن جنون أو خلل في العقل فهم كثيرون جدا لا يحصون، ولهم أخبار في كتب الأدب وكتب التاريخ، شيء من الجنون، وشيء من الحكايات المضحكة، من ذلك: أن رجلا ادعى النبوة في عهد هارون الرشيد فقال هارون: «احبسوه في هذه الغرفة وأطعموه».

(١) **ينظر**: تاريخ الطبري (٣/ ٢٦٧)، والبداية والنهاية (٩/ ٤٥٧).

ففعلوا، وكانوا يطعمونه أصنافا جيدة وطيبة، فأعجبه ذلك.

وبعد سبعة أيام أخرجوه، فقال له الرشيد: «هل أنت نبي؟».

قال: «نعم، وجبريل أتاني اليوم».

فقال الرشيد: «ماذا قال لك جبريل؟».

قال: «قال لي: ادخل هذه الغرفة، ولا تخرج منها أبدا».

فضحك الرشيد، وكان يريد أن يعاقبه فتركه؛ لأنه مجنون مختل، أعجبه الأكل فأراد الإقامة عندهم![1].

(وأنا خاتم النبيين): يعني: أن النبوة انقطعت بوفاته ﷺ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو الخاتم، لا نبي بعده.

«ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»: في هذا الحديث البشارة لهذه الأمة؛ وأن الخير لا يزال باقيا فيها إلى يوم القيامة، ولا ينقطع الخير من هذه الأمة، بدليل قوله ﷺ: «ولا تزال»، فهم على الحق ثابتون، وبالحق عاملون، ولذا بقيت الطائفة المنصورة، وورد في بعض الأخبار أنهم بالشام وفي بيت المقدس، لكن هذا لا يصح[2].

---

(١) ينظر: الكامل في التاريخ (٤/ ٣٢٦)، وتاريخ الإسلام (٥/ ٣٨٦).

(٢) زيادة: (وأين هي يا رسول الله؟ قال: «في بيت المقدس، وفي أكناف بيت المقدس»)، رواها عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (ح: ٢٢٣٢٠) فقال: وجدت في كتاب أبي بخط يده... فذكره من مسند أبي أمامة رضي الله عنه. =

بل قال الإمام النووي[1] وغيره: «لا يشترط أن يكونوا في موضع معين، أو جهة معينة، بل يمكن وجودهم وهم متفرقون، وقد لا يعرف بعضهم بعضا».

كما هو الواقع؛ فإن منهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنهم من يعرف الحديث ويبينه، ومنهم من يبين للناس محاسن الشريعة وحكمها وأسرارها، ومنهم من يدعو إلى الله على طريقة الرسل، هؤلاء هم الطائفة المنصورة ما داموا على الحق مستقيمين، لكن لا يشترط أن يكونوا جماعة لهم غلبة وقوة وشوكة، بل يمكن وجودهم على هذه الكيفية.

= ولا يصح؛ فإن راويه عن أبي أمامة هو: عمرو بن عبد الله السيباني - بالسين المهملة- الحضرمي، وهو مجهول، لا يعرف. ينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٠)، التقريب (ص٧٤٠)، وذكر ابن حبان له في (الثقات ٥/ ١٧٩) لا يغير شيئًا؛ فإنه ذكره جريا على قاعدته في ذلك، واما قول الهيثمي (مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٨): «رجاله ثقات»، فليس بظاهر، ثم لو اعتبرنا توثيق ابن حبان والهيثمي؛ فإن الخبر لا يقبل تفرد عمرو به، ولا يحتمل منه؛ فإن الهمم تتداعى على نقله!

ومما يقوي إعلال الخبر: أن الشيخين أخرجا أصل الخبر وأعرضا عن كل زيادة تعين موضع الطائفة المنصورة (صحيح البخاري: ٧٣١١، صحيح مسلم: ٢٤٧- ١٥٦).

وعدم اعتبار الأئمة التحديد دال على أنه لم يصح عندهم؛ فإن الإمام أحمد رحمه الله سئل عنهم فقال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم!»، ينظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (ص٧).

وقال البخاري رحمه الله (الجامع الصحيح ٩/ ١٠١): «هم أهل العلم».

قال القاضي عياض رحمه الله (إكمال المعلم ٦/ ٣٥٠): «إنما أراد الإمام أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث».

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (ح: ١٣/ ٧٦).

«حتى يأتي أمر الله -تبارك وتعالى-»: المراد بـ (أمر الله): قيام الساعة، وقد جاء في الحديث: «إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»(١).

(تبارك وتعالى)؛ أي: تعاظم، وهذه العبارة: (تبارك) لا يجوز إطلاقها إلا على الله عز وجل؛ كما في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فالله هو المبارك، والعبد هو المبارك، والفعل منه بركة، أما ما تقوله العامة مما هو جار على ألسنتهم عندما يسوق دابته يقول: «عساها تتبارك»، أو «جعلها تتبارك»، فهذا لا ينبغي، ولا يجوز، فلفظة (تبارك) لا يجوز إطلاقها إلا على الله، إنما تقول: «جعلها الله مباركة»، هذا لا بأس؛ لأن معنى: (تبارك): تعاظم؛ وهذا لا يصلح إلا لله، قال تعالى فيما حكى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، هذا معنى ما يقوله ابن القيم وغيره(٢).

وأما قولهم: «زارتنا البركة»، «هذا من بركاتك» فلا بأس به؛ لأنه من باب التفاؤل(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٠).

(٣) ويشهد لقول الشارح رحمه الله قول أسيد بن حضير في خبر عائشة رضي الله عنها وضياع عقدها: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر»، رواه البخاري (ح: ٣٣٤)، ومسلم: (ح ١٠٨ - ٣٦٧)، خلافا لمن منع.

(٢٣) باب ما جاء في السحر

وقول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: «الجبت»: السحر، «والطاغوت»: الشيطان[(١)].

وقال جابر: «الطواغيت»: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات».

قالوا: يا رسول الله: وما هن؟

قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(٣)].

وعن جندب مرفوعا: (حد الساحر ضربه بالسيف). رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (ح: ٥٤٤٣).

(٢) علقه البخاري مجزوما به (٦/ ٤٥)، ووصله ابن جرير (٤/ ٥٥٨)، وابن أبي حاتم (ح: ٥٤٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٧٦٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ١٤٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٦٦٥)، والدارقطني في سننه (ح: ٣٢٠٤)، والحاكم في المستدرك (ح: ٨٠٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٦٥٠٠).

وفي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[1].

وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت[2].

وكذلك صح عن جندب[3].

قال أحمد: «عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم».



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ١٦٥٧)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٠٤٣).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (ح: ١٤).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٨٩٧٧).

شرح: باب ما جاء في السحر

(السحر) هو: ما لطف وخفي سببه؛ وذلك أن السحرة يعملون الأعمال الغريبة التي ربما أثرت في أبدان الناس وقلوبهم بما يتعاطونه، تارة بالعقد والنفث، وتارة بالأدوية، فيؤثر ذلك ببدن المسحور -بإذن الله-، وهي رقى وعقد ينفثون فيها يقصدون بها التأثير بالمسحور.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: حظ ونصيب.

وفي السحر مؤلفات عديدة، منها مؤلف يسمى (مجربات) وهو مطبوع، ومنها كتاب آخر اسمه: «الجواهر اللماعة لإحضار ملوك الجان في الوقت والساعة»، أعمال تعملها عندهم، سبعة وعشرون عملا، فإذا عملتها حضرت الجن والشياطين إليك، ولكن لا يمكن ذلك إلا بالتقرب إليهم، وكذلك كتاب: «شمس المعارف الكبرى»، ولا شك أنها كتب شر.

والسحر حقيقة، وليس مجرد تخيلات، ويكفر الساحر على الصحيح، وقال الشافعية: لا يكفر، بل يسأل فيقال له: «صف لنا سحرك»، فإن وصفه بما يقتضى الكفر كفر وإلا فلا[1].

---

(١) ينظر: الأم (١/ ٢٩٣)، والحاوي الكبير (١٣/ ٩٦).

وأما مذهب الجمهور فهو: أن الساحر كافر، حلال الدم والمال[1]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قالوا: هذا يدل على أنه يكفر، وأما توبته فقد ذهب بعض العلماء إلى أنها لا تقبل، فلابد أن يقتل تاب أو لم يتب؛ وعللوا ذلك بأن السحر علم تعلمه يعرفه بقلبه، وتوبته لا تزيل هذا العلم من قلبه، فتقبل توبته فيما بينه وبين الله، أما في الأمر الظاهر فلابد من قتله.

ولكن القول الصحيح أن الساحر إذا تاب فإن الله يقبل توبته، وتعصم توبته دمه وماله؛ بدليل قصة سحرة فرعون وهم من أشد الناس سحرا قبلت توبتهم، ولم يؤثر عليهم علمهم بالسحر بشيء؛ لأنهم اعتقدوا أن هذا العلم باطل، كما أن الإنسان يعرف الكفر ولا يصير بعلمه الكفر كافرا إذا كان يتبرأ منه، وهذا هو قول كثير من أهل العلم.

والسحر له تأثير في الأبدان والقلوب؛ فإن السحرة يؤثرون على الناس بواسطة سحرهم، حتى أننا قرأنا في بعض كتبهم -قبحهم الله- أنهم يعملون شيئا من الأبخرة وشيئا من الطلسمات عندما يريد الإنسان أن تأتيه بنت فلان، فتأتيه البنت دون أن تشعر، وتطرق عليه الباب، وتدخل ويأخذ منها ما يريد، ثم تذهب

---

(١) ينظر: جامع الترمذي (٣/ ١١٢)، ودرر الحكام (١/ ٣٠٣)، والبحر الرائق (٥/ ١٣٦)، والبيان والتحصيل (١٦/ ٤٤٣)، والذخيرة (١٢/ ٣٦)، والفروع (١٠/ ٢٠٦)، والإقناع (٤/ ٣٠٧).

إلى بيت أهلها دون أن يشعر بها أحد أو يأتي بها أحد، بل بواسطة سحره، وبواسطة الشياطين الذين يستعين بهم لهذا الغرض، وهذا موجود، مما يدل على أن السحر له تأثير، وكذلك يخبرون بمكان المسروق والسارق وما أشبه ذلك، ويدخل في ذلك ما تفعله عجائز البادية من ضربهم بالودع ومعرفتهم المغيبات، وأن فلانا ذهب إلى كذا، أو فلانا بمحل كذا، وكله بواسطة الشياطين الذين يتقربون إليهم، والنبي ﷺ سُحِر؛ كما في حديث عائشة قالت: «سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ»[1]، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، وهنا سؤال يثيره أعداء الله، وهو: أنهم يقولون: كيف يوثق بما يأتي به النبي ﷺ من الأمر والنهي، ومن الأحكام، من التوحيد وهو في حالة يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، فهذا يكون نقصا في الرسول وهو المبلغ عن الله؟!

نقول لهم: أما بالنسبة للوحي فلاشك أن الله عصمه، ولا يدخل في هذا الباب، فالذي يأتيه من عند الله يبلغه النبي ﷺ بإذن الله، لا يدخل فيه من أنه يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وإنما هذا في فعله العادي؛ كمجيئه لنسائه، وما أشبه ذلك، أما بالنسبة للوحي والتشريع والحلال والحرام فهذا لم يأته شيء من ذلك؛ فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٢٦٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١٨٩).

وقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: «الجبت»: السحر، «والطاغوت»: الشيطان[1].

وقال جابر: «الطواغيت»: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد[2].

الكهان ينزلون منزلة السحرة؛ لأنهم يخبرون بالمغيبات بواسطة الشياطين، يصدقون مرة، ويكذبون مئة مرة؛ كما تقدم في باب قول الله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، من أن الشياطين يركب بعضهم بعضا حتى يصلوا إلى عنان السماء، فيسمعوا ماذا يقال في السماء، مما أوحى الله إلى رسوله ﷺ، فيسترق الأول كلمة، ثم يلقيها إلى من تحته، ثم من تحته إلى الآخر، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فيصدق مرة ويكذب معها مئة كذبة، فيقال: «أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا»؛ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

ولكن لما بعث الله محمدا ﷺ حرست السماء وحفظت؛ كما في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ٨-١٠].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (ح: ٥٤٤٣)، وقال الحافظ (الفتح ٨/ ٢٥٢): «إسناده قوي».

(٢) علقه البخاري مجزوما به (٦/ ٤٥)، ووصله ابن جرير (٤/ ٥٥٨)، وابن أبي حاتم (ح: ٥٤٥٢)، وإسناده جيد.



الحاصل: أن السحر له حقيقة، وله تأثير على الأبدان، وتأثير على القلوب؛ كما دل عليه القرآن العزيز، وأن الساحر كافر، ولهم في ذلك مؤلفات يأخذون بها أموال الناس، طلسمات يكتبونها، وحروف مقطعة، وأسماء غير معروفة، وهي موجودة مطبوعة -لا كثرهم الله-، وأكثر ما تكون في اليمن، وفي أفريقيا، وهناك من يأتي إلى مكة وعنده شيء من هذا الدجل، لكن الحكومة تطاردهم -جزاها الله خيرا-، فمتى عرف عن شخص منهم ذلك فإنه يبعد إلى بلاده، وربما قتل إذا اقتضى الأمر ذلك، فقد ألقي القبض على رجل اسمه: (داود)، ووجدت عنده كتب كثيرة، فبعثت تلك الكتب إلينا للاطلاع عليها وكنا في مكة، فاطلعنا عليها، ومما فيها: أنك عندما تريد أن تأتيك بنت تحبها تصنع بعد صلاة الفجر عند طلوع الشمس في كل زاوية من زوايا البيت كذا، وتبخر كذا، فما يمضي ربع ساعة إلا والبنت تأتيك، تضرب الباب!

وعندما تريد أن تعرف السارق أو المسروق انظر إلى شحمة عين المسروق منه، واعمل كذا وكذا؛ فإنك ترى صورة السارق في نفس عين المسروق منه، وما أشبه ذلك.

وقالوا: تكتب أسماء المتهمين في ورقة وتجعلها في كذا، ثم تفعل كذا، ثم تقلب الورقة فيكون اسم السارق منتفخ في الورقة، والبقية أسماؤهم في الورقة موجودة لم تتغير، وكل ذلك أو أكثره لا حقيقة له، دجل يريدون أن يأكلوا به أموال الناس بالباطل.

وقال بعض العلماء: السحر مجرد تخيلات وإيهام، وليس له حقيقة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: السحر له حقيقة، وليس مجرد تخيل، وإن كان فيه تخيل، ولكنه يؤثر على الأبدان، ويؤثر على القلوب، ويؤثر -أيضا- على السلوك.

والذي ينكر وجود السحر يكفر؛ لأن القرآن أثبته، فالذي ينكر وجود أصله يكفر؛ لأنه مكذب للقرآن، أما إذا كان لديه شبهة فهذا شيء آخر، قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ١-٤]، إذا لم يكن موجودا وله حقيقة فلم أمر الرب ﷻ بالاستعاذة منه؟!

وهنا أمر عجيب وهو: أن هؤلاء السحرة والدجالين تجدهم من أفقر الناس مع أنهم يدعون معرفة الغيب!

ويأتي في باب النشرة أن من ابتلي بشيء من السحر فإنه يحله بأمرين:

الأول: الأدوية المباحة، كورق السدر، كما نقل عن وهب بن منبه -ويأتي-.

الثاني: التوجه إلى الله بقلب حي، والتقرب إليه بقراءة القرآن على هذا المسحور أو المريض؛ لأن الله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فكما أنه شفاء للقلوب، فهو شفاء للأبدان -أيضًا-.

والسحر في نجد قبل دعوة الشيخ محمد رحمه الله كان موجودا بكثرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ».

قالوا: يا رسول الله: وما هن؟

قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»(١).

(اجتنبوا): أبلغ من (اتركوا)؛ لأن الترك يقتضي عدم الفعل، والاجتناب يقتضي عدم المقاربة لهذا الفعل.

(الموبقات): هي المهلكات، وهي كبائر الذنوب، وجاء هذا في الحديث أنها سبع، مع أن الكبائر أكثر من سبع، أوصلها بعضهم إلى سبعين كبيرة، بل بعضهم أوصلها إلى سبع مئة كبيرة، وألف فيها الإمام الذهبي كتابه: «الكبائر»، وألف -أيضًا- ابن حجر الهيتمي كتابه: «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، وألف غيرهما في بيان الكبائر.

و(الكبيرة) كما عرفها ابن تيمية وغيره هي: «كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو سخط أو نفي إيمان»(٢)، هذا هو تعريف الكبيرة.

فكل ما جاء في الأحاديث: «لعن الله من فعل كذا» فهي كبيرة، أو (غضب الله على من فعل كذا)، أو (لعنة الله على من فعل كذا)، أو (كان الذي في السماء ساخطا) مثل حديث: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»(٣)، وفي رواية لمسلم: «كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٧٦٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٨٩).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠)، والفتاوى الكبرى (٥/ ١٣٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٢٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا»[1]، فيكون امتناعها بلا عذر كبيرة.

(قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله»): هو أكبر الكبائر، وقد عقد المصنف عدة أبواب في ذلك فقال: (باب الخوف من الشرك)، و(باب من الشرك النذر لغير الله)، و(باب من الشرك الاستعانة بغير الله)، و(باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره).

والشرك ينقسم إلى قسمين:

شرك أكبر: وهذا لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة منه، وهو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وشرك أصغر: وهو ما ورد في النصوص تسميته (شركا) ولم يصل إلى حد الأكبر، كما قال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ❁ ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ❁ ـا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه بل يرجوه ثم يخافه ❁ ويحبه كمحبة الديان[2]

ويشهد له قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وما في صحيح مسلم من حديث جابر أن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص١٨٩).

«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»[1]، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»[2].

(وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق): قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وبسبب هذه الآية ذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أن القاتل لا تقبل توبته[3]، لكن جاء عن ابن عباس أنه رجع عن هذا القول، وأن توبته تقبل[4]، وهذا قول جماهير أهل العلم من لدن الصحابة ومن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ثبت ذلك عن ابن عباس من أوجه كثيرة، أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٨٥٥- ٤٥٩٠- ٤٧٦٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٣٠٢٣)، وابن جرير في جامع البيان (٧/ ٣٤٢- ٣٤٥).
وأما أبو هريرة فرواه عنه سعيد بن منصور في (التفسير ٦٦٩) من حديث حماد بن يحيى الأبح، ثنا سعيد بن مينا، عن أبي هريرة، به.
حماد بن يحيى الأبح أبو بكر السلمي فيه لين من جهة حفظه، قال البخاري: «يهم في الشيء بعد الشيء» (التاريخ الكبير ٢/ ٢٤)، وقال أبو زرعة: «ليس بالقوي» (الكامل ٣/ ٢٦)، فلا يحتمل منه تفرده بهذا.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح: ٤) أن رجلا قتل فسال ابن عباس: هل لي من توبة؟
فقال: «أمك حية؟».
قال: لا.
فقال: «تب إلى الله، وتقرب إليه ما استطعت».
فسأل عطاء ابن عباس: لم سألته عن أمه؟
فقال: «إني لا أعلم عملا أقرب إلى الله من بر الوالدة»، وإسناده جيد.

بعدهم[1]؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، فكما أن توبة المشرك إذا تاب مقبولة، وكذلك الزاني، فكذلك من قتل نفسا بغير حق، إذا تاب فالله يقبل توبته كما في هذه الآية، ولكن هل تقبل توبته فيكون كأنه لم يقتل؟

نقول: لا، بل القاتل عليه ثلاثة حقوق:

الأول: حق للمقتول، يخاصمه عليه عند الله ويقول: «فيم قتلتني؟»، فيؤخذ من حسنات القاتل وتدفع إلى المقتول، أو يؤخذ من سيئات المقتول وتدفع إلى القاتل.

الثاني: حق للورثة؛ فإن الورثة يتعلق حقهم في رقبة القاتل، فلهم الدم أو الدية.

= وروى ابن أبي شيبة (ح: ٢٧٧٥٣) من حديث أبي مالك الأشجعي، عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: لمن قتل توبة؟

فقال: ﷺ «لا، إلا النار».

فلما ذهب الرجل سأل ابن عباس جلساؤه، فقالوا: ما هكذا كنت تفتينا! كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمنا توبة مقبولة؟!

فقال: «إني أحسبه رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا».

فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك، رجاله ثقات أثبات، وسماع سعد من ابن عباس ممكن، ولم يذكر بتدليس.

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٨/ ١٥٩).

والثالث: حق لله؛ لأن القاتل سعى في الأرض بالفساد، وتعدى حدود الله.

(وأكل الربا): الربا كبيرة من كبائر الذنوب -أيضًا-، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع، لم يختلف المسلمون في تحريم الربا - في الجملة-، وإن كان هناك خلاف في بعض أفراد المسائل هل تلحق بالربا أو لا تلحق به؟ أما من حيث هو فالمسلمون مجمعون على تحريمه؛ كما دل عليه القرآن العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والأحاديث معروفة، وقال ابن دقيق العيد: «إن أكلة الربا مجرب لهم سوء الخاتمة»[1]؛ يعني: الذي يتعاطى الربا الغالب أنه لا يختم له بخير، بل يختم له بشر؛ لأن لحمه وجسمه تغذى على ذلك الحرام.

(وأكل مال اليتيم): فإن من تولى يتيما وصار تحت كفالته وولايته ثم خان الولاية بأن أكل مال اليتيم دون حق فالله توعده بأعظم عقوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ أي: بالتجارة فيه وتنميته.

(والتولي يوم الزحف): وهو أن المسلمين إذا قابلوا أعداءهم من الكفار،

---

(١) ينظر: فيض القدير (١/ ١٥٣).

وحمي الوطيس، والتحم القتال، تولى، وذهب، وترك مكانه، حتى صارت فرجة في صفوف المسلمين، مما يؤدي إلى انهزام المسلمين، وعلو كلمة الكفر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥- ١٦].

(وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات): وهو أن الإنسان يقول: «فلانة ليست عفيفة»، «فلانة يدخل عليها فلان»، يعرض بأنها تزني، و«أن الأجانب يفعلون بها»، وهي محصنة مؤمنة غافلة عما قيل في عرضها، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣]، هذه التي أخبر النبي ﷺ بأنها السبع الموبقات المهلكات.

وعن جندب مرفوعا: (حد الساحر ضربه بالسيف). رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ١٤٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٦٦٥)، والدارقطني في سننه (ح: ٣٢٠٤)، والحاكم في المستدرك (ح: ٨٠٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٦٥٠٠) من طريق إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندب، به مرفوعا.
وهو خبر منكر؛ إسماعيل هو المكي قال فيه الإمام أحمد: «منكر الحديث»، وقال النسائي: «متروك». ينظر: ميزان الاعتدال (١/ ٢٤٨).
ومن ظن أن إسماعيل هذا هو العبدي الثقة فقد وهم؛ فإن الراوي هنا عن إسماعيل هو: أبو معاوية، محمد بن خازم، وهو لا يروي عن العبدي.
وقد اضطرب فيه إسماعيل؛ فرواه عنه ابن عيينة، عن الحسن مرسلا - كما عند عبد الرزاق (١٨٧٥٢)-. =

هذا يدل على أن الساحر يقتل، وفي بعض الروايات: (ضربة)، وذلك أن الساحر الممخرق المشعوذ يظهر للناس أنه يفعل الشيء، ويقتل هذا الشخص ثم يعيد رأسه إليه، أو يشق بطنه ثم يعيده كما كان، وهذا لا حقيقة له وإنما يموه على الأبصار، فيظنون أنه يحيي الموتى، وأنه يبرئ الأكمة، وإنما هي تخيلات لا حقيقة لها، فيأتي الساحر ويحفر البئر والناس ينظرون، ثم يخرج ماءها بسرعة، ثم يزرع، ثم ينبت الزرع بسرعة!

وفي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[1].

= تابع إسماعيل خالد العبد، فرواه عن الحسن، عن جندب، به مرفوعا كما عند الطبراني (ح: ١٦٦٦)، وخالد قال فيه البخاري (التاريخ الكبير ٣/ ١٦٥): «منكر الحديث»، وكذبه الدارقطني (لسان الميزان ٣/ ٣٥٠)، فهذه متابعة واهية، والحديث ضعفه البخاري (العلل الكبير ١/ ٢٣٧)، والترمذي، والبيهقي، وابن عبد البر (الاستذكار ٨/ ١٦٠) في آخرين.

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (ح: ١/ ٣٨٣)- ومن طريقه البيهقي (ح: ١٦٤٩٨)-، وسعيد بن منصور (ح: ٢١٨٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٨٩٨٢)، وعبد الرزاق (ح: ١٨٧٤٦)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ١٦٥٧)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٠٤٣) من طريق سفيان – وهو ابن عيينة–، عن عمرو بن دينار، قال سمعت بجالة فذكره.

وقد تابع ابن جريج سفيان كما عند عبد الرزاق (ح: ٩٩٧٢)، وهذا إسناد صحيح، وأصل الخبر في البخاري (ح: ٣١٥٦)؛ فلذا عزاه المصنف إليه، وليس قتل السحرة فيه، والأمر كما قال العراقي:

والأصل يعني البيهقي ومن عزا،،، وليت إذ زاد الحميدي ميزا

تنبيه: قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان ٤/ ٥٧٣): «واعلم أن لفظة: «اقتلوا كل ساحر....» في هذا الأثر ساقطة في بعض روايات البخاري، ثابتة في بعضها، وهي ثابتة في رواية مسدد وأبي يعلى، قاله في (الفتح)». =

قد استدل بهذا من قال: إن الساحر لا يستتاب.

وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت[1].

وكذلك صح عن جندب[2].

قال أحمد: «عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم».

وكانت حفصة قد دبرت[3] تلك الجارية، فسحرتها الجارية في عجين صنعته.

كما قال المصنف: قتل الساحر صح عن جندب الخير، وعن عمر بن الخطاب، وعن حفصة رضي الله عنهم.

= وليس في شيء من روايات الصحيح التي وقف عليها الشراح ذكر هذه اللفظة، وسبب هذا الفهم أن البخاري روى أصل الخبر فقال: (حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، سمعت عمرا... الحديث).

قال الحافظ رحمه الله (الفتح ٦/ ٢٦١): «زاد مسدد وأبو يعلى في روايتهما: (اقتلوا كل ساحر...)».

أي: زاد مسدد وأبو يعلى معلى بن منصور في روايتهما عن سفيان بن عيينة زيادة ليست في راية ابن المديني، وهي: (أن اقتلوا...).

(١) أخرجه مالك في الموطأ (ح: ١٤) من حديث محمد بن عبد الرحمن بن زرارة بلاغا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٨٩٧٧) عن سفيان، عن أبي إسحاق -وهو السبيعي-، عن حارثة بن مضرب، أن جندبا قتل ساحر أو أراد قتله، وإسناده جيد.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي في السنن(ح: ١٦٥٠١) من حديث خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن جندب.

وقد تابع خالدا عاصم الأحول كما في (التاريخ الكبير).

(٣) أي: علقت عتقها بموتها رضي الله عنها.

(٢٤) باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

قال عوف: «العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض».

و(الجبت) قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه -المسند منه-[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، وإسناده صحيح[(٢)].

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه»[(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٢٠٦٠٤)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (ح: ١١٠٤٣).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٢٥٦٤٦)، وأحمد في مسنده (ح: ٢٠٠٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩٠٥).
(٣) أخرجه النسائي في سننه (ح: ٤٠٧٩)، والطبراني في الأوسط (ح: ١٤٦٩).

هي: النميمة، القالة بين الناس»[1].

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من البيان لسحرا»[2].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥١٤٦)، وليس هو عند مسلم من حديث ابن عمر، بل من حديث عمار بن ياسر (ح: ٨٦٩) رضي الله عنه.

شرح: باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

قال عوف: «العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض».

و(الجبت) قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه -المسند منه-[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، وإسناده صحيح[(٢)].

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٥٠٢)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٢٠٦٠٤)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (ح: ١١٠٤٣)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦١٣١)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٩٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى(ح: ١٦٥١٥).
عوف هو: ابن أبي جميلة الأعرابي، والخبر لا يصح؛ فحيان لا يكاد يعرف، وتوثيق ابن حبان له لا يغير شيئًا.
قوله: (ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه -المسند منه-).
أي: اقتصروا على إخراج المرفوع، أما النسائي وابن حبان فنعم، وأما الذي بين أيدينا من نسخ سنن أبي داود ففيها كلمة عوف، وقد نبه الشيخ سليمان على ذلك (التيسير ٢/ ٨١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باختلاف يسير (ح: ٢٥٦٤٦)، وأحمد في مسنده، بنحوه (ح: ٢٠٠٠)، وعبد بن حميد في مسنده، بنحوه (ح: ٧١٤)، وأبو داود في سننه، باختلاف يسير (ح: ٣٩٠٥)، وابن ماجه في سننه، باختلاف يسير (ح: ٣٧٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير،=

وللنسائي من حديث أبي هريرة ﵁: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[(١)].

وعن ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي: النميمة، القالة بين الناس»[(٢)].

(ألا هل أنبئكم)؛ أي: ألا هل أخبركم.

(العضه): بفتح العين وإسكان الضاد، و(العضه) لغة: القطع.

وفسرها النبي ﷺ بأنها القالة بين الناس، والنميمة هي: نقل حديث قوم إلى آخرين على جهة الإفساد بينهم.

= بنحوه (ح: ١١٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، بنحوه (ح: ١٦٥١٣)، وابن عبد البر «جامع بيان العلم وفضله»، باختلاف يسير (ح: ١٤٧٧) من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس به مرفوعا، وإسناده صحيح كما قال المصنف ﵀.

(١) أخرجه النسائي في سننه (ح: ٤٠٧٩)، والطبراني في الأوسط (ح: ١٤٦٩)، وابن عدي (٥/ ٥٥١) من طريق عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
قال الذهبي (الميزان ٢/ ٣٧٨): «هذا الحديث لا يصح، للين عباد، وانقطاعه»، فتعقبه ابن مفلح (الآداب الشرعية ٣/ ٨٢) فقال: «كذا قال، ويتوجه أنه حديث حسن».
قلت: كيف يتوجه و(عباد) ضعفه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو داود، والنسائي، وابن عدي، والعقيلي، مع ضميمة الانقطاع بين الحسن وأبي هريرة؟!
ينظر: الجرح والتعديل (٦/ ٨٧)، الضعفاء للنسائي (ص٧٤)، الضعفاء للعقيلي (٣/ ١٣٣)، الكامل (٥/ ٥٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٦٠٦).

وهي التي نهى عنها القرآن، قال تعالى في وصف من استعملها: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وثبت في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[(١)]؛ أي: نمام.

والنميمة بها تسفك الدماء، وبها تقطع الأرحام، وبها يتفرق الصديقان، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فأخذ الجريد فشقه نصفين فوضع على كل قبر منه شقا، وقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[(٢)]، فالذي يمشي بالنميمة يعذب في قبره؛ لأنها تفسد بين الصاحبين، وبين الأب وابنه، وبين الرجل وأهله، وبين القبيلة والقبيلة.

ووجه كون النمام يعذب في قبره هو: أن النميمة مقدمة لسفك الدماء، وذلك أن نقل حديث هؤلاء إلى هؤلاء على جهة الإفساد بينهم يذكي العداوة حتى تؤدي إلى سفك الدم، وأول ما يقضي الله فيه بين خلقه: الدماء[(٣)]، قبل أن يقضي بينهم في الأموال وغيرها، فلما كانت النميمة مقدمة لسفك الدماء، ناسب أن يعذب النمام في قبره قبل عذاب الآخرة، هذا وجهه.

وهي -أيضًا- من السحر، وذلك أن الساحر يفسد جسم المسحور، ويخيل إليه بسحره، والنمام فعله فيه شيء من الخفاء؛ يأتيك على جهة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٠٥٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢١٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٥٣٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

النصيحة، ولكن يفسد قلبك الذي هو ملك الأعضاء والذي إذا فسد فسدت الأعضاء، وإذا صلح صلحت الأعضاء، كما يفسد قلب صاحبك الذي نقل إليك حديثه بنقل حديثك إليه، فتكبر المسألة وربما امتدت للقبيلتين، فيحصل بذلك ما يحصل من الفساد؛ ولذا قال يحيى بن أبي كثير: «يفسد النمام في الساعة الواحدة ما لا يفسده الساحر في السنة»[1].

فكما أن السحر يفسد الأبدان، فهذا يفسد القلوب.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[2].

(إن من البيان لسحرا) قيل: إنه خرج مخرج المدح، وهو من السحر الحلال، وقيل: إنه خرج مخرج الذم؛ لأن السحر ممنوع، فشبه هذا البيان بالسحر مما يدل على منعه.

والبيان: البلاغة والفصاحة، يأتي الرجل وقد أعطي شيئا من البلاغة والفصاحة فيتكلم بسجع أو شعر أو كلام موزون يؤثر على السامع، فتظن أنه محق في كلامه، وهو في الحقيقة مبطل، هذا هو الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا،

---

(١) نقله ابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥١٤٦)، وليس هو عند مسلم من حديث ابن عمر بل من حديث عمار بن ياسر (ح: ٨٦٩) رضي الله عنهما.

فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1].

فالبيان والبلاغة والأسلوب والفصاحة إن استعملت في نصر الحق فإنها ممدوحة، وإن استعملت في نصر الباطل فهي مذمومة، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

في زخرف القول تزيين لباطله ❁ والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول: «هذا جنى النحل» تمدحه ❁ وإن تشأ قلت: «ذا قَيْءُ الزنابير»
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما ❁ حسن البيان يري الظلماء كالنور[2]

يأتيك بعبارات مزخرفة، وبأسلوب قوي؛ مما يجعل الباطل عند السامع حقا، والآخر قد يكون محقا ولكن ليس لديه من الأسلوب ولا من الفصاحة ما يستطيع أن يعبر به عن بيان الحق وإيضاحه، لا يسعفه لسانه، فيظن أن المحق والمصيب هو هذا البليغ الفصيح وهو مبطل، ويظن أن المبطل هذا الذي عنده عي وعدم بيان وهو محق.

فإن كان هذا البيان، وهذه الفصاحة في نصر الحق وإيضاحه وبيانه، وفي قمع الباطل والإشادة بفساده فهذا ممدوح، وهو المطلوب، وقد كان رجل يقال له: (أبو إسحاق الصابي) يكتب كتابات جيدة، وعنده قوة أسلوب، وفصاحة، إلا أنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٨٠)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) الأبيات منسوبة لابن الرومي، وربما نسبت لغيره. **ينظر**: المثل السائر (٢/ ٩٩). **ينظر**: وفيات الأعيان (١/ ٣٣). **ينظر**: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٣٣).

لم يكن مسلما بل كان نصرانيا، وكان يكتب لبعض الخلفاء، وألقي القبض على ذلك الخليفة، وجاء الذي بعده فتولى الخلافة فبعث إلى أبي إسحاق، وجعله لرسائل الديوان، قال: «لا أستطيع» - محافظة منه على عهد الخليفة الأول-.

فألزمه فلم يسعه إلا الإجابة، فصار في الديوان لكتابة الرسائل، فدخل عليه رجل وهو يكتب قال: ما تكتب يا أبا إسحاق؟

قال: «أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها»[1]!



(١) كان يكتب أولا لعز الدولة، ثم استكتبه عضد الدولة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٣).

الفهرس





